إدغار ألن بو

القِطّ الأسوَد

وَقصص أخرى

نقلتها عن الانكليزية

خالدة سعيد

دار الآداب - بيروت

إدغار ألن بو

القطّ الأسود

وقصص أخرى

نقلتها عن الانكليزية

خالدة سعيد

دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٦

صدرت الطبعة الأولى من هذه القصص عن دار مجلة شعر بعنوان «مغامرات وأسرار» بيروت
١٩٦٢

مقدمة (*)

كتب الشاعر الفرنسي ألفرد دي فيني كتاباً خاصاً لكي يبرهن فيه أنَّ الشاعر لا يستطيع أن يجد له مركزاً أو مكاناً جيداً في أي مجتمع، سواء كان ديموقراطياً أو أرستوقراطياً، جمهورياً أو ملكياً.

في هذه الفكرة الكثير من الصحَّة. ولئن كانت الذّاكرة تعوزنا أحياناً لاستحضار الأمثلة من التاريخ، فإن الحاضر الذي نعيشه يقدّم لنا المزيد منها ويغنينا عن التذكر.

إدغار آلن بو، أحد الأمثلة.

إنَّ حياة الشاعر وعاداته وسلوكه وكيانه الجسمي وما يشكل مجموع شخصيَّته ـ هذا كله يبدو لنا شيئاً مُعتماً ومشعاً في آنٍ واحد. كانت شخصيّته فريدة آسرة، تتميَّز، مثل نتاجه، بطابعٍ من الكآبة لا حدود له. ورغم أنه كان صغير البنية، مُرهف الملامح، فقد كان أكثر من قويّ وكان البأسُ يتفجَّر من قسماته. كأنَّ الطبيعة تمنح مزاجاً حيوياً شديداً لهؤلاء الذين تريد أن تأخذ منهم الأشياء الكبيرة، كما تمنح الحيوية الهائلة للأشجار التي قُدر لها أن ترمز إلى الحداد والألم.

كان سلوكه مزيجاً غريباً من الكبرياء والعذوبة الوادعة، وكل شيء فيه يشير إلى أنه كائنٌ مصطفى. كان أشبه بهؤلاء الذين يعبرون فيجذبون أعين الذين يرونهم ويملأون ذاكرتهم. وربما يجهل الكثيرون أنه كان يمتاز بحساسية مدهشة اختُصَّت بها المرأة الفرنسية، فكان يعرف أن يتزين بلا شيء، ويعرف أن يحوّل الكوخ إلى قصرٍ من نوعٍ جديد. ثمَّ، ألم يضع، بأصالةٍ

* رأينا، لمناسبة هذه الترجمة العربية لبعض من آثار إدغار آلن بو، أن بودلير هو أفضل من يقدمه للقراء العرب؛ ونثبت هنا مقاطع من مقدمة كتبها الشاعر الفرنسي الكبير بعنوان «إدغار بو، حياته وأعماله» حين قام بترجمة هذه الأعمال إلى الفرنسية.

وتفرد، مشاريع كثيرة لزخرفة البيوت وتأثيثها، وتصاميم لبيوت ريفية وحدائق، ومخططات لتحسين الريف وتجميله؟

تقول السيدة فرانسيس أوزغود F. Osgood إحدى صديقاته في رسالة لها: «لم تتعرَّف عليه امرأةٌ إلا أحست بجاذب عميق نحوه. وكنت أراه دائماً مثالاً للأناقة والامتياز وشرف النفس». وتحدثت عن لقائهما الأول حين طلب إليها رأيها في قصيدته ـ «الغراب» فقالت: «الموسيقى الخفيَّة الساحرة في هذه القصيدة الفريدة نفذت إلى أعماقي حتى أنني حينما عرفتُ أنه كان يرغب في إهدائها إليّ، أحسستُ بشعور غريب يُشبه الرعب. وأقبل، برأسه الجميل الشامخ، وعينيه الكئيبتين المليئتين بنور فريد ـ من الفكر والعاطفة، وهيئته الوديعة المتعالية في آنٍ واحد وبشكل لا يُفسَّر؛ ـ حيَّاني هادئاً، رصيناً، بارداً تقريباً؛ لكن، تحت هذه البرودة، كان يتململُ تعاطفٌ واضحٌ أثر فيَّ أعمق التأثير. وصرنا صديقين منذ هذه اللحظة حتى موته. . .

«. . . ظهرت لي شخصيته بأبهى أضوائها، في دخيلته البسيطة الشعرية معاً. كان مَرِحاً، عاطفياً، روحيَّ النزعة، وديعاً تارةً شيطاناً تارةً كطفلٍ مدلل؛ . . . أما بالنسبة للحب، فأعتقد أن زوجته هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبّاً حقيقياً دائماً».

ليس في قصص بو حبٌّ، بالمعنى الخالص لهذه الكلمة. لعله كان يعتقد أن النثر ليس لغةً في مستوى هذه العاطفة الخارقة التي يكاد يستحيل التعبير عنها؛ ذلك أن شعره، على النقيض، مُشبعٌ مليءٌ بالحب. الحب في شعره رائع، مكوكب، تغطيه دائماً كآبة لا شفاء منها. وفي جنَّة أرنهايم (آخر قصة في هذه المختارات) يؤكد أن الشروط الأولية الأربعة للسعادة هي: الحب، الحياة في الهواء الطلق، التخلص من كل طموح، وخلق جمال جديد. فليس في نتاجه كله، رغم موهبته المعجزة في المرعب والمضحك، فقرة واحدة تتصل بالدعارة أو حتى بلذات الجسد. والصور التي يقدمها عن النساء، صور تحيط بها الهالات؛ إنها مرسومة بلهفة المتعبد ولهجته، مغمورة بضبابٍ سماويٍّ شفَّافٍ.

أما عن السُّكْر الذي أثر عنه وانتقد عليه كثيراً، فيقول الذين كانوا يعرفونه حقَّ المعرفة إن كمية قليلة من الخمر أو الشراب كانت تكفي للتأثير فيه. ويسهل، من ناحية ثانية، الافتراض أن شاعراً عاش في مثل وحدته وشقائه الهائلين، يبحث أحياناً عن لذة النسيان في الشراب. الأحقاد والشتائم الأدبية، دُوار اللانهاية، الآم الحياة اليومية، مشاكل البؤس ـ من هذا كله كان يهرب إلى سواد السُّكر، إلى ما يشبه القبر التمهيدي. وهو لم يكن يشرب كما يفعل الكحوليّ المنهوم، بل كما يشرب الرجل الخشن القاسي بنشاط واقتصاد في الوقت، كما لو أن في داخله شيئاً يريد أن يقتله. ثم إن صفاء أسلوبه وإحكامه، ووضوح تفكيره، وحماسه للعمل ـ هذا كله لم يكن يتأثر إطلاقاً بعادة سُكره.

أكيد أنه ليس في السكر تتابع أحلام وحسب، بل أيضاً سلسلة من الأحكام التي تحتاج،

كي تظهر ثانية وتتكاثر، إلى الوسط الذي نبحث عنه. أريد أن أقول إن سكر بو كان في حالات كثيرة وسيلة للتذكر، ومنهج عمل؛ وكان هـذا المنهج خـلّاقاً ومميتـاً، لكنه كـان يلائم طبيعتـه الجامحة. فلقد اهتمَّ أن يشرب، كما يهتم الأديب الكثير التدقيق بتدوين يومياته وملاحظاته. كان يعجز أن يقاوم رغبته وشوقـه إلى الإلتقاء بعـوالم الرؤى العجيبـة والتصورات البـالغة النعـومة واللطف، ممَّا رآه في عاصفة ماضية؛ كانت هذه المعارف والصداقات القديمة تجذبه إليها بطغيان، وكـان يسلك إليها الـطريق الأكثر خـطراً، لكن الأكثر استقـامة. إن جـزءاً مما يخلق سـرورنـا واستمتاعنا اليوم، هو نفسه الذي أماته.

ولد إدغار آلن بو في بوسـطن عام ١٨١١. كـانت أمه ممثلة إنكليـزية هـرب معها أبـوه وتزوَّجها، ثم أصبح ممثلاً، وظهر مع زوجته على عدَّة مسـارح. مات الـزوجان في آن واحـد تقريباً، تاركين للفقر المدقع ثلاثة أطفال بينهم إدغار آلن بو. كان جميل الملامح، نحيلاً، شاحب اللون. تبنته فرانسيس آلان، زوجة تاجر غنيّ اسمه جون آلان، كان بخيلاً وقـاسياً. أخـذاه معهما في رحلة إلى إنكلترا وإيكوسيا وإيرلندا. ثم تركاه عند الدكتور برانسبي الذي كان يـدير معهداً تربوياً في بلدة قرب لندن. وقد وصف بو هـذا المعهد في قصتـه «وليم ولسن». وحين ترك هذا المعهد التحق بجامعة في ريتشموند، فتميَّز بذكائه المعجز وغرابة شخصيته. وقد اعتبر والده بالتبنّي هذه الغرابة سلوكاً سيئاً وقطع عنه المعونة المالية، فاضطُّر إلى ترك الجامعة.

اشترك، في أشدّ فترات بؤسه، في مسابقتين للشعر والقصة وقد فاز بجائزتيهما، إلا أنه لم يمنح غير جائزة واحدة. وقد أبدى رئيس اللجنة رغبته بالتعرف إليه، ثم ساعده فأوجد له عملاً في إحدى المجلات الصادرة في ريتشمونـد. هكذا وجـد نفسه، وهـو في الثانيـة والعشرين من عمـره، مديـراً لمجلة أدبية ومسؤولاً عنهـا. وقد أدهش قـراءه بسلسلة من قصصه ذات النـوع الجديد، ومقالاته النقدية الجريئة، الواضحة الصارمة، مما دفع المجلة في طريق التقدم والشهرة. ورغم ذلك اختلف بو مع صاحب المجلة، فتركها وكان قد تزوج، وأخذ يشرد مع زوجته الفتية من مكان إلى آخر. وبعد أن ماتت زوجته اشتدت عليه وطأة العذاب والبؤس حتى مات.

ماذا أقول عن نتاج هذا العبقري المفرد؟ طالما قيل عنه: «أدب انحطاط!» هذا قول فارغ نسمعه كثيراً يسقط مع رنين التثاؤب المنتفخ من أفواه الكائنات السفنكسية التي لا سرّ فيها والتي تسهر على الأبواب المقدسة في ممالك الجمالية الكلاسيكية. ليسمح لي هؤلاء الحكماء أن أسألهم إذا كانوا يدركون بطلان حكمتهم وعدم جدواها. «أدب انحطاط»، عبارة تضمر وجود سلّم من الأنواع الأدبية ـ أدب ولادة، أدب طفولة، أدب مراهقة... الخ؛ أعني أن هذه العبارة تفترض في الأدب وتطوره نوعاً من الحتمية والعناية الإلٓهية.

هذه الشمس التي كانت، منـذ هنيهة، تصعق الأشيـاء كلها بنـورها الأبيض المستقيم، ستغمر، بعد قليل، الأفق الغربيّ بألوانٍ من كل نوع. بعض الشعراء يجدون لذة جديدة في لعب هـذه الشمس التي تموت؛ يكتشفـون فيه صفـوفاً أخّـاذة من الأعمدة، وشـلالات من المعـدن

الذائب، وجنّات من النار، وبهاء حزيناً، وغبطة ندم، وطلاسم حلم، وذكريات أفيون. ويبدو لهم غروب الشمس أشبه بروح مليئة مثقلة بالحياة تهبط وراء الأفق حاملة ذخراً هائلاً من الأحلام والخواطر. هذا ما لم يفكر فيه الأساتذة السفنكسيون؛ فمثل هذا التعقد في حركة الحياة، وهذا التوافق الغريب الممكن، وهذا الجديد ـ لا يعني شيئاً لحكمة التَّلْمذ، وروح المدرسة.

المخلية عند إدغار آلن بو هي ملكة الطاقات الروحية. لكنه يعني بهذه الكلمة شيئاً أعظم مما يعرفه عامة القراء. ليست المخيلة التوهم؛ ليست كذلك الحساسية وإن كان صعباً تصور إنسان خياليّ غير حساس. المخيلة طاقة شبه إلهية، تكتشف، بعيداً عن المناهج الفلسفية وخارجها، العلائق الحميمة بين الأشياء، وأسرارها وتطابقها وتجانسها. وهو يمنح لهذه الطاقة أهمية ووظيفة إلى درجة أن العالم الذي يخلو منها عالم مزيف أو على الأقل، عالم ناقص.

تحقّق المخيَّلة أغرب النتائج، وتجني الكنوز ـ لا الأغنى والأثمن (فهذه وقفٌ على الشعر) بل الأكثر عدداً وتنوعاً، في القصّة القصيرة. إن بّو يؤثرها على القصّة الطويلة، لكثافة تأثيرها وكلّيته ووحدة الانطباع الذي تولّده؛ ـ حتى أن الأقصوصة تفضل، من هذه الناحية، القصة القصيرة. الإيقاع ضروري لنمو فكرة الجمال، التي هي هدف القصيدة الأكبر والأسمى. لكن حيل الإيقاع عقبةٌ في وجه هذا النمو الدقيق للأفكار والتعابير التي تتخذ الحقيقة موضوعاً لها. وكثيراً ما تكون الحقيقة هدف القصة القصيرة؛ والتعليل هو أفضل أداة لبناء قصة قصيرة كاملة. لهذا يقدر هذا النوع الأدبي، غير المهيَّأ لعلوٍّ عظيم كعلو الشعر الخالص، أن يقدم نتاجاً أكثر تنوعاً وقابلية للانتشار. نضيف إلى ذلك أن كاتب القصة القصيرة يمتلك عدداً كبيراً من الإمكانيات التعبيرية لا تصحّ في الشعر الخالص.

ليس إدغار آلن بّو كبيراً، بعدته الأدبية المعجزة وحسب، بل أيضاً بحبه للجميل، وإدراكه شروط انسجام الجمال، وبشعره العميق الحزين، الشفاف المحكم كالجوهرة، وبأسلوبه العجيب الصّافي الخارق المسرود كالدِّرع، السهل الممتنع الذي يهدف، أول ما يهدف، إلى دفع القارىء بليونة ويُسر نحو الهدف المقرر؛أخيراً، على الخصوص، بهذه العبقرية التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة، فائقة، آسرة، مرعبة ـ كل ما هو غريبٌ واستثنائي في نظام الحياة والفكر.

يدخل القارىء إلى عالمه كما يدخل إلى دوَّامة، بهدوء ودون عنف. إن زهوه يفاجىء ويترك الفكر في يقظة. نشعر أوّلاً أن ثمة شيئاً جليلاً. ثم تنعرض رويداً رويداً، قصة تكمن لذتها كلها في زيغان الذهن زيغاناً لا يُدرك، في تصور غير منتظر، في فرضيَّة جريئة، في تهور بين مزالق الطبيعة ـ وهذا كله يجري في مزيج غريب من الطاقات الروحية الغريبة. وإذ يتحد القارىء بهذا الدُّوار يُضطر إلى متابعة الكاتب في سرده القصصي الجذّاب.

لم يتحدث أي إنسان بسحر أروع من سحر حديثه عن الاستثناءات والمفارقات في الحياة الإنسانية وفي الطبيعة: ـ نهايات الفصول المثقلة بالبهاء المُسكر؛ الساعات الدافئة، الرطبة الضبابية حيث الريح الجنوبية تُرخي الأعصاب كالحبال، وحيث تمتلىء العيون بدمع لا يأتي من القلب؛ التهاويل التي تفتح الطريق أولاً للشك، ثم لا تلبث أن تصير مقنعة، مليئة بالبراهين كالكتاب؛ العبث الذي يسكن في البصيرة ويحكمها وفق منطق رهيب؛ التهيج العصبي الذي يغتصب الإرادة ويذللها؛ التناقض القائم بين الأعصاب والفكر؛ الإنسان المتصدّع إلى درجة التعبير عن الألم بالضَّحك. إنه يحلّل أكثر الأشياء هروباً وتفلتاً من التحليل، يزن ما لا يُوزن، يصف بطريقة محكمة وعلمية مخيفة، هذا العالم الخيالي الذي يتموَّج حول الإنسان العصبي ويتحكم به ويقوده. إن إدغار آلن بّو، شأنه في ذلك شأن دولاكروا الذي ارتفع بفنّه إلى مستوى الشعر العظيم، يحبّ أن يحرك أشكاله على أرض بنفسجية وخضراء حيث يتجلّى وميض العفن ورائحة العاصفة. الطبيعة المسماة ميتة، تشارك طبيعة الكائنات الحية؛ ومثلها ترتعش رعشة كهربائية خارقة. الأفيون يعمّق الفضاء، يُعطي معنى سحرياً للأصباغ ويجعل الأصوات تهتز برنين أكثر دلالة. وكثيراً ما تفاجئنا فلتاتٌ رائعةٌ من الكلام والضوء واللون في ما يقدمه لنا. ونلمح بغتة مدناً شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البُعد، حيث الشمس تمطر الذَّهب، وحيث الغرابةُ جزءٌ من الجميل لا يتجزَّأ.

هذا الشخص الذي اجتاز الأعالي الفنية الوعرة، وغاص في مهاوي الفكر الإنساني، واكتشف، عبر حياته الشبيهة بالعاصفة التي لم تهدأ، طرائق جديدة وأشكالاً مجهولة، لكي يدهش الخيال ويروّي العقول الظامئة أبداً إلى الجمال؛ ـ هذا الشخص مات فوق أحد المقاعد في الشارع، عام ١٨٤٩، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً.

(عن الفرنسية)

القط الأسود

لست أتوقع منكم، بل لست أطلب أن تصدّقوا الوقائع التي أسطّرها هنا لقصة هي أغرب القصص وإن كانت في الآن عينه مألوفة للغاية. سوف أكون مجنوناً لو توقعت أن تصدقوا ذلك، لأن حواسّي ذاتها ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته. غير أنني لست مجنوناً ـ ومن المؤكد أنني لا أحلم. وإذ كنت ملاقياً حتفي غداً فلا بدَّ لي من أن أزيح هذا العبء عن روحي.

ما أرمي إليه هو أن أبسط أمام العالم، بوضوح ودقة، وبلا أي تعليق، سلسلة من الوقائع العادية جداً. إنها الوقائع التي عصفت بي أهوالها ـ واصلت تعذيبي ـ ودمرتني. مع ذلك لن أحاول تفسيرها. وإذا كنت لا أجد فيها غير الرعب فإنها لن تبدو للآخرين مرعبة بقدر ما ستبدو نوعاً من الخيال الغرائبي المعقد. قد يجيء في مقبل الأيام ألمعيّ حصيف يبيّن له تفكيره أنَّ هذا الكابوس مجرد أحداث عادية ـ وربما جاء ألمَعيُّ آخر أكثر رصانة وأرسخ منطقاً، وتفكيره أقل استعداداً للإثارة من تفكيري، ليرى في الأحداث التي أعرضها بهلع مجرد تعاقب مألوف لأسباب طبيعية ونتائجها المنطقية.

عُرفت منذ طفولتي بوداعتي ومزاجي الإنساني الرقيق، حتى أنَّ رقة قلبي كانت على درجة من الإفراط جعلتني موضوع تندّر بين زملائي. وقد تميّزتُ بولع خاص بالحيوانات مما جعل أبويّ يعبّران عن تدليلهما لي بإهدائي أنواعاً من الحيوانات المنزلية. مع هذه الحيوانات كنت أمضي معظم أوقاتي ـ ولم أعرف سعادة تفوق سعادتي حين كنت أطعمها وأداعبها. نمت هذه الطباع الغريبة مع نموّي، وكانت لي في طور الرجولة أكبر منابع المتعة. الذين عرفوا مشاعر الولع بكلب أمين ذكي سوف يفهمون بسهولة ما أود قوله عن مدى البهجة المستمدَّة من العناية بحيوان أليف. إنَّ في تعلّق الحيوان بصاحبه تعلّقاً ينكر الذات ويضحي بها ما يخترق قلب الإنسان الذي هيأت له الظروف أن يعاني من خسة الصداقة وضعف الوفاء عند الجنس البشري.

تزوجت في سنّ مبكرة، وقد أسعدني أن أجد في مزاج زوجتي ما لا يناقض مزاجي. وإذ لاحظت ولعي بالحيوانات المنزلية لم تترك مناسبة تمرّ دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر إمتاعاً وإيناساً. هكذا تجمّع لدينا طيور وأسماك ذهبية، وكلب أصيل وأرانب وقرد صغير وقط.

كان هذا القط كبير الحجم بشكل مميّز، جميل الشكل، أسود اللون بتمامه، وعلى قدر عجيب من الذكاء. كانت زوجتي التي لا أثر للمعتقدات الخرافية في تفكيرها، حين تتحدث عن ذكائه، تشير إلى الحكايات الشعبية القديمة التي تعتبر القطط السود سَحَرةً متنكرين. هذه الإشارات لا تعني أنها كانت، في يوم من الأيام، جادّة حول هذه المسألة. أذكر هذا الآن لسبب وحيد هو أنه لم يرد إلى ذهني قبل هذه اللحظة.

كان بلوتو ـ وهذا هو اسم القط ـ حيواني المدلل وأنيسي المفضل. أطعمه بنفسي، ويلازمني حيثما تحركت في البيت. بل كنت أجد صعوبة لمنعه من اللحاق بي في الشوارع.

دامت صداقتنا على هذه الحال سنوات عديدة، تبدّل خلالها مزاجي وساء سلوكي بفعل الإدمان على المسكرات ـ (إني أحمرّ خجلاً إذ أعترف بذلك)ـ ويوماً بعد يوم تزايدت حدة مزاجي وشراستي، واستعدادي للهجيان. وتزايد استهتاري بمشاعر الآخرين. ولكم عانيت وتألمت بسبب التعابير القاسية التي رحت أوجهها إلى زوجتي. حتى أنني في النهاية لجأت إلى العنف الجسدي في التعامل معها. وبالطبع فقد استشعرت حيواناتي هذا التغيّر في مزاجي. ولم أكتفِ بإهمالها، بل أسأت معاملتها. وإذا كان قد بقي لبلوتو بعض الاعتبار مما حال دون إساءتي إليه، فإنني لم أستشعر إثماً في الإساءة إلى الأرانب أو القرد، أو حتى إلى الكلب، كلما اقتربت مني مصادفة أو بدافع عاطفي. غير أنَّ مرضي قد تغلب عليَّ ـ وأي مرض كالمسكرات! ـ ومع الأيام حتى بلوتو، الذي صار هرماً، ومن ثمَّ عنيداً نكداً ـ حتى بلوتو بدأ يعاني من نتائج مزاجي المعتلّ.

ذات ليل كنت عائداً إلى البيت من البلدة التي كثر ترددي إليها وقد تعتعني السكر؛ وخيِّل إليَّ أنَّ القط يتجنب حضوري؛ فقبضت عليه؛ وإذ أفزعته حركاتي العنيفة جرحني بأسنانه جرحاً طفيفاً، فتملكني غضب الأبالسة. وبدا أنَّ روحي القديمة قد اندفعت على الفور طائرة من جسدي؛ وارتعد كل عرق في هيكلي بفعل حقد شيطاني غذّاه المخدّر. فتناولت من جيب سترتي مطواة، فتحتها، وقبضت على عنق الحيوان المسكين واقتلعت عامداً إحدى عينيه من محجرها! إنني أحتقن، أحترق، أرتعد حين أكتب تفاصيل هذه الفظاعة الجهنمية.

لَمَّا استعدت رشدي في الصباح ـ لَمَّا نوَّمت هياج الفسوق الذي شهده الليل ـ عانيت شعوراً هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبتها، غير أنَّ ذلك كان في أحسن الحالات شعوراً ضعيفاً وملتبساً لم يبلغ منّي الأعماق. ومن جديد استحوذ عليَّ الإفراط في الشراب. وسرعان ما أغرقت الخمرة كل ذكرى لتلك الواقعة.

في هذه الأثناء أخذ القط يتماثل للشفاء تدريجياً. صحيح أنَّ تجويف العين الفارغ كان يشكّل منظراً مخيفاً، لكن لم يبد عليه أنه يتألم. وعاد يتنقل في البيت كسابق عهده، غير أنَّه، كما هو متوقَّع، كان ينطلق وقد استبدَّ به الذعر كلما اقتربت منه. كانت ما تزال لديَّ بقايا من القلب القديم بحيث ينتابني الحزن إزاء هذه الكراهية الصارخة يبديها لي كائن أحبَّني ذات يوم. لكن سرعان ما حلَّ الانزعاج محلّ الحزن. وأخيراً جاءت روح **الانحراف** لتدفعني إلى السقوط الذي لا نهوض منه. هذه الروح لا توليها الفلسفة أي اعتبار. مع ذلك لست واثقاً من وجود روحي في الحياة أكثر من ثقتي أن **الانحراف** واحد من النوازع البدئية في القلب البشري - واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه سلوك الإنسان. من منّا لم يضبط نفسه عشرات المرَّات وهو يقترف إثماً أو حماقة لا لسبب غير كون هذا العمل **محرَّماً**؟ أليس لدينا ميل دائم، حتى في أحسن حالات وعينا، إلى خرق ما يعرف **بالقانون** لمجرد علمنا بأنه قانون؟ روح **الانحراف** هذه، هي التي تحرَّكت تدفعني إلى السقوط النهائي. إنها رغبة النفس الدفينة لمشاكسة ذاتها - لتهشيم طبيعتها ذاتها - لاقتراف الإثم لوجه الإثم - هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيراً الإجهاز عليه. فذات صباح، وعن سابق تصوّر وتصميم لففت حول عنقه أنشوطة وعلقته بغصن شجرة - شنقته والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم أمرّ مشاعر الندم؛ - شنقته **لعلمي** أني بذلك أقترف خطيئة - خطيئة مميتة سوف تعرض روحي الخالدة للهلاك الأبدي، وتنزلها - إن كان أمر كهذا معقولاً - حيث لا تبلغها رحمة أرحم الراحمين والمنتقم الجبَّار.

في الليلة التي وقع فيها هذا الفعل الشنيع، استيقظت من النوم على صوت النيران. كان اللهب يلتهم ستائر سريري والبيت بكامله يشتعل. ولم ننج أنا وزوجتي والخادم من الهلاك إلا بصعوبة كبيرة. كان الدّمار تامّاً. ابتلعت النيران كل ما أملك في هذه الدنيا، واستسلمت منذ ذاك للقنوط واليأس.

لم يبلغ بي الضعف مبلغاً يجعلني أسعى لإقامة علاقة السبب والنتيجة بين الفظاعة التي ارتكبتها والكارثة التي حلَّت بي. لكنني أقدّم سلسلة من الوقائع - وآمل ألّا أترك أي حلقة مفقودة في هذا التسلسل. في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أزور الأنقاض. كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد. هذا الجدار الذي نجا بمفرده لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الحجرات ويقع في وسط البيت، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس. وقد صمد طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام فعل النيران - وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص حديثاً. أمام هذا الجدار كان يتجمهر حشد من الناس، وبدا أن عدداً كبيراً منهم يتفحَّص جانباً مخصوصاً منه باهتمام شديد. فحرَّكت فضولي تعابير تصدر عن هذا الحشد من نوع «عجيب!» «غريب!»؛ دنوت، لأرى رسماً على الجدار الأبيض كأنه **حفر نافر** يمثل **قطاً** عملاقاً. كان الحفر مدهشاً بدقته ووضوحه، وبدا حبل يلتف حول عنق الحيوان.

عندما وقع نظري لأول مرة على هذا الشبح ـ إذ لم أكن أستطيع أن أعتبره أقلّ من ذلك ـ استبد بي أشدّ العجب وأفظع الذعر. غير أنَّ التفكير المحلل جاء ينقذني من ذلك. لقد كان القط، على ما أذكر، معلّقاً في حديقة متاخمة للبيت؛ فلما ارتفعت صيحات التحذير من النار، غصت الحديقة فوراً بالناس ـ ولا بدَّ أن شخصاً ما قد انتزعه من الشجرة وقذف به عبر النافذة إلى غرفتي. وربما كان القصد من ذلك تنبيهي من النوم. ولا بدّ أنَّ سقوط الجدران الأخرى قد ضغط ضحية وحشيتي على مادة الجصّ الحديث الطلاء؛ اختلط كلس هذا الطلاء بالنشادر المتصاعد من الجثة وتفاعل به بتأثير النيران فأحدث الرسم النافر الذي رأيته.

ومع أنني قدمت هذا التفسير لأريح عقلي ـ إن لم أكن قد فعلت ذلك لأريح ضميري ـ فإن المشهد الغريب الذي وصفته لم يتوقف عن التأثير في مخيلتي. وعلى مدى أشهر لم أستطع أن أتخلص من هاجس القط؛ خلال هذه الفترة عاودني شعور بدا لي أنه الندم، ولم يكن في الحقيقة كذلك. لم يكن أكثر من أسف على فقد حيوان، وتفكير بالحصول على بديل من النوع نفسه والشكل نفسه ليحل محله.

في إحدى الليالي، فيما كنت جالساً، شبه مخبول، في وكر من أوكار العار ـ إذ إنني أدمنت الآن ارتياد هذه الأماكن الموبوءة ـ جذب انتباهي فجأة شيء أسود فوق برميل ضخم من براميل الجن أو شراب الروم، البراميل التي تشكل قطع الأثاث الرئيسية في ذلك المكان. كنت طوال دقائق أحدّق بثبات في رأس البرميل، وما سبَّب دهشتي هو أنني لم أتبينّ للحال طبيعة الشيء الواقف فوقه. دنوت ولمسته بيدي. كان قطاً أسود ـ قطاً كبيراً جداً ـ في حجم بلوتو ويشبهه تماماً باستثناء شيء واحد. إذ لم تكن في أي مكان من جسم بلوتو شعرة بيضاء واحدة؛ وكانت لهذا القط بقعة بيضاء غير واضحة الحدود تتوزع على منطقة الصدر بكاملها.

حالما لمسته نهض وأخذ يخط بصوت مرتفع ويتمسَّح بيدي، وبدا مسروراً باهتمامي له. وإذن هذا هو بالضبط ما كنت أبحث عنه. للحال عرضت على صاحب البيت شراءه، لكنَّ هذا أجاب بأنه لا يملكه ولا يعرف شيئاً عنه ـ ولم يره من قبل.

واصلت مداعبتي له، ولمَّا تهيأت للذهاب، اتَّخذ وضعية تبين أنه يريد مرافقتي. فتركته يصحبني، وكنت بين الحين والآخر أتوقف وأربت على ظهره أو أمسح رأسه. لمَّا وصل إلى البيت بدا أليفاً ولم يظهر عليه أي استغراب. وعلى الفور صار أثيراً لدى زوجتي.

أمَّا أنا فسرعان ما وجدت المقت يتصاعد في أعماقي. وكان هذا عكس ما توقعته. ولم أستطع أن أفهم كيف تعلق القط بي ولا سبب هذا التعلق الواضح الذي أثار اشمئزازي وأزعجني. وأخذ الانزعاج والاشمئزاز يتزايدان شيئاً فشيئاً ويتحولان إلى كراهية مريرة، فأخذت أتجنب هذا الكائن؛ كان إحساس ما بالعار، وذكرى فظاعتي السابقة يمسكان بي عن إلحاق الأذى الجسدي به. وامتنعت، طوال أسابيع، عن ضربه أو معاملته بعنف؛ لكن تدريجياً ـ وبتدرج

متسارع ـ أخذت أنظر إليه بكره لا يوصف وأبتعد بصمت عن حضورة البغيض كما أبتعد عن لهاث مصاب بالطاعون.

ما أكَّد كرهي لهذا الحيوان هو اكتشافي، صبيحة اليوم التالي لوصوله أنه مثل بلوتو، قد فقد إحدى عينيه. غير أنَّ هذا زاد من عطف زوجتي عليه، لأنها كما ذكرت، تملك قدراً عظيماً من المشاعر الإنسانية التي كانت ذات يوم ملامحي المميِّزة، ومنبعاً لأكثر المسرات براءة ونقاء.

كان هيام القط بي يزداد بازدياد بغضي له. فكان يتبع خطواتي بثبات يصعب إيضاحه للقارىء. فحيثما جلست، كان يجثم تحت مقعدي، أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بمداعباته المقززة. فإذا نهضت لأمشي اندفع بين قدميّ وأوشك أن يوقعني، أو غرز مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي ليتسلق إلى صدري. ومع أنني كنت أتحرق في مناسبات كهذه لقتله بضربة واحدة، فقد كنت أمتنع عن ذلك بسبب من ذكري جريمتي السابقة إلى حدّ ما، لكن بصورة أخص ـ ولأعترف بذلك حالاً ـ بسبب الرعب من هذا الحيوان.

لم يكن هذا الرعب خوفاً من شرّ مادي مجسَّد ـ مع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك. يخجلني أن أعترف ـ أجل، حتى في زنزانة المجرمين هذه، يكاد يخجلني الاعتراف ـ بأن الرعب والهلع اللذين أوقعهما في نفسي هذا الحيوان ازدادا حدة بسبب من وهم لا يقبله العقل. كانت زوجتي قد لفتت انتباهي، أكثر من مرة، إلى طبيعة البقعة البيضاء على صدر القط، والتي أشرت إليها سابقاً، تلك العلامة التي تشكل الفارق الوحيد بين هذا الحيوان الغريب وذاك الذي قتلته. ويذكر القارىء وصفي لهذه البقعة بأنها، على الرغم من اتساعها، لم تكن لها حدود واضحة؛ غير أنها، شيئاً فشيئاً ـ وبتدرج يكاد لا يلحظ، تدرج صارع عقلي لكي يدحضه ويعتبره وهما ـ اكتسبت شكلاً محدداً بوضوح تام. صار لها الآن شكل أرتعد لذكر اسمه ـ هذا الشكل هو ما جعلني أشمئز وأرتعب، وأتمنى التخلص من الحيوان **لو تجرأت** ـ كان الآن صورة لشيء بغيض ـ شيء مروع ـ **هو المشنقة!** أوه ـ أي آلة شنيعة جهنمية للفظاعة والجريمة ـ **للنزع والموت!**

والآن لقد انحدرت إلى درك ينحط بي عن صفة الإنسانية! كيف ينزل بي حيوان بهيم ـ قتلت مثيله عن سابق تصميم ـ حيوان بهيم ينزل بي ـ أنا، الإنسان المخلوق على صورة الله العظيم ـ كل هذا الويل الذي لا يُحتمل! وا أسفاه! ما عدت أعرف رحمة الراحة لا في النهار ولا في الليل! ففي النهار لم يكن ذلك البهيم ليفارقني لحظة واحدة، وفي الليل كنت أهبّ من النوم مراراً يتملكني ذعر شديد لأجد لهاث **ذلك الشيء** فوق وجهي، وثقل جسمه الضخم ـ مثل كابوس متجسد لا أقوى على زحزحته ـ يجثم أبدياً **فوق قلبي!**

وهكذا انهارت بقايا الخير الواهية فيّ تحت وطأة هذا العذاب. وصارت أفكار الشرّ خدين روحي ـ أشدّ الأفكار حلكة وشيطانية. ازدادت مزاجيتي السوداوية حتى تحوَّلت إلى كراهية

للأشياء كلها والجنس البشري بأسره. وأخذت نوبات غضبي المفاجئة المتكررة التي لم أعد أتحكّم بها واستسلمت لها كالأعمى، أخذت تطال وأسفاه زوجتي، أعظم الصابرين على الآلام.

رافقتني ذات يوم لقضاء بعض الأعمال المنزلية في قبو المبنى القديم حيث أرغمتنا الفاقة على السكنى. تبعني القط على الدرج وكاد يرميني، فاستشاط غضبي الجنوني؛ رفعت فأساً، متناسياً ما كان من خوفي الصبياني الذي أوقفني حتى الآن، وسددت ضربة إلى الحيوان كانت ستقضي عليه لو أنها نزلت حيث تمنيت. غير أن يد زوجتي أوقفت هذه الضربة. كان هذا التدخل بمثابة منخاس دفع بغضبي إلى الهياج الشيطاني؛ انتزعت يدي من قبضة زوجتي ودفنت الفأس في رأسها. فسقطت ميتة دون أن تصدر عنها نأمة.

لمّا ارتكبت هذه الجريمة البشعة، جلست على الفور أفكر في التخلص من الجثة. عرفت أنني لا أستطيع إخراجها من البيت لا في الليل ولا في النهار دون أن أخاطر بتنبيه الجيران. مرت برأسي خطط عديدة. فكرت بأن أقطع الجثة إرباً ثم أتخلّص منها بالحرق. وفكرت في حفر قبر لها في أرض القبو. كما فكرت في إلقائها في بئر الحوش - وأن أحشرها في صندوق بضاعة وأستدعي حمّالاً لأخذها من البيت. وأخيراً اهتديت إلى أفضل خطة للتخلص منها. قررت أن أبنيها في جدار القبو، كما كان الرهبان في القرون الوسطى يبنون ضحاياهم في الجدران.

كان القبو مناسباً لمثل هذه الغاية. فقد كان بناء جدرانه مخلخلاً وقد تمَّ توريق الجدران حديثاً بملاط خشن حالت الرطوبة دون تصلبه. وفوق ذلك كان في أحد الجدران تجويف بشكل المدخنة تمَّ ردمه بحيث تستوي أجزاء الجدار. وتأكّد لي أن باستطاعتي انتزاع قطع الطوب من هذا التجويف وإدخال الجثة، وبناء التجويف ليعود الجدار كما كان بحيث لا ترتاب العين في أي تغيير.

ولم تخطىء حساباتي. استعنت بمخل لانتزاع قطع الطوب، وأوقفت الجثة بتأنٍ لصق الجدار الداخلي ودعمتها لتحتفظ بوضع الوقوف، فيما كنت أدقق لأعيد كل شيء إلى ما كان عليه. كنت قد أحضرت الملاط والرمل والوبر، فهيأت الخليط بمنتهى الدقة والعناية بحيث لا يميَّز من الملاط السابق، وأعدت كل قطعة طوب إلى مكانها. عندما أكملت العمل أحسست بالرضا عن النتيجة. لم يكن يبدو على الجدار أدنى أثر يدل على أنه قد لمس. نظفت الأرض بمنتهى العناية ونظرت حولي منتصراً وقلت في نفسي: «لم يذهب جهدي سدى».

كانت الخطوة الثانية هي البحث عن الحيوان الذي سبب لي هذه الفاجعة الرهيبة، ذلك أنني قررت القضاء عليه. لو عثرت عليه في تلك اللحظة لما كان هنالك من شك في أمر مصيره؛ لكن يبدو أن الحيوان الذكي قد أدرك عنف غضبي فاختفى متجنباً رؤيتي وأنا في ذلك المزاج. يستحيل عليّ أن أصف أو أن أتخيّل عمق الراحة والسكينة التي أتاحها لروحي غياب ذلك الحيوان. لم يعد للظهور تلك الليلة. وهكذا، ولأول مرة منذ وصوله إلى البيت نمت بعمق

وهدوء. أجل، نمت على الرغم من وزر الجريمة الرابض فوق روحي.

مرَّ اليوم الثاني ثم الثالث ولم يظهر معذّبي. ومن جديد تنفست بحرية. لقد أصيب الوحش بالذعر فنجا بنفسه نهائياً! ولن يكون عليّ أن أتحمَّله بعد الآن! كانت سعادتي بذلك عظيمة! ولم يؤرق مضجعي وزر الجريمة السوداء إلا لماماً. جرت بعض التحقيقات وقدّمت أجوبة جاهزة. بل كانت هناك تحرّيات ـ غير أنَّ شيئاً ما لم يكتشف. وأدركت مستقبل سعادتي في أمان.

في اليوم الرابع بعد وقوع الجريمة جاءت فرقة من الشرطة إلى البيت بشكل لم أتوقعه وبدأت تحريات واستجوابات دقيقة. لكن بما أنني كنت مطمئناً إلى خفاء الجثة لم أشعر بأي حرج. سألني ضباط الشرطة أن أرافقهم إلى القبو، فلم ترتعد فيَّ عضلة واحدة. كان قلبي ينبض بهدوء كقلب بريء نائم. رحت أذرع القبو جيئة وذهاباً عاقداً ذراعي فوق صدري. اقتنع رجال الشرطة بنتائج بحثهم واستعدّوا للذهاب. كانت النشوة في قلبي أقوى من أن أكتمها. كنت أتحرَّق لقول كلمة واحدة، لفرط ما أطربني الانتصار، ولكي أزيد يقينهم ببراءتي.

«أيها السادة»، قلت أخيراً، لمّا كان الفريق يصعد الدرج، «يسرَّني أن أكون قد بدَّدت شكوككم. أتمنى لكم تمام الصحة ومزيداً من اللباقة. بالمناسبة، أيها السادة، هذا ـ هذا بيت مكين البناء» (في رغبتي العارمة لقول شيء سهل، لم أجد ما أتلفظ به) ـ «إنه بيت مبني بشكل ممتاز. هذه الجدران ـ هل أنتم ذاهبون أيها السادة؟ ـ هذه الجدران متماسكة تماماً»؛ وهنا، وبنوع من الزهو المتشنج، طرقتُ طرقاً قوياً على الجدار بعصا كانت بيدي، تماماً في الموضع الذي أخفيت فيه زوجة قلبي.

لكن ليحمني الله من مخالب إبليس الأبالسة! لم تكد اهتزازات ضربتي تغرق في الصمت حتى جاوبني صوت من داخل القبر! صرخة مكتومة متقطعة بدأت كبكاء طفل، لكن سرعان ما أخذت تتعاظم وتتضخم لتغدو صرخة واحدة هائلة مديدة شاذة غريبة وغير آدمية بالمرة ـ غدت عواء ـ عويلاً مجلجلاً يطلقه مزيج من الرعب والظفر، وكأنما تتصاعد من قيعان الجحيم تتعاون فيها حناجر الملعونين في سعير عذاباتهم والشياطين إذ يهلّلون للّعنات.

من الحماقة أن أحدّثكم عن الأفكار التي تلاطمت في رأسي. ترنَّحت منهاراً وتهاويت مستنداً إلى الجدار المقابل. للحظة واحدة ظلَّ فريق الشرطة مسمّراً على الدرج بفعل الرعب والاستغراب. وفي اللحظة التالية كانت بضع عشرة ذراعاً شديدة تهدم الجدار. أنهار قطعة واحدة. كانت الجثة قد تحللت إلى درجة كبيرة وغطاها الدم المتجمّد، وهي تنتصب واقفة أمام أعين المشاهدين وعلى رأسها يقف القط الأسود الكريه بفمه الأحمر المفتوح وعينه الوحيدة النارية، القط الذي دفعتني أفعاله إلى الجريمة ثم أسلمني صوته الكاشف إلى حبل المشنقة. كنت قد بنيت الجدار والقط داخل القبر.

الرقاص والبئر

كنت محطماً، محطماً حتى الموت من ذلك النزع الطويل؛ وحين أفلتوني أخيراً وسمح لي بالجلوس، شعرت أن حواسي جميعها تخذلني. كان حكم الموت ـ الحكم الرهيب بالموت ـ هو العبارة الأخيرة الواضحة التي ضربت أذنيّ. خُيّل إليّ بعد ذلك، أن أصوات قضاة التفتيش تغرق في طنين حلمٍ غير محدود. فيبعث هذا الطنين في أعماقي فكرة الدَّوران ـ لعل ذلك يرجع إلى أنني كنت أقرنه في خيالي بدولاب الطاحون. لكن هذا لم يدم أكثر من فترة وجيزة، إذ سرعان ما توقف الدوي ولم أعد أسمع أي شيء. إنما كنت ما أزال أرى، لكن بأية مبالغة مريعة! كنت ما أزال أرى شفاه القضاة في ردائهم الأسود. كانت تبدو لي بيضاء ـ أكثر بياضاً من الورقة التي أخط عليها هذه الكلمات ـ ومتناهية في الرقة لتعبيرها عن القسوة، عن القرار الفصل، عن الاحتقار الشديد للألم الإنساني. كنت أرى أن القرارات التي ترسم مصيري ما تزال تطلع من هذه الشفاه. رأيتها تتلوى في عبارة موت. رأيتها تصور مقاطع اسمي؛ وارتعدتُ لأن الصوت لم يكن يتبع الحركة. رأيت أيضاً، خلال لحظات من الرعب الجنوني التموجات اللينة للستائر التي تكسو جدران القاعة. إذَّاك وقع نظري على المصابيح السبعة الكبيرة التي كانت موضوعة على الطاولة. اكتست في البداية مظهر المحبة، وبدت لي كملائكة بيض يريدون إنقاذي. لكن سرعان ما دهم نفسي غثيان مميت، وشعرت أن كل عرق في كياني يختلج كما لو لمست شريطاً كهربائياً، بينما كان الأشكال الملائكية تتحول إلى أشباح لا معنى لها، ذات رؤوس من اللهب. أدركت ألا أمل يرجى منهم. حينذاك انسابت في خيالي فكرة الراحة الهنيئة التي تنتظرنا في القبر، انسياب علامة موسيقية غنية. جاءت الفكرة خفية وبهدوء، وبدا لي أنه يلزمني وقت طويل لآخذ عنها صورة كاملة. لكن لحظة بدأ فكري يتحسسها ويحيط بها، غابت أشكال القضاة كأنما غيبها السحر، وغاصت المصابيح في العدم، انطفأ لهيبها تماماً، وانبثق سواد الظلمات، وتراءت الأحاسيس كلها وهي تغور مثل سقوط الروح المجنون الفجائي إلى الجحيم. ودخل الكون في

الليل والصمت والجمود.

كنت في حالة إغماء؛ لن أقول، مع ذلك، إنني فقدت الوعي. ولن أحاول تحديد ما تبقى لي منه، أو حتى وصفه؛ لم يكن كل شيء قد ضاع بعد في السبات العميق ـ كلا! في الهذيان ـ كلا! في الإغماء ـ كلا! في الموت ـ كلا! حتى في القبر، لا يضيع كل شيء. وإلا فلن يكون للإنسان خلود. إننا إذ نستيقظ من السبات العميق، نمزق نسيجَ حلمٍ واهياً كخيط العنكبوت. مع ذلك لا نذكر، بعد ثانية (مهما كان هذا النسيج واهناً) أننا حلمنا. هناك درجتان في العودة من الغيبوبة إلى الحياة: الأولى هي الشعور بالوجود المعنوي والروحيّ؛ الثانية هي الشعور بالوجود الجسماني. إذا استطعنا بوصولنا إلى الدرجة الثانية أن نذكر انطباعاتنا عن الدرجة الأولى، فمن المحتمل أن نجد فيها جميع الذكريات المؤثرة عن هوة الحياة الأبدية. وما هي هذه الهوة؟ كيف سنقدر على الأقل أن نميّز ظلالها من خلال القبر؟ لكن، إذا كانت انطباعات ما سمَّيته الدرجة الأولى لا تلبي دعوة الإرادة، أفلا تظهر، مع ذلك، بعد فاصل طويل دون أن ندعوها، بينما نكون في دهشة التساؤل من أين يمكن أن تظهر؟ من لم يعرف الإغماء أبداً ليس الشخص الذي يكتشف قصوراً غريبة ووجوهاً أليفة إلى درجة غريبة في الجمر اللاهب؛ أجل، ليس هو الشخص الذي يتأمل الرؤى الكئيبة وهي تعوم في الهواء والتي لا يقدر أن يلمحها الشخص الخامل؛ ليس هو الذي يتأمل في عطر زهرة مجهولة ـ وليس من يتيه ذهنه في سرّ نغم لم يكن قد لفت انتباهه حتى تلك اللحظة.

وسط جهودي المتكررة الشاقة، وصراعي الصارم لالتقاط بعض معالم هذه الحالة من العدم الظاهر الذي انزلقت فيه روحي، مرَّت لحظات قصيرة، لحظات قصيرة جداً، استحضرت فيها ذكرياتٍ، أكد لي عقلي الواعي فيما بعد أنها ترتبط بهذه الحالة التي يبدو فيها الوعي منعدماً. كانت هذه الظلال من الذكريات تقدم لي أشكالاً كبيرة تحملني وتنقلني بصمت، إلى أسفل ـ وإلى أسفل ـ دائماً إلى الأسفل، حتى اللحظة التي شدني فيها دوار مرعب لفكرة السقوط اللانهائي. كانت تذكرني أيضاً بما لا أدري من غامض الرعب الذي كنت أعانيه في قلبي، بسبب السكون الخارق في هذا القلب. ثم يأتي الإحساس بسكون مفاجىء يغمر الكائنات جميعاً. كأن هذه الظلال التي تحملني (موكب إشباح!) تجاوزت في سقوطها حدود ما لا يحد، وتوقفت مهزومة بضجرها اللانهائي مما تفعله. أستعيد بعد ذلك، الاحساس بالتفاهة والرطوبة، ثم يبدو كل ذلك جنوناً. جنون ذاكرة تتمرغ في القبيح الفاحش.

وفجأة عاد إلى روحي الصوت والحركة ـ حركة القلب الصاخبة ودويّ نبضاتها في أذني. ثم توقف وغاب فيه كل شيء. ثم الصوت واللمس والحركة من جديد ـ كإحساس مترجرج يخترق كياني. ثم مجرد الشعور بالوجود دون فكر ـ وهو حالة دامت طويلاً. ثم فجأة، الفكر، تلاه رعب مرتعش وجهد محموم لفهم حالتي على حقيقتها، فرغبة حادة في السقوط ثانية في انعدام الحساسية. وأخيراً نهضة الروح المفاجئة ومحاولة للحركة ناجحة. وحينذاك التذكر

الكامل للدعوى، للستائر السوداء، للحكم، لضعفي، لإغمائي. لكن النسيان الكامل لكل ما تلا ذلك. ولم أتوصل إلى تذكره بصورة غامضة إلا مؤخراً وبعد جهد شاق.

لم أكن قد فتحت عيني حتى الآن. شعرت أنني أنام على ظهري طليقاً. مددت يدي فسقطت ثقيلة فوق شيء رطب وقاس. تركتها ترتاح هكذا دقائق طويلة، باذلاً جهدي في التكهن أين كنت وما صرت إليه. كنت نافد الصبر لأستعمل عيني، لكنني لم أجرؤ على ذلك. كنت أتهيب النظرة الأولى للأشياء المحيطة، ليس لأنني أخشى النظر إلى الأشياء المرعبة بل لأنني كنت أخاف أن لا يكون هناك ما يُرى. ومع الوقت فتحت عيني بسرعة وبحسرة قلبية مجنونة. إذن، كان هناك ما يؤكد خوفي. كان ظلام الليل الأبدي يغمرني. قمت بجهد لأتنفس. خيل إليّ أن كثافة الظلمات تُثقل عليّ وتخنقني. كان الجو ثقيلاً لا يحتمل. بقيت نائماً بهدوء وحاولت أن أختبر عقلي. تذكرت أساليب التحقيق، واجتهدت أن أستنتج وضعي الحقيقي على ضوء ذلك. كان الحكم قد لُفظ وخيل إليّ أن فترة طويلة قد انقضت منذ ذلك الحين. مع ذلك لم أتصور للحظة واحدة أنني قد متّ فعلاً. فمثل هذه الفكرة مناقضة تماماً للوجود الواقعي، على الرغم من جميع الأوهام الأدبية. لكن أين كنت وفي أية حالة؟ أعرف أن المحكومين بالإعدام كانوا يموتون حرقاً على الغالب. وقد أقيم احتفال من هذا النوع مساء اليوم الذي شهد محاكمتي. هل أعدت إلى سجني بانتظار التضحية المقبلة التي لم يكن مقدراً أن تتم قبل بضعة شهور؟ ثم بدا لي ذلك مستبعداً. فقد كانت الحاجة ماسة إلى ضحايا معجلة؛ أضف إلى ذلك أن سجني الأول، ككل زنزانات المحكومين في «توليدو» كان مرصوفاً بالحجر، ولم يكن خالياً من الضوء كلياً.

فجأة خطرت لي فكرة رهيبة دفعت تياراً من الدم نحو قلبي. وعدت إلى حالة فقدان الحس لبضع ثوان. استرجعت حسي لأقفز دفعة واحدة على قدميّ، وكل عرق فيّ يرتجف ويتشنّج. مددت ذراعي بجنون، فوقي وحولي في كل الاتجاهات. لم أكن أحس بشيء؛ لكنني كنت أخاف أن أخطو خطوة واحدة. كنت أخشى أن أصطدم بجدران قبري. كان العرق يتصبب من مسام جلدي جميعها ويتوقف على جبهتي قطرات كبيرة باردة. صارت لوعة الشك مع الوقت شيئاً لا يحتمل. تقدمت بحذر ماداً ذراعيّ وعيناي جاحظتان خارج محجريها، آملاً أن أفاجيء بصيصاً من النور. خطوت بضع خطوات، لكن كل شيء كان أسود وفارغاً. تنهدت بحرية أكثر. لقد تبينت أخيراً أن مصيري لم يكن أكثر المصائر هولاً.

وحين كنت أتقدم بحذر ـ أخذت تتزاحم في ذاكرتي آلاف الأصوات الغامضة المنبعثة من أهوال «توليدو». كانت تُروى عن هذه السجون غرائب اعتبرتها دائماً من الأساطير ـ لكنها مع ذلك من الغرابة والهول بحيث أن الإنسان لا يقدر أن يذكرها إلا همساً. هل قُدر لي أن أموت جوعاً في هذا العالم السفلي من الظلمات ـ أم أنَّ مصيراً أشدّ هولاً يترصدني؟ أن تكون النتيجة الموت، والموت بمرارة غير عادية، أمر توقعته جيداً، لأنني كنت أعرف أخلاق قضاتي؛ كانت الطريقة والساعة هما كل ما يشغل تفكيري.

صادفت يداي الممدودتان حاجزاً صلباً. كان ذلك جداراً، بدا أنه من الحجر، ناعماً جداً، رطباً وبارداً. تبعته عن كثب بحذر كلي ألهمتني إيَّاه بعض القصص القديمة. إلا أن هذه العملية لم تقدم لي أية وسيلة للتحقق من حجم زنزانتي، لأنني كنت أستطيع أن أقوم بدورة كاملة فيها والعودة إلى النقطة التي انطلقت منه دون أن أعي ذلك، فقد كانت الجدران متشابهة تماماً. لهذا كنت أبحث عن السكين التي كانت في جيبي عندما ساقوني إلى المحكمة؛ لكنها ضاعت لأن ثيابي بدلت برداء من الصوف الخشن. فقد خطر لي أن أغرز شفرتها في شقٍّ ما في الجدار، لكي أتأكد تماماً من نقطة انطلاقي؛ ومع أنّ المشكلة كانت عادية، فقد بدت لي لأول وهلة بسبب تشوش فكري، أنها مشكلة لا تذلل. مزقت قطعة من طرف ثوبي ومددتها على الأرض في الزاوية اليمنى قرب الجدار. لم يكن ممكناً ألا أصادف هذه الخرقة وأنا أتلمس طريقي مكملاً الدورة في زنزانتي. هذا ما كنت أظنه؛ لكنني لم أصادفها لاتساع زنزانتي أو لضعفي. كان المكان رطباً وتزلّ فيه القدم. سرت متمايلاً بعض الوقت ثم زلّت قدمي وسقطت. أقنعني تعبي المفرط أن أبقى متمدداً، وسرعان ما فاجأني النوم.

حينما استيقظت ومددت يدي، وجدت إلى جانبي خبزاً وإبريق ماء. كان الإرهاق الذي أعانيه يمنعني من التأمل في حالتي، لكنني شربت وأكلت بشراهة. بعد قليل استأنفت رحيلي حول سجني ووصلت بعد عناء كبير إلى خرقة الثوب. عندما سقطت كنت قد خطوت مئة خطوة، وحين استأنفت سيري خطوت ثمانياً وأربعين خطوة - ألى أن بلغت الخرقة. إذن خطوت مئة خطوة، وبما أن كل خطوتين تساويان ياردة واحدة، فهذا يعني أن محيط الزنزانة يبلغ خمسين ياردة. إلا أنني صادفت كثيراً من الزوايا في الجدار، وهكذا لم يكن هناك سبيل للتكهن بشكل القبو؛ لم أستطع أن أمنع نفسي من الافتراض أن هذا كان قبواً.

لم أر في هذه التحريات فائدة تذكر - ولم يكن هناك أمل، دون شك؛ لكنّ فضولاً غامضاً دفعني لإكمالها. قررت وأنا أترك الجدار أن أجتاز القبو من طرف إلى آخر. بدأت أتقدم بحذر شديد لأن الأرض وإن بدت صلبة كانت لزجة غدَّارة وما لبثت أن تشجَّعت مع الوقت وبدأت أسير باطمئنان، مجتهداً أن أتجه في خط مستقيم بقدر الإمكان. هكذا خطوت حوالي عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة، عندما التفت أطراف ثوبي الممزّقة حول ساقيّ. سرت فوقها وسقطت بعنف على وجهي. لم أنتبه فور سقوطي الذي بلبلني إلى حالة يمكن أن تكون مفاجئة. لكنها بعد بضع ثوان، جذبت انتباهي وأنا لا أزال متمدداً: كان ذقني فوق أرض الزنزانة، لكن شفتي والقسم العلوي من رأسي وإن بدت أعلى من ذقني كانت في الفراغ. خيل إليَّ في الوقت ذاته أن جبهتي مبللة ببخار دبق وأن رائحة خاصة أشبه برائحة الفطر المهترىء تصعد نحو أنفي. مددت ذراعي ثم اعترتني رعدة إذا اكتشفت أنني سقطت على حافة بئر مستديرة. لم تكن لدي في هذه اللحظة أية وسيلة لتقدير مساحتها. استطعت وأنا أتلمس البناء فوق حلقة البئر تماماً، أن أنزع منه شيئاً صغيراً وأرميه في الهاوية. أصغيت إليه، خلال بضع ثوان، وهو يسقط؛ كان يصدم جدران

الهاوية؛ أخيراً غاص في الماء بشكل فاجع، تبعته ضجة الأصداء. حدثت في اللحظة ذاتها، ضجة فوق رأسي أشبه بصوت باب أغلق بسرعة ولمّا يكد يفتح، بينما كان بصيص نور يجتاز الظلام بغتة وينطفىء في اللحظة ذاتها تقريباً.

رأيت بوضوح المصير الذي كان قد هيء لي، واستبشرت بهذا الحادث الذي جاء في محله وأنقذني. كانت خطوة ثانية ستغيّبني عن العالم إلى الأبد. وكان لهذا الموت الذي تجنبته في وقته، عين الصفات التي اعتبرتها عبثية وأسطورية في القصص التي تُحكى عن محاكم التفتيش. كان لضحاياه أن يختاروا بين الموت بأقسى أنواع العذاب الجسدي، أو الموت بأفظع أنواع التنكيل النفسي. وكنت مُدَّخراً لأهوال النوع الأخير. كان العذاب الطويل قد أوهن أعصابي، إلى درجة أنني كنت أرتجف من وقع صوتي أنا. وصرت، من جميع الوجوه، موضوعاً رائعاً لنوع العذاب الذي كان ينتظرني.

رجعت على أعقابي وأعضائي كلها ترتعد، متلمّساً طريقي نحو الجدار ـ مفضلاً الموت على مجابهة رعب الآبار، الذي ضخّمه الآن خيالي في ظلمات السجن. لو كنت في وضع روحيّ مغاير، لكانت لديَّ شجاعة التخلص من آلامي، دفعة واحدة، بالغرق في إحدى هذه المهاوي. لكنني في هذه اللحظة كنت أجبن الجبناء. ثم إنه كان يستحيل عليَّ أن أنسى ما قرأته في موضوع هذه الآبار وأن انتهاء الحياة المفاجىء لم يكن إلاّ جزءاً من مخططاتها الجهنمية.

تركني الاضطراب متيقظاً خلال ساعات طويلة، لكنني أخيراً عدت للنوم. حينما استيقظت وجدت إلى جانبي كما في المرة الأولى خبزاً وإبريق ماء. كان يضنيني عطش محرق، فأفرغت الإبريق دفعة واحدة. كان ينبغي أن يُجرع هذا الماء ـ ذلك أنني لم أكد أشربه حتى غفوت بالرغم مني وغرقت في نوم عميق ـ نوم أشبه بهجعة الموت. كم من الوقت بقيت نائماً؛ لست أدري. غير إنني حينما فتحت عيني، كانت الأشياء حولي ظاهرة. وبفضل شعاع كبريتي وحيد لم أقدر أن أكتشف مصدره بادىء الأمر، تمكنت من رؤية حجم الزنزانة وهيئتها.

وجدت أنني أخطأت كثيراً في تقدير مساحتها. لم يكن ممكناً أن يصل محيط الجدران إلى أكثر من خمس وعشرين ياردة. كان هذا الاكتشاف بالنسبة لي خلال بضع دقائق، إضطراباً لا حدّ له؛ وهو إضطرابٌ سخيفٌ في الواقع ـ إذ أي شيء يمكن أن يكون، في ظروف رهيبة كهذه، أقل خطورة من أبعاد زنزانتي؟ غير أن روحي كانت تهتم اهتماماً غريباً بالترهات، وانصرفت بجد لمعرفة الخطأ الذي ارتكبته في قياساتي. أخيراً ظهرت لي الحقيقة كالبرق. في محاولة إستطلاعي الأولى، عددت اثنتين وخمسين خطوة حتى لحظة سقوطي؛ كان مفروضاً آنذاك ان أكون على بعد خطوة أو خطوتين من خلاقة الثوب؛ كنت في الواقع قد أكملت الدورة تقريباً. نمت حينذاك ـ لا بد أن أكون عندما استيقظت قد عدت على أعقابي ـ راسماً هكذا محيطاً هو ضعف المحيط الحقيقي تقريباً. وحال تشوشُ دماغي دون أن ألاحظ أنني بدأت دورتي والجدار إلى يساري وأنهيتها والجدار إلى يمني.

أخطأت أيضاً بالنسبة لشكل الدائرة. صادفت وأنا أتلمس طريقي كثيراً من الزوايا. واستنتجت منها أن هناك الكثير من عدم الانتظام؛ فما أقوى تأثير الظلام الكلي على شخص يخرج من السبات والنوم! لم تكن هذه الزوايا أكثر من انخفاضات خفيفة وتقلصات غير متساوية الأبعاد. كان الشكل العام للسجن مربعاً. أما مادة البناء فتبدو لي الآن من الحديد أو من معدن آخر، بصفائح ضخمة، وكانت أماكن وصلها ولحمها هي التي تسبب الإنخفاضات. كان سطح هذا البناء المعدني مغطى برسوم ركيكة لجميع الأشكال الفظيعة والكريهة التي خلقتها خرافات الرهبان الجنائزية. كانت تلطخ الجدران كلها أشكال شياطين تهدد وتتوعد، وهياكل عظمية، وصورٌ أخرى ذات رعب حقيقي. لاحظت أن هيأة هذه المسوخ كانت واضحة بما فيه الكفاية، لكن ألوانها كانت كابية وفاسدة، كأنما بتأثير الجو الرطب. آنذاك لاحظت أرض الزنزانة. كانت من الحجر، تتثاءب في وسطها البئر الدائرية التي نجوت من شدقها؛ لكن لم تكن في الزنزانة إلا بئر واحدة.

رأيت هذا كله بغموض وجهد ـ لأن حالتي الجسدية تغيّرت أثناء نومي خلافاً للعادة. كنت في تلك اللحظة مستلقياً على ظهري، بكامل طولي، فوق إطار خشبيٍّ سيء جداً. كنت مشدوداً إليه برباط طويل يشبه الحزام الجلديّ يلتف عدة مرات حول أعضائي وجسمي، بإستثناء رأسي وذراعي اليسرى؛ لكن كان عليّ أن أقوم بأصعب الجهود لكي أتناول الغذاء الموضوع في إناء من الفخار إلى جانبي على الأرض. تبينت برعب أن إبريق الماء لم يكن موجوداً. أقول: برعب، لأنني كنت فريسة ظمأ لا يرحم، وخيل إليّ أن من مخطط جلاّديّ أن يجعلوا هذا الظمأ يتفاقم ـ لأن الطعام الدائم في الصحن كان لحماً متبّلاً بشكل يعطيه طعماً مراً.

رفعت نظري وحدقت في سقف الزنزانة. كان علوه ثلاثين أو أربعين خطوة، وكان يشبه بطريقة بنائه الجدران الجانبية. استرعى إنتباهي على إحدى الصفائح شكل من أكثر الأشكال غرابة. إنه شكل الزمن كما يرسم عادة، لكنه كان يمسك، بدل المنجل، شيئاً حسبته للوهلة الأولى رقّاصاً ضخماً يشبه رقّاصات الساعات الكبيرة القديمة. كان مع ذلك في هيئة هذه الآلة شيء ما جعلني أرنو إليها بانتباه أكثر. وبينما كنت أحدّق مباشرة باتجاهه (لأنه كان موضوعاً فوقي بالضبط) اعتقدت أنه يتحرك. بعد لحظة تأكدت فكرتي. كان تأرجحه قصيراً، وبطيئاً بالطبع. ترصّدته خلال بضع دقائق بشيء من الحذر والدهشة. وإذ تعبت من تتبّع حركته المملة، أدرت عيني نحو الأشياء الثانية في الزنزانة.

لفتت انتباهي ضجة خفيفة؛ وحين نظرت إلى الأرض، لمحت بعض الفئران الكبيرة تجتازها. كانت خارجة من البئر التي استطعت أن أراها إلى يميني، تتقدّم أسرابها بسرعة بالغة، بعيونها الشرهة وقد فتنتها رائحة اللحم. كان لا بدّ من الانتباه وبذل الجهود الكبيرة لتحاشيها.

حين رفعت عينيّ من جديد إلى فوق، كان قد مرّ نصف ساعة، وربما ساعة كاملة، لأنني

كنت أخطىء كثيراً في تقدير الوقت. رأيت ما بلبلني وأذهلني. اتسعت مسافة الرقاص مقدار ياردةٍ تقريباً. وكنتيجة طبيعية لذلك صارت سرعته أكبر من قبل. لكن ما أقلقني بصورة خاصة هو إنخفاضه الواضح. لاحظت آنذاك ـ غير مُجدٍ أن أذكر بأي رعب ـ لاحظت أن طرفه الأسفل كان مصنوعاً على شكل هلالٍ من الفولاذ البرّاق بطول يقارب القدم؛ قرّناه متجهان إلى الأعلى، وحدّه الأسفل مرهف كحدّ الموسى. وكالموسى كان يبدو ثقيلاً ومُصْمَتاً، ينفرج بدءاً من الحد عريضاً ومتيناً. كان معلقاً بإحكام على قضيب من النحاس، يفحّ وهو يتأرجح في الفضاء.

ما كنت أستطيع أن أرتاب لحظة أخرى بالمصير الذي اعدته لي البراعة الرهبانية الفاحشة. كان المحققون قد تكهنوا بإكتشافي للبئر، البئر التي اُدُّخرت أهوالها لهرطوقيّ مغامرٍ مثلي ـ البئر صورة الجحيم، والتي تُعتبر المرحلة النهائية في عقوباتهم كلها! كنت قد تجنبت الغرق بمصادفة عجيبة. وكنت أعرف ان فنّ تحويل العذاب إلى شرَك ومفاجأة يشكل فرعاً أساسياً من كل هدا النظام الغريب في الاعدام السريّ. إذن بعد أن نجوت من السقوط في الهاوية، كنت مكرّساً ـ ولا مفرّ هذه المرة ـ لتنكيل مختلفٍ واكثر نعومة ـ أكثر نعومة! ابتسمت تقريباً في عذابي وأنا افكر بالجهد الفريد الذي كنت أبذله للتلفظ بكلمة كهذه.

ماذا يفيد أن أروي ساعات الرعب الطويلة، الطويلة، الأكثر من مميتة والتي كنت طوالها أعدُّ ذبذبات الفولاذ؟ كان يهبط متدرّجاً رويداً رويداً بمسافة يمكن تقديرها فقط في فواصل بدت لي قروناً، كان يهبط دائماً ـ دائماً إلى أسفل ـ دائماً إلى أسفل! مرت أيام، وربما مرت عدة أيام قبل أن جاء ينوس قريباً مني كي يعرّضني لزفيره الحاد. كانت رائحة الفولاذ المسنون تتسرب إلى أنفي. صليت للسماء، أتعبتها بصلاتي ـ لكي تعجّل في هبوط الفلاذ. صرت مجنوناً، هائجاً، حاولت أن أنهض، وأذهب لملاقاة هذه الصفحة الرهيبة المتحركة. ثم غرقت فجأة في هدوء كبير ـ وبقيت ممدداً باسماً لهذا الموت البرّاق، كما يبتسم الطفل للعبة ثمينة.

مرّت فترة من فقدان الوعي فقداناً كاملاً؛ فترة قصيرة جداً، لأنني في عودتي إلى الحياة، لم أجد الرّقاص هابطاً مسافة ملحوظة. لكن قد تكون هذه الفترة طويلة ـ لأنني كنت أعرف أن هناك شياطين لاحظت إغمائي، وكانت تستطيع إيقاف الذبذبة حينما تشاء. عندما صحوت، كنت أعاني ضعفاً وإضطراباً لا يوصفان كما لو أنهما ناتجان عن جوع شديد مزمن. حتى وسط الآلام الرهيبة كانت الطبيعة الانسانية تلتمس غذاءها. مددت ذراعي اليسرى بجهد مرهق وبقدر ما تسمح لي الحبال التي تشدني، واستوليت على البقية الضئيلة التي تفضلّت الفئران وتركتها لي. مرّت في ذهني خاطرة غائمة من الفرح ـ من الأمل ـ وأنا أضع لقمة في فمي. لكن أية صلة بيني وبين الأمل؟ كانت هذه كما قلت فكرة غائمة ـ يمر في ذهن الإنسان كثير مثلها ولا تكتمل ابداً. شعرت أنها كانت خاطرة من الفرح ـ من الأمل؛ لكنها كانت طِرْحاً. حاولت عبثاً أن أكملها ـ أن استرجعها. إن عذابي الطويل قد أبطل تقريباً مواهب فكري العادية. صرت سخيفاً ـ غبيّاً.

كان الرقّاص ينوس عمودياً فوقي. ولاحظت أن الهلال يتأهب كي يجتاز منطقة القلب. كان سيمزق طرف ردائي - ثم يعود ويكرر عمليته، أيضاً - وأيضاً. وعلى الرغم من البعد الرهيب للمنحنى الذي يسير فيه (حوالي ثلاثين قدماً أو أكثر) وحركة سقوطه وهي تفخ والتي تكفي وحدها لشق هذه الأسوار الحديدية، فإن كل ما كان بوسعه أن يفعله لبضع دقائق هو ان يمزّق ردائي. وعند هذه الفكرة توقفت. أصررت عليها بانتباه عنيد، كما لو أنني كنت أستطيع، بهذا الإصرار أن أوقف هناك سقوط الفولاذ. وغرقت في التفكير بالصوت الذي سيحدثه الهلال وهو يمرّ من خلال ثيابي - في الإحساس الخاصّ النفّاذ الذي يولده في الأعصاب الاحتكاك بالنسيج. فكرت بكل هذه السفاسف إلى أن تضرّست اسناني.

كان دائماً ينزلق إلى أسفل - إلى أسفل - إلى أسفل أيضاً. كنت أشعر بلذة مسعورة في مقارنة سرعته من أعلى إلى أسفل بسرعته الجانبية. يميناً - يساراً - ثم يهرب بعيداً، بعيداً، ثم يعود - بعواء روح هالكة! - إلى قلبي كمشية النمر الخاطفة! كنت أضحك وأصرخ بالتناوب حسب تسلّط هذه الفكرة أو تلك.

إلى أسفل - إلى أسفل دون تغيّر ودون رحمة! كان ينوس على إرتفاع ثلاث بوصات من صدري! اجتهدت بعنف - بغضب - أن أخلّص ذراعي اليسرى. كانت تستطيع التحرك من المرفق إلى اليد، فقط. كنت أستطيع بجهد كبير أن أحرك يدي من الصحن الموضوع إلى جانبي حتى فمي ولا شيء أكثر. لو قدرت أن أفك حبالي فوق المرفق كنت أستطيع أن أمسك الرقاص وأحاول إيقافه. وكنت أبدو كمن يحاول أن يوقف إنهياراً.

دائماً إلى أسفل! - بإستمرار - وحتمية إلى أسفل! كنت أتنفس بعناء، وإضطرب لكل ذبذبة. كنت اتضاءل بتشنج لدى كل اهتزاز. كانت عيناي تلاحقان تواتره الصاعد والهابط بحمّى اليأس المجنون؛ كانتا تنطبقان بحركة تشنّجية لحظة الهبوط. مع أن الموت كان راحةً - آه! يا لها من راحة لا توصف! ومع هذا كانت أعصابي جميعها ترتجف عندما يخطر ببالي أنه يكفي أن تهبط الآلة قليلاً كي ترمي على صدري هذه الفأس المسنونة البراقة. كان الأمل هو الذي يجعل أعصابي ترتجف هكذا، ويجعل كياني كلّه ينكمش. كان الأمل - الأمل الذي ينتصر حتى على آلة التنكيل - هو الذي يهمس في أذن المحكومين بالموت، حتى في زنزانات محاكم التفتيش.

لاحظت أن حوالي عشر ذبذبات أو اثنتي عشرة ذبذبة سوف تضع الفولاذ في إحتكاك مباشر مع ثيابي - ومع هذه الملاحظة غمر فكري الهدوء الحاد الكثيف - هدوء اليأس الكلي. فكرت للمرة الأولى منذ ساعات كثيرة، وربما منذ أيام. خطر لي أنّ الرباط أو الحزام الجلدي الذي يشدني كان قطعة واحدة. كنت مربوطاً بحبلٍ متواصل. كان مفروضاً أن أول ضربة من الهلال في أي مكان من الحزام الجلدي ستفكه بشكلٍ يتيح ليدي اليسرى أن تفكه كله عن جسمي. لكن كم ستكون رهيبة في هذه الحالة مجاورة الفولاذ! والنتجية المميتة لأبسط ارتجاج! هل كان محتملاً من جهة ثانية أن ظرفاء الطاغية لم يتنبأوا بهذه الإمكانية ويحتاطوا لها؟ هل يعقل أن يلتف

الحبل حول صدري وأنا أرتجف من خيبة أملي الواهي الأخير، كما كان يبدو. كان الحبل يشد أعضائي وجسمي في الاتجاهات كلها ـ ما عدا طريق الهلال القتالة.

لم أكد أترك رأسي يعود إلى وضعه الأول حتى شعرت أن شيئاً ما يلمع في فكري لا أعرف ما هو إن لم يكن النصف الغائم لفكرة الخلاص تلك التي تحدثت عنها من قبل والتي مرّ نصفها فقط في دماغي بغموض حينما حملت لقمة الطعام لشفتي المحمومتين ـ الفكرة حاضرة الآن كلها ـ ضعيفة لا تكاد تقبل الحياة، لا تكاد تقبل التحديد ـ لكنها مكتملة. شرعت في محاولة تنفيذها على الفور، بكل حيوية اليأس العصبية.

كانت الأماكن المجاورة للاطار الذي أرقد فوقه تعجّ، منذ ساعات عديدة، بالفئران. كانت صاخبة شجاعة نهمة ـ ترشقني بنظراتها كأنها لم تكن تنتظر إلا جمودي لكي تجعلني فريسة لها. وتساءلت: ما نوع الطعام الذي تعودت عليه في هذه البئر؟

كانت قد التهمت ما في الصحن من الطعام باستثناء بقية صغيرة على الرغم من جهودي لمنعها. كانت يدي قد ألفت عادة التنقل جيئة وذهاباً نحو الصحن، ومع الوقت أفقدتها الحركة الآلية المحدودة فاعليتها كلها.

وغالباً ما كانت هذه الحيوانات لشراهتها، تغرز أسنانها في أصابعي. دهنت الحزام جيداً، حيث استطعت، ببقايا اللحم، ثم رفعت يدي عن الأرض. حبست انفاسي وبقيت جامداً.

في بادىء الأمر ارتعبت هذه الحيوانات الشرهة من التغيّر ـ من توقف الحركة. أحست بالخطر وهربت؛ الكثير منها عاد إلى البئر؛ لكن هذا لم يدم إلا قليلاً. لم أعتمد على شراهتها عبثاً فمذ لاحظت انني انقطعت عن الحركة زحف فأر واحد أو اثنان من أكثرها شجاعة إلى الإطار الخشبي وبدآا بشمشمة الحزام. كان هذا علامة غزو عام. واندفعت من البئر أسراب جديدة. تعلقت بالخشب ـ تسلقته وقفزت على جسمي بالمئات. لم تكن حركة الرقاص المنتظمة تزعجها على الإطلاق. كانت تتجنب مروره وتعمل بنشاط في الرباط المدهون. كانت تزدحم ـ تتكاثر وتتكوّم عليّ دون انقطاع؛ فيما تلتف حول عنقي، شفاهها الباردة تبحث عن شفتيّ؛ كنت نصف مختنق تحت ثقلها المتزايد؛ فيما قَرَفُ ليس له اسمٌ في العالم يبعث الغثيان في صدري ويجمّد قلبي كالقيء البطيء. دقيقة ثانية وتنتهي العملية الرهيبة. بدأت أشعر فعلاً بانفكاك الحزام؛ كنت أعرف انه لا بد أن يكون انقطع في أكثر من مكان. بقيت جامداً بإرادة فوق طاقة البشر. لم أخطىء في تقديراتي ـ وما تألمت عبثاً. شعرت أخيراً أنني حر. كان الحزام يتدلى قطعاً حول جسمي، لكن حركة الرقّاص كانت قد هجمت على صدري. شقت طرف ثوبي. مزّقت القميص تحته. حصلت أيضاً ذبذبتان ـ فغمر اعصابي كلها إحساسٌ بألم حادّ لكن ساعة الخلاص كانت قد دقت. بحركة من يدي هربت الفئران التي حررتني. وبحركة هادئة وجسورة، حذرة ومائلة، ببطءٍ وممدداً ـ انزلقتُ خارجُ عقد الحزام وأصبحت في مأمن من]الشفرة. الآن، على الأقل، كنت حراً.

حرّاً! وفي فكّ محاكم التفتيش! لم أكد أنهض من فراشي المرعب، لم أكد أخطو بضع خطوات على بلاط السجن حتى توقفت الآلة الجهنمية، ورأيتها تجذب نحو السقف بقوة غير منظورة، فكان هذا درساً وضع اليأس في قلبي. كانت حركاتي كلها مرصودة بلا ريب. حرّاً! لم أتخلص من الموت بإحدى طرق التنكيل إلا لكي ألقى ما هو أسوأ من الموت بطريقة أخرى.

عند هذه الفكرة طوّفت بصري على الجدران الحديدية التي كانت تحيط بي. إن شيئاً غريباً ـ تغيراً ما، لم أميزه بادىء الأمر ـ حدث في الزنزانة ـ كان هذا واضحاً. وضِعْت خلال بضع دقائق من الفراغ الروحي المليء بالحلم والرعشة في تخمينات واهية غائمة. خلال هذه الفترة عرفت للمرة الأولى مصدر الضوء الكبريتي الذي كان يضيء الزنزانة: إنه يتسرب من شقٍّ يتسع مقدار نصف بوصة، يمتد حول الزنزانة عند قاعدة الجدران التي كانت في الواقع منفصلة عن الأرض تماماً. حاولت عبثاً، أن أنظر من هذا الشق.

وبينما كنت أنهض فاتر الهمة، فطنت فجأة لسرّ عتمة الزنزانة. لاحظت أن ألوان الرسوم كانت كامدة معتمة، رغم وضوح الخطوط. بدأت هذه الألوان تكتسي كل لحظة بريقاً مؤثراً شديد الكثافة، يضفي على هذه الرسوم الغريبة الشيطانية مظهراً ترتعش منه الأعصاب الأكثر قوة من أعصابي. كانت تتسلط عليّ من آلاف الأمكنة، عيون شيطانية ذات نهم وحشي مشؤوم. لم انتبه لها من قبل، وكانت تشع ببريق مأتمي لنارٍ أردتُ بعناد أن اعتبرها ناراً وهمية.

وهمية ـ كان يكفي أن أتنفس لكي يمتلىء أنفي ببخار الحديد المحمّى. لقد انتشرت الرائحة الخانقة في الزنزانة! كان الوهج المندلع من العيون المسلطة على عذابي يشتد ويتركز كل لحظة. وكانت هذه الصور الدموية المريعة تكتسي احمراراً جهنمياً! كنت مبهوراً؛ كنت أتنفس بصعوبة! لم يكن هناك ما يدعو للشك في نية جلّاديّ. آه! الطغاة، آه! الأبالسة! تراجعت بعيداً عن المعدن الملتهب إلى وسط الزنزانة. مقابل هذا التعذيب بالنار، فاجأت روحي طراوة البئر كرائحة العطر. اسرعت إلى جوانبها المميتة. ألقيت نظري نحو الأعماق. كان بريق القبة الملتهبة يضيء اخفى زواياها. مع ذلك، خلال لحظة من الشرود، أبت روحي أن تدرك معنى ما رأيت. أخيراً اقتحمت الحقيقة روحي ظافرة واثقة، وانطبعت بالنار في عقلي المرتعش. أواه، ليت لي صوتاً للكلام! آه! الرعب! آه! كل الفظائع ما عدا هذه! قذفت نفسي بعيداً عن حلقة البئر وأنا أصرخ، وبكيت بمرارة مخبئاً وجهي بيديّ.

كانت الحرارة تزداد بسرعة. رفعت عيني ثانية أرتجف كالمحموم. لقد حدث تغير آخر في الزنزانة ـ تغيّر في الشكل. كان من العبث أن ألاحظ كما في السابق أو أفهم ما حدث. لكن الشك لم يدم طويلاً. فانتقام التفتيش كان يسرع ولم يعد هناك مجال لِلَعب مع تلك الأهوال. كانت الزنزانة مربعة. لكني بدأت ألاحظ أن اثنتين من زواياها الحديدية صارتا حادتين، والاثنتان الباقيتان منفرجتان طبعاً. فالتغير الرهيب يزداد سريعاً، بهدير ونحيب أصمَّيْن. بعد لحظة اصبح شكل الزنزانة معيّناً. لكن التغير لم يتوقف عند هذا الحد. لم اكن أرغب، لم أكن

أمل ان يتغير. والجدران الحمراء ستنطبق فوق صدري كرداء من السلام الابديّ. الموت ـ قلت في نفسي ـ لا يهم أيّ موت، ما عدا موت البئر! يا لي من مجنون! كيف لم أفهم أن البئر كانت ضرورية، ان هذه البئر وحدها كانت علة الحديد الملتهب الذي يحاصرني؟ هل كنت قادراً على مقاومة وهجه؟ وحتى لو قدرت افتراضاً، هل كنت أستطيع أن أثبت لضغطه؟ والآن، ها هـو المعيّن يتسطح، يتسطّح بسرعة، لم تترك لي فرصة للتأمل. كان مركزه ينطبق تماماً على فـوهـة البئر المفتوحة. حاولت أن أتراجع، لكن الجدران كانت تضغط عليّ بشكل لا يقاوم وهي تتقلّص. أخيراً جاءت لحظة لم يكن يجد فيها جسمي الملتهب الملتوي مكاناً، وكاد ألا يكون لقدميّ مكان على أرض الزنزانة. لم أكافح، لكن عذاب روحي تصاعد في صرخة يأس عظيمة وطويلة. شعرت أنني أتأرجح فوق الحافة ـ وحولت بصري . . .

لكن ها هو ما يشبه ضجيج الأصوات البشرية! انفجار عاصف وكأنما قد نُفخ في آلاف الأبواق! هدير هائل كهدير آلاف الرعود! وتراجعت جدران النار سريعاً. ذراع ممـدودةٌ تمسك بذراعي كما لو كنت اسقط في الهاوية خائر القوى. كانت هذه ذراع الجنرال «لاسّال». فقد دخل الجيش الفرنسي «توليدو» وصار التفتيش في أيدي أعداء التفتيش.

مخطوطة في قنينة

ليس لديّ ما أقوله حول بلادي وأسرتي، لأن التصرفات السيئة وكرّ الأيام أبعدتني عن الأولى وتركتني غريباً عن الثانية. وقد أتاحت لي الثروة التي ورثتها ثقافة غير عادية، كما أن نزعة تأملية في تفكيري مكنّتني من تنسيق القصص التي تجمعت لديّ من دراساتي المجدّة الأولى. واجتذبتني مؤلفات الأخلاقيين الألمان بشكل خاص، ليس بداعي اعجابي الأحمق بجنونهم النافذ بل للسهولة التي تمكنت بها من اكتشاف نفاقهم، بفضل عادات تفكيري الصارم. وقد غيّرت بجدب عبقريتي، وعجز مخيّلتي. أمّا آرائي المتشككة بكل شيء فقد تركت لي شهرة سيئة. الحق أن ميلاً شديداً إلى الفلسفة الطبيعيّة طبع تفكيري بخطأ شائع جداً في هذا العصر وهو تفسير الأحداث على ضوء مبادىء هذا العلم، حتى الأشياء التي لم تكن قابلةً لمثل هذا التفسير. إنني، بوجه عام، أقل الناس استعداداً للخروج عن سراط الحقيقة الصارم بتأثير وهج الخرافات الزائف. رأيت أن أسوق هذه المقدمة لئلا تؤخذ القصة الخارقة التي أرويها على أنها هذيان خيال محموم، وليست تجربة عقل؛ لقد كانت الهواجس بالنسبة لي حرفاً ميتاً أو عدماً كلياً.

بعد سنوات عديدة قضيتها في الأسفار أبحرت عام ـ ١٨ من مرفأ باتافيا في جزيرة جاوا الغنية المزدحمة بالسكان، في رحلة إلى جزر الأرخبيل. ذهبت كسائح، إذ لم يكن هناك ما يدفعني للسفر سوى نوع من القلق العصبي يسكنني كأنه مس من الجنّ.

ركبنا سفينة جميلة تزن حوالي أربعمئة طن مغلّفة بالنحاس تمّ بناؤها في بومباي من خشب السّاج المجلوب من مالابار. كانت محمّلة بالقطن والزيت من جزيرة لاشاديف، وألياف جوز الهند، وسكر البلح، والزيت النباتي، وجوز الهند، وبضع صناديق من الأفيون. ولم تكن هذه الحمولة مُنسَّقة بعناية مما جعل ألواح السفينة تلتوي.

أقلعنا، تدفعنا ريح لينّة، وسرنا أياماً عديدة بمحاذاة شاطىء جاوا الشرقي، دون أن

يقطع رتابة سيرنا شيء، باستثناء مرور بعض الرافعات الصغيرة التي تعمل في الأرخبيل.

وذات مساء حين كنت مستنداً إلى حاجز السفينة جذبت انتباهي غيمة وحيدة معزولة في الجهة الشمالية الغربية. كانت تلفت النظر للونها الغريب، ولكونها الغيمة الأولى التي تطالعنا منذ أقلعنا من باتافيا. راقبتها باهتمام حتى الغروب، حين انتشرت فجأة باتجاه الشرق والغرب وطوقت الأفق بحزام بخاري رفيع بدأ كأنّه شاطىء رمليّ. وسرعان ما قفز انتباهي إلى القمر الذي أطلّ في حمرة غسقيّة، ثم إلى البحر الذي بدا في هيئةٍ خاصة. كان البحر يتغيّرُ بسرعة، وبدت المياه أكثر شفافيةً من المعتاد. ومع أنني كنت أقدر ان أرى قعر البحر بوضوح، فقد اكتشفت بعد إلقاء مقياس العمق، أن السفينة على ارتفاع خمس عشرة قامة. أصبح الهواء حاراً إلى درجة لا تطاق، مثقلاً بأبخرة شبيهة بما يتصاعد من الحديد المُحمَّى. كانت نسمات الريح تموت مع اقتراب المساء، ويسود الجوّ هدوء يستحيل إدراك نظيره، وعلى السطح يحترق لهب شمعة دون أية إختلاجة بينما كانت خصلة الشعر بين السبابة والإبهام تتدلّى بسكون لا يعكره اهتزاز. راح القبطان يقول أنه لا يتوقّع حدوث أي خطر؛ مع ذلك، أمر أن تطوى الأشرعة وتُرخى المرساة. لم تنظّم أية رقابة، واستلقى البحارة الذين كانوا من جُزر مالي على السطح دون اكتراث. نزلت إلى غرفتي يخالجني توقّع للشرّ. في الحقيقة كانت كل المظاهر تنذر بهبوب إعصار. أخبرت القبطان بمخاوفي، لكنه لم ينتبه لكلامي ولم يكلّف نفسه حتى عناء الجواب. غير أن قلقي سلبني القدرة على النوم. حوالى منتصف الليل صعدت إلى ظهر السفينة. ما كدت أضع قدمي على الدرجة الأخيرة من السلّم حتى فاجأني دويّ أشبه بدويّ الطواحين الهوائية، وقبل أن أتبينّ السبب أحسستُ أنّ السفينة ترتجّ بكاملها. وارتفعت بعد لحظةٍ موجة وحشية قذفت السفينة على جنبها وعبرت السطح لتكنسه من الأمام إلى الوراء.

غير أنّ هذه الضربة كانت سبب نجاة السفينة إلى حدّ كبير. فمع أنها غمرت كلياً بالماء وتحطّمت صواريها، ارتفعت بعد لحظة متثاقلة مترنحة تحت ضغط العاصفة، ثم استقامت أخيراً.

أية اعجوبة أنقذتني من الهلاك؟ هذا ما يستحيل قوله. كانت صفعة الموج قد أفقدتني وعيي، ولما افقت وجدتني محصوراً بين الدفة ومؤخرة السفينة. تمكنت من الوقوف بصعوبة، ورحت أتطلّع حولي بنظر زائغ. أول شيء وثب إلى ذهني هو أننا بين الأنواء. كان مرعباً، يتجاوز كل خيال ذلك البحر الوحشي بدوّاماته وزبده الذي أطبق علينا. بعد لحظة سمعت صوت شيخ سويديّ كان قد انضمّ إلينا لحظة تركنا المرفأ. ناديته بأعلى صوتي، فاتجه نحوي مترنّحاً. وما لبثنا أن اكتشفنا أننا الوحيدان اللذان نجونا من الحادث. كل من على سطح السفينة ـ ما عدانا ـ كان قد جرف إلى البحر. أما القبطان والبحارة فلا بد أنهم هلكوا أثناء النوم لأنّ الغرف كانت غارقة في الماء. لم نكن نتوقّع أن نفعل الكثير لإنقاذ السفينة بدون مساعدة. فشلت محاولاتنا الأولى لاعتقادنا أننا غارقون لا ريب، إذ تقطعت حبالنا وتمزقت أشرعتنا منذ بداية الإعصار، وتبددت

كأنها خيوط واهنة ولولا ذلك لهلكنا على الفور. كنا نهرب أمام البحر بسرعة مرعبة، والموج يحدث في السفينة ثغرات واضحة. كانت المؤخّرة قد تهشّمت وأصيبت السفينة بأضرار بالغة. وكم كانت فرحتنا كبيرة حين اكتشفنا أنّ المضخات ليست مسدودة، وأن حمولتنا لم تفقد توازنها. أعنف مراحل الأعصار كانت قد مرّت. ولم تعد سرعة الريح تخيفنا كثيراً. لكن كنا ننتظر هدوءها التام بشيء من الهلع مع إعتقادنا أننا هالكون في أيّة حال، لما لحق بسفينتنا من العطب. غير أن انتظارنا ذاك لم تبرره الأحداث التي تلت. فقد بقينا خمسة أيام بلياليها ـ وليس لدينا من القوت سوى قليل من سكر البلح الذي انتزعناه بصعوبة من مقدمة السفينة ـ بقينا كذلك والمركب المحطّم يندفع بسرعة لا تصدّق أمام دفعات الريح الهائلة التي كانت مرعبة مع أنها ليست في عنف العاصفة الأولى، إلى درجةٍ لم أعرفها من قبل. في الأيام الأربعة الأولى وجهتنا الريح بين الجنوب والجنوب الشرقي ولا بد أننا مررنا بمحاذاة شاطىء هولندا الجديدة. وفي اليوم الخامس صار الجو بارداً جداً مع أن الريح استدارت نحو الاتجاه الشمالي. أشرقت الشمس بنور أصفر مريض، وارتفعت درجات معدودات فوق الأفق دون أن تشعّ نوراً وهّاجاً. لم تكن في السماء غيوم ظاهرة، مع ان الريح كانت تهبّ عنيفة متقطعة مضطربة. حوالى الظهر ـ أو هكذا قدّرنا ـ اتجه انتباهنا ثانية إلى هيئة الشمس. لم تكن ترسل أيّ ضوء. كان وهجها كامداً كئيباً وكأن كلّ اشعتها قد تجمّعت في مركزها. وقبل أن تغرق في البحر الهائل، خمدت نارها فجأة كأنّ قوة خفية قد أطفأتها. صارت إطاراً فضيّاً معتماً وحيداً واقتحمت ظلمات المحيط المجهولة.

كنا عبثاً ننتظر صباح اليوم السادس ـ ذلك الصباح الذي لم يطلع بعد عليّ ـ والذي لن يطلع قط على رفيقي السويدي. منذ ذلك الحين كفنتنا الظلمات حتى انه كان يتعذر علينا أن نرى أي شيء على بعد عشرين خطوة من السفينة. وغمرنا ليل أبدي لم تخفف منه الانعكاسات الفوسفورية البحرية التي تعودناها في البحار الاستوائية؛ كما لاحظنا ظهور الموج والزبد رغم أنّ جنون العاصفة لم يكن قد هدأ. كل ما حولنا كان رعباً وظلاماً كثيفاً، وصحارى خانقة من الآبنوس. بدأ ذعر خُرافي يحتل عقل السويدي الشيخ، وغلف روحي ذهول صامت. أهملنا كل عناية بالسفينة، وهو أمر لم تكن له أية فائدة وثبّتنا أنفسنا بعناية شديدة إلى عقب صاري المؤخرة ورحنا نتأمل المحيط بأسى ومرارة. لم تكن لدينا أية وسيلة لقياس الوقت، ولم نتمكن من تكوين فكرة ما عن حقيقة وضعنا. غير أننا كنا واثقين بأننا توغلنا بعيداً باتجاه الجنوب، وبلغنا حيث لم يصل بحّار من قبل، وقد دهشنا حين لم نلتق بالعوائق الجليدية المعتادة. في هذه الفترة، كانت كل لحظة تمرّ تنذر بأنها ستكون لحظتنا الأخيرة. كل هجمةٍ للموج كانت تنقضّ لسحقنا. لقد تخطّى جنون الأمواج حدود الخيال، والمعجزة كل المعجزة أننا لم نهلك لساعتنا. كان رفيقي يعزّي نفسه فيتحدّث عن خفة حمولتنا، ويذكرني بما تتفرّد به سفينتنا من المزايا، لكنني لم أستطع أن أُبعد شعوري باليأس المطلق من كل بارقة للأمل. ورحت أهيء نفسي بأسى بالغ، للموت المقبل الذي أيقنت أن لا شيء يؤجله طويلاً، لأن البحر الحالك الهائل كان يزداد وحشية وجنوناً

مع كل عقدة تجتازها السفينة. كنا في بعض الأحيان نشهق بشدة، ونجد صعوبة في التنفّس؛ أحياناً أخرى كنا نصاب بالدوار ونحن نهبط بسرعة جنونية جحيماً بحريّة حيث يصبح الهواء راكداً خانقاً ولا صوت يقلق غفوة الحيوانات الخرافية.

كنّا في قاع احدى هذه الوهاد حين انفجرت من رفيقي صيحة فجائية هزت الليل، وصرخ في أذني:

«أنظر! أنظر!»

«يا إلهي القادر! أنظر! أنظر!».

حين بدأ يتكلم، رأيت ضوءاً أحمر ينعكس كامداً كئيباً وينسكب على جوانب الهوة التي كنا مدفونين فيها ويلقي على سفينتنا ضوءاً رجراجاً. وعندما رفعت نظري صفعني مشهد جمّد دوران دمي. على ارتفاع شاهق، فوقنا مباشرة، وعلى شفير الهاوية السحيقة القائمة الانحدار، التي سقطنا فيها كانت تحوم سفينة عملاقة لا يقل وزنها عن أربعة آلاف طن. ومع أنها كانت تجثم فوق قمّة موجة أعلى منّا بمئة مرة، فقد بدت أضخم بكثير من أية سفينة من سفن الخط أو سفن شركة الهند الشرقية. كان هيكلها الهائل بلون أسود غامق لا يزينه شيء من النقوش التي نراها عادة على السفن. كان صفّ من المدافع يمتد من الكوى المفتوحة، وعلى سطوحها الصقيلة تنعكس أضواء العديد من قناديل المعارك التي كانت تتأرجح حول حبالها. لكن ما بدا لنا مذهلاً شديد الغرابة هو ان السفينة كانت تنشر كامل أشرعتها، رغم حالة البحر الخارقة والزوابع التي لا تقاوم. حين وقع بصرنا عليها لم يكن يبدو منها غير مقدمتها وهي ترتفع ببطء من الهوة الحالكة المرعبة خلفها. وفي لحظة من الذعر المتشنّج، توقفت قليلاً على حافة البرج المائي الهائل، وكأنها تتملّى عظمتها، عندئذٍ اضطربت وارتجّت ثم - هوت.

لم أدر أية أعصاب باردة واتتني في هذه اللحظة. اندفعت إلى الوراء قدر استطاعتني، وانتظرت، دونما وجل، الدّمار الذي ينقض عليّ. أما سفينتنا فقد تخلّت أخيراً عن المقاومة ونكست رأسها في البحر. لقد قصمتها الصدمة التي أحدثها سقوط الكتلة الهائلة. وكانت النتيجة المحتمة لذلك أن أُقذف بعنف فوق المركب الغريب.

شعرت بالسفينة تنهض بعد لحظة توقف ثم تدور حول نفسها. وتمكنت بفضل التشوش الذي تلا الحادث أن أتوارى عن عيون البحارة. ولم أجد صعوبة في التسلل إلى المدخل الذي كان نصف مفتوح، وسرعان ما وجدت الفرصة للاختباء في العنبر. لماذا تصرفت هذا التصرف؟ هذا ما لا أستطيع إيضاحه. لعلّ سبب اختفائي كان تلك الرهبة الغامضة التي استحوذت عليّ منذ أول نظرة إلى بحّارة السفينة. لم أشأ أن ألقي بنفسي بين نوع من البشر أثار فيّ منذ اللمحة الخاطفة كثيراً من الشكوك والاستغراب والخوف. لذا فكرت انه من الأفضل أن أدبر لنفسي مخبأ في العنبر. أزحت أحد الألواح وهيّأت ملجأ مناسباً بين الأخشاب الضخمة.

ما كدت أتمّ عملي حتى سمعت وقع أقدام، مما اضطرني إلى الاستفادة منه فوراً. مرّ بالقرب من ملجأي رجل بمشيةٍ خائرة مترنّجة. لم أتمكن من رؤية وجهه، لكنني استطعت أن ألاحظ هيئته العامة. كان يبدو عليه الهرم والضعف بشكل جليّ. ركبتاه ترتجفان تحت وطأة العبء نفسه. وبصوتٍ ضعيف ولهجة مكسّرة غمغم لنفسه بضع كلمات لم أستطع فهمها. تلمس الطريق إلى الزاوية بين كومةٍ من الأدوات الغريبة وخرائط الملاحة المهترئة. كانت تصرفاته خليطاً غريباً من بلاهة الخرف ومهابة الآلهة. أخيراً ذهب إلى السطح ولم أره بعد ذلك.

تملّك روحي شعور لا أعرف له اسماً ـ إحساس يستعصي على كل تحليل، وتعجز قواميس الماضي عن إدراكه، وأخشى أن لا يمنحني المستقبل ذاته مفتاحاً له. من كان له مثل تفكيري يجد في ذلك جحيماً حقيقية أعرف أنني لن أستطيع ـ لن أستطيع قط ـ أن أكتفي من التأمل في طبيعة تصوراتي. ليس عجيباً أن تكون هذه التصورات غامضة غريبة طالما أنها تستقي أصولها من منابع جديدة كلياً. إن خصائص جديدة، وكياناً جديداً قد أضيفت إلى روحي.

زمن طويل مضى منذ وطئت قدماي ظهر هذه السفينة المريعة. يخيّل إليّ أن أشعة قدري تتجمع لتغوص في بؤرةٍ ما. يا لهم من بشر غامضين! إنهم مغلّفون بتأملات أعجز عن تخمين طبيعتها، يمرون بي دون أن يلاحظوا وجودي. الاختباء كان جنوناً كلياً من جهتي، لأن هؤلاء البشر لا يريدون أن يروا. لقد مررت لتوي أمام عيني وكيل القبطان؛ ومنذ مدة قصيرة غامرت باقتحام الغرفة الخاصة بالقبطان نفسه، وأخذت منها الأدوات التي أكتب بها، والتي كتبت بها. وسوف أتابع هذه اليوميات من وقت إلى آخر. صحيح أنني قد لا أجد الفرصة لنقلها إلى العالم، لكنني لن أعجز عن إيجاد وسيلة ما. في اللحظة الأخيرة سوف أضع هذه المخطوطة في قنينة وألقي بها في البحر.

وقع حادث أعطاني متسعاً جديداً للتأمل. هل هذه الأشياء من عمل صُدفٍ لا نظام لها؟ كنت أتجول على سطح السفينة ثم استلقيت، دون أن أجذب أي انتباه، بين كومة من الأجهزة والأشرعة العتيقة، في قعر أحد الزوارق. بينما كنت أتأمل في غرابة مصيري رحت ألطخ دون قصد، أطراف شراع صغير مطوي بعناية وملقى على برميل بالقرب مني. هذا الشراع نشر الآن. ولمسات الفرشاة اللاواعية تركت عليه هذه الكلمة: اكتشاف.

قمت مؤخراً بفحص تركيب السفينة. وتبين لي أنها لم تكن سفينة حربية مع أنها كانت مسلحة جيداً. تجهيزاتها، بناؤها، عتادها، كل ذلك ينفي إفتراضاً من هذا النوع.

ما ليست هو، أعرفه بسهولة؛ لكن أخشى أن تستحيل معرفةُ ما هِيَ. أجهل طرازها، غير أنه، لدى التمعن في هذا الطراز الغريب وفي شكل صواريها الفريد، وحجمها الضخم، وكثرة مجموعات أشرعتها ومقدمتها المتناهية في البساطة ومؤخرتها ذات الشكل الأثري، ـ كان نوع من الشعور بشيء ليس مجهولاً تماماً يعبر رأسي كالبرق وتختلط هذه الأطياف بذكريات مجهولة

غامضة عن أساطير غريبة وقرون غابرة.

تفحصت كذلك ألواح السفينة. ورأيت أنها مبنية من مادة أجهلها. لأخشابها صفات خاصة أدهشتني لأني رأيتها غير صالحة للغرض الذي استعملت من أجله، ذلك أنها مملوءة بالمسامّ، وهو ما عزوته إلى فعل الديدان الذي هو نتيجة الملاحة في هذه البحار، وإلى التعفن الذي يحدثه مرور الزمن. قد تبدو ملاحظتي غريبة إلى أبعد حد، لكن ـ كان لهذا الخشب كل صفات السنديان الاسباني لو أتيح للسنديان الاسباني أن يتمدد بفعل أي سبب خارق للطبيعة.

عندما راجعت العبارة السابقة مرت في ذاكرتي كلمة تروى عن بحّار هولندي تقاذفته البحار طويلاً. كان عندما يعبّر سامعوه عن شكّهم بصدقه يقول: «هذا حقيقي؛ كما هو حقيقي وجود بحر تنمو فيه السفن وتكبر كما ينمو الجسد الحي».

واتتني الشجاعة منذ ساعة واندسست بين جماعة من البحارة. لم يبد عليهم أنهم انتبهوا إلى وجودي، ومع أنهم كانوا يحيطون بي فقد بدوا غير شاعرين بوجودي إطلاقاً. كانوا جميعهم كالذي رأيته من قبل يرتدون شارات أزمنة غابرة. . كانت ركبهم ترتخف من الضعف؛ وأكتافهم متقوسة من الهرم، جلدهم المتغضّن يتجعد من الهواء، وأصواتهم خافتة مرتعدة مكسرة، عيونهم تلتمع بدموع الشيخوخة وشعرهم الأشيب يتطاير في الريح، وقد تناثرت حولهم الأدوات الهندسية القديمة التي بطل استعمالها نهائياً.

كنت قد أشرت من قبل إلى أن الشراع الصغير الإضافي الذي يحث السير قد نشر. منذ ذلك الحين استأنفت السفينة جريها الرهيب المتواصل نحو الجنوب تطاردها ريح عاتية وقد تجهزت بكامل قلوعها ونشرت حتى الأشرعة الإضافية التي تضاعف السرعة، وأنزلت أطراف صواريها في أرهب جحيم سائل لا يخطر للعقل البشري أن يتصوره. غادرت لتوي ظهر السفينة إذ وجدت أنه من الصعب أن أثبت قدميّ. لكن لم يبد على البحارة الشعور بأي انزعاج. كان منتهى الإعجاز أن تستمر السفينة في مقاومة الأعاصير ولا تُبتلع دفعة واحدة وإلى الأبد. لقد قضي علينا أن نطوف باستمرار على شَفَا الأبدية، دون أن يتاح لنا أن نغوص في وهدتها. انزلقنا فوق أمواج أكثر هولاً بألف مرة من كل ما شهدته في حياتي، انزلقنا بعيداً كالسهام وفي خفة طيور النورس، والأمواه الهائلة تشرئب برؤوسها فوقنا كشياطين الأعماق. لكن كشياطين كلّ مهمَّتها الإرهاب والتهديد. إنني أتجه إلى تعليل هذا الفرار المتواصل بالسبب الطبيعي المحتمل في هذه الحال. افترضت أن السفينة أسيرة تيار قويّ، أو تيار جَوْفي جارف.

رأيت القبطان وجهاً لوجه وفي غرفته الخاصة ـ لكن، كما توقعت، لم يُعرني أيّ اهتمام. لم يكن في مظهره ما يدل الناظر العابر على أنه يختلف عن أي شخص آخر، مع ذلك ظل يبعث فيَّ شعوراً لا يقاوم من الرهبة والخوف مشوباً بشعور من الدهشة. كان في مثل طولي، أي حوالي خمس أقدام وثماني بوصات، ممتلىء البنية لا هو بالبدين وليس فيه ما يلفت النظر ما خلا التعبير

الغريب الذي يطلّ على وجهه ـ وهو القوة المدهشة المروعة للشيخوخة المطلقة الكلية التي بعثت فيَّ إحساساً لا يمحى. ومع أنَّ جبهته لم تكن كثيرة الغضون فقد بدت كأنها تحمل سمة آلاف السنين. شعره الأغبر سجلٌ للزمن المنصرم، وعيناه الرماديتان عرَّافتان تكشفان المستقبل. كانت أرض الغرفة مغطاة بدفاتر الحساب، وبالأدوات العلمية المتعفنة، والخرائط المنسية. كان رأسه ينحني فوق يديه يحدق بعين شرسة قلقة في ورقة تحمل توقيع حاكم. ودمدم لنفسه ـ كما فعل أول بحار رأيته في العنبر ـ بضع مقاطعِ من لغة غريبة! ومع أنه كان لصق كتفي فقد بدا صوته قادماً عبر آلاف الأميال.

السفينة بكل ما تحتويه مشبعة بروح العصور القديمة. البحارة يتنقلون هنا وهناك كظلال القرون الغابرة، وفي عيونهم تحيا فكرة متأجحة قلقة. وحينما كانت أيديهم تسقط في ضوء الفوانيس المتأرجحة، كنت أشعر بما لم أشعر به قبل هذه اللحظة مع أنني كنت مولعاً طوال حياتي بالآثار القديمة وغمرتني ظلال أعمدة بعلبك المهدمة، وتدمر وبير سيبوليس. وها روحي تستحيل بدورها أنقاضاً.

حينما أنظر حولي، أخجل من مخاوفي السابقة. لئن أرهبتني العاصفة التي طاردتنا حتى هذه اللحظة، أفلا ينبغي أن يصعقني الرعب أمام هذه المعركة ـ معركة الريح والأوقيانوس، التي تعجز الكلمات المبتذلة، كالسموم والإعصار أن تعطي عنها أدنى فكرة؟ حوصرت السفينة في ظلمات ليلٍ أبديّ وفي سديمٍ من الماء لم يعد يُزْبد. لكن استطعنا أن نلمح على بعد حوالي فرسخ من كل جهة، أسواراً هائلةً من الجليد تتصاعد نحو السماء الحزينة كأنها أسوار الكون!

واضح أن السفينة حبيسة تيارٍ كما ظننت ـ إذا استطعنا أن نطلق هذا الإسم على مدٍّ ينطلق مدمدماً هادراً خلال بياض الجليد، بينما يُحدِثُ من جهة الجنوب رعداً أشد وأسرع من رعد شلاَّل عمودي.

يستحيل على أي بشريّ أن يتصوَّر هول مشاعري، غير أنَّ فضولي في النفاذ إلى أسرار هذه الأقاليم المُريعة ما يزال يزيد في يأسي ويصالحني مع أشنع مظهرٍ من مظاهر الموت. إننا الآن في طريقنا لبلوغ اكتشاف مذهل ـ لبلوغ سر لا يمكن نقله لأن معرفته هي الموت. يبدو أن هذا التيار يقودنا إلى القطب الجنوبي ذاته. ينبغي الاعتراف أن هذه الفرضية الغريبة في ظاهرها محتملة جداً.

البحارة يتنزهون على ظهر السفينة بخطوات مرتجفة وقلقة؛ لكن ملامحهم تومض بتعبير أشبه بوهج الأمل منه بفتور اليأس.

الريح وراءنا دائماً، والسفينة لكثرة أشرعتها المنشورة، تقفز أحياناً بكاملها خارج البحر. آه! رعبٌ على رعبٍ! الجليد ينشقّ بغتةً إلى اليمين وإلى اليسار، وندور دائخينَ في حلقات هائلة ذات مركزٍ واحد، حول أطراف مسرحٍ ضخم تغيب جدرانه في الظلمات والفضاء. لكن، لم

يبق لي غير قليل من الوقت للتفكير في مصيري! الحلقات تضيق بسرعة ـ نغوص بجنون في شَدْقِ الدَّوامة ـ وعبر هدير الأوقيانوس والعاصفة وانفجارهما وعجيجهما ـ تتأرجح السفينة ـ ياالله! ـ تختفي . . . تغوص.

لَيْجيا

لا أقدر أن أتذكر كيف ومتى التقيت بالليدي لَيْجيا للمرة الأولى ولا أين تمّ ذلك اللقاء. سنوات طويلة مضت منذ ذلك الحين، وقد أوهنت النكبات والآلام ذاكرتي. أو لعلي لا أقدر الآن أن أتذكر مثل هذه الأمور، لأن صفات حبيبتي وعلمها النادر، ومسحة الجمال والوداعة الفريدة التي كانت تتحلى بها، والفصاحة الأخّاذة التي تميز لغتها الموسيقية، هذه الصفات قد وجدت طريقها إلى قلبي بخطوات ثابتة خفيّة. أعتقد أننا كنا نلتقي في مدينة كبيرة هرمة قرب نهر الرين. وقد سمعتها تتحدث عن عائلتها، التي كانت عائلة قديمة ولا شك. لَيْجِيا! ليجيا! تكفيني وأنا الغارق في دراسات تخفف من انطباعات العالم الخارجي، تكفيني هذه الكلمة العذبة ليجيا، لأستحضر في خيالي صورة المرأة التي لم تعد في الوجود. والآن، بينما أكتب، تتجمع في ذهني أفكار كثيرة، منها أنني لم أتوصل قط إلى معرفة اسم عائلتها، وهي التي كانت صديقتي وخطيبتي والتي أصبحت شريكة دراستي، وأخيراً زوجتي. أكان ذلك عبثاً من قِبَل ليجيا؟ أم كان امتحاناً لقوة حبي حتى أنني لم أفطن أن أتساءل عن هذا الأمر؟ أم أن ذلك كان نزوة هوىً مني ـ تقدمة غريبة رومنطيقية على أقدس مذبح للحب؟ أنني الآن لا أتذكر هذا الموضوع بوضوح، فأية غرابة في أن أنسى كل الظروف التي جاء بها أو الأحداث التي تسببت عنها؟ إذا كانت روح الحب التي يدعونها «أشتوفيت»، تلك الشاحبة الليلية الجناحين، ابنة مصر الوثنية، تبارك، كما يقال، الزيجات السيئة الطالع، فلا بد أن تكون قد باركت زواجي أنا أيضاً.

هناك موضوع واحد لا يمكن لذاكرتي أن تخونني فيما يتعلق به، ذلك هو شخص ليجيا. كانت ذات قامة طويلة تميل إلى النحافة وفي أيامها الأخيرة، صارت نحيلة جداً. أحاول العبث إن حاولت أن أصف الرشاقة والمهابة في حركاتها، أو الخفة العجيبة التي تميّز خطواتها. كانت تأتي وتذهب كالظل. لم أكن أستطيع أن أشعر بدخولها غرفة مطالعتي حتى تأتيني موسيقى صوتها العسلي الحبيب الحلو وهي تضع يدها الرخامية على كتفي. أمّا في جمال الوجه فلم تكن تدانيها

أية فتاة. كانت تألّق حلمٍ أفيونيٍّ ـ رؤيا صوفية تجنّح الروح، أكثر قدسية وغرابة من الخيالات التي ترفرف فوق الأرواح الهاجعة لبنات ديلوس. لم تكن ملامحها من تلك الـطينة التي تعلّمنـا خطأً أن نعبدها في أعمال الوثنيين الكلاسيكية. يقول اللورد فيرولام «ليس هناك جمالٌ خلّاب في كل أشكال الجمال وأنواعه، بغير شيءٍ من الغرابة في تقاسيمه». ومع أنّني لاحظت أنَّ ملامح ليجيا لم تكن في انتظامٍ كلاسيكي، وأنَّ جمالها كان بالفعل خلّاباً يكتنفه الكثير من الغرابة، فقد حاولت عبثاً أن أحدّد مواضع الشذوذ أو أوضح شعوري بما هو غريب فيها. تفحصت حـدود الجبهة المرتفعة الشاحبة ـ لم يكن فيها خطأ ـ ما أقسى هذه الكلمة حـين تستعمل لـوصف مثل ذلك الجلال المقدس! ـ بشرتها تفوق العاج صفاء، الفسحة الأخّاذة السـاكنة، النتـوء اللطيف فوق الصدغين، ثم الضفائر الغرابية الكثيفة اللّماعة المتمـوّجة بصـورة طبيعية تـذكر بـوصف هوميروس «للياقوت الزعفراني»! تطلّعت إلى الأنف الدقيق ـ لم أر مثل ذلك الكمال في الشكل إلا في بعض ميداليات القدماء. كانت له نفس النعومة البهية للبشرة، نفس الميل إلى التحدب الذي يصعب التأكد منه، نفس التناسق والاستدارة في فتحتي الأنف الذي يدل على روح حرَّة. وحين ينحدر النظر إلى الفم الحلو يحس بانتصار كل ما هو سماويّ ـ ارتداد الشفة العليا الصغيرة إلى فوق ـ هجوع الشفة السفلى الناضحة بالشهوة ـ الغمّازتان الضـاحكتان، واللون الـذي يتكلّم ـ الأسنان التي تتألق ببريق يجفل كل شعاع من النّور المقدس يسقط عليها ليمتزج بابتسامة هادئة وادعة لكنها مشعـةٌ أكثر من كـل ابتسامـة. وتفحصت شكل الـذقن ـ هنا أيضـاً تجلت لطافـة الاستدارة، ونعومـة الذقن اليـونانيـة وجلالهـا ـ كما كشفهـا الإلّه أبـوللّو في الحلم لكليومينس الأثينيّ. ثم تفرَّست في عيني لَيْجيا الواسعتين.

عينان لا مثيل لهما في أقدم الأزمنة. لعلَّ السرّ الذي أشار إليـه اللورد فيرولام يكمن في عيني حبيبتي. كانتا أكبر بكثير من عيني الجنس البشري؛ أوسع من عيني غزالة من قطعان وادي نورجهاد. في حالات الانفعال الشديد يبدو اتساع عينيها أكثر من المعتاد ـ في حالات كهذه كان جمالها يبدو لخيالي الجامح، فوق الجمال الخـرافي للحوريـات التركيـة. كانت الألـوان تمتزج في حدقتيها لتنعكس سواداً متألقاً. تحيط بهما أهداب طويلة جداً. فوقهـما حاجبـان في مثل ذلـك السواد إنما دون انتظام كبير. لكن الغرابة التي وجدتها في العينين كانت شيئاً يتعدّى الشكل أو اللون أو البريق؛ تلك الغرابة كانت تكمن في التعبير. آه أيتها الكلمة التي لا معنى لها! كم من الساعات أمضيت أفكر فيها! كنت أجهد طيلة ليلة صيف كاملة كي أستـوعبها! مـا هو ذلـك الشيء ـ الأعمق من بئر ديمقريـطس ـ السر الذي كـان يرقـد في عيني حبيبتي؟ ماذا كـان؟ لقد تملّكني شغفٌ جامح لاكتشافه. تلكما العينان! الفسيحتان المشعتان! تلكما الحدقتان المقدَّستان! صارتا لي كنجمي ليـدا التوأمـين، ولأجلهما غـدوت أكثر المنجمّـين تقىً. ليس في علم النفس أغرب ولا أكثر إثارة من هذه الحقيقة، التي لم تمرّ معي أيام المدرسة. إننا، حين نجهد لنتـذكّر شيئاً منسيَّاً منذ زمن طويل، كثيراً ما نجد أنفسنا على حافة التذكّر بدون أن نقدر في النهاية أن

نتذكّر. هكذا حين كنت أحدق في عيني ليجيا، كثيراً ما كنت أشعر بأنني على وشك إدراك التعبير الذي يطل منهما ـ أحس باقتراب السر دون أن أستطيع امتلاكه ـ وما يلبث أن يفارقني كلُّ شعور بالفهم. من أغرب الغرائب أنني كنت أجد في الأشياء العادية حولي نوعاً من التشابه مع ذلك التعبير. أعني بعد الفترة التي تشرَّبت فيها روحي من جمال ليجيا، وحلت فيَّ كما تحلُّ في أيقونة، بعد تلك الفترة صرت استمد من أشياء العالم المادي نوعاً من المشاعر تحكي ما كان يختلج فيَّ تحت تأثير عينيها الواسعتين المشعَّتين. لم أستطع مع هذا تحديد ذلك الشعور أو تحليله أو حتى إدراكه بوضوح. كنت أجده أحياناً وأنا أراقب عريشةً تحبو بسرعة، أجده حين أتأمَّل حشرة أو فراشة أو جدول ماء ـ كان يغمرني حيال البحر، أو لدى سقوط شهاب من السماء. كنت أجده في نظرة إنسان تجاوز المئة عام. وساورني وأنا أتفحص النجوم بالتلسكوب. كان ينبجس في أعماقي لدى سماع الآلات الوترية أو قراءة بعض المقاطع. وبين ما أذكره من هذه القراءات المقطع التالي لجوزيف غلانفيل (ربما لغرابة هذا المقطع ـ من يدري؟) «هناك توجد الإرادة، الإرادة التي لا تموت. من يعرف عجائب الإرادة بكل قوتها؟ لأن الله هو إرادة عظيمة تطغى على كل الأشياء بقوتها الخاصة. الإنسان لا يسلّم نفسه للملائكة ولا يذعن للموت كلياً إلَّا نتيجة ضعف إرادته».

تمكنت مع مرور السنين، واستمرار تفكيري بهذه القوة من تتبع العلاقة الخفية بين هذا المقطع وبين بعض خصائص ليجيا. كانت حدة تفكيرها وأعمالها وكلامها الغريب نتيجة، أو على الأقل، إشارة إلى تلك الإرادة الهائلة التي أعطت، خلال عشرتنا الطويلة، أدلَّة أخرى أكثر إيجابية على وجودها. ليجيا ذات المظهر الهادىء الوادع أبداً كانت بين جميع النساء أشدهن عنفاً في الحب؛ وكانت تلك الهادئة الوادعة في الوقت نفسه فريسةً لصقور الحب الجامحة. ذلك الحب الذي لم أستطع إدراك مداه لولا الإشعاع العجيب لتينك العينين اللتين كانتا تفرحانني وتخيفانني ـ ولولا تلك النغمة السحرية والرصانة في صوتها العميق. ولولا الحماس الشديد الذي يلهب كلماتها الغريبة التي تبدو أشدّ تأثيراً لطريقة كلامها.

تطرقت إلى علم ليجيا، كان علمها واسعاً ـ لم أعهده في أية امرأة غيرها. كانت تتمتع بمقدرة فائقة في اللغات القديمة (الكلاسيكية) وفي اللغات الحديثة الأوروبية. وبقدر ما تتيحه لي معرفتي بهذه اللغات، أستطيع القول إنني ما كنت لأجد لها خطأ. لم أكن أجد في علم ليجيا أي نقص، حتى في المواضيع التي كان التبحّر فيها مفخرة رجال الأكاديميات. بأية فرادة وأية غرابة تملَّكت وعيي هذه الناحية من شخصية زوجتي! هذه الناحية التي تتجلى لي الآن أكثر من أي وقت مضى. أين هو الإنسان الذي استطاع أن يمتلك في مثل براعتها جميع حقول العلوم الأدبية والفيزيائية والرياضية؟ لم أدرك قبل الآن كم كانت معارف ليجيا ضخمة مدهشة. ورغم هذا كنت أحسّ بتفوقها عليَّ ولا أجد غضاضة في أن استسلم لها كالطفل وهي ترشدني خلال فوضى دراساتي الميتافيزيقة التي غرقت فيها خلال سنوات زواجنا الأولى. بأي انتصار عظيم، بأي فرح

متأجج، بأي سحر، بأي أمل مجنح كنت أشعر وهي تميل نحوي وتأخذ بيدي، وسط أبحاث جديدة غير مطروقة من قبل، لتنفتح أمامي آفاق مبهجة تقودني في ممرات عذراء صوب هدف الحكمة الكلّي القداسة!

إذن، تصوروا كم كان حزني ضارياً حين رأيت، بعد بضع سنوات، آمالي وهي تتجنّح وتطير بعيداً. بدون ليجيا كنت مجرد طفل يحبو في الظلمة. كان حضورها، مجرد قراءتها يحيل أغرب الأفكار التي نتيه في دراستها إلى أشياء حيَّة جلية. بدون إشعاع عينيها البراقتين أصبحت الأحرف كئيبة متجهمة باردة كالرصاص، بعد أن كانت ذهبية ومجنحة. والآن ما عادت تلكما العينان تلقيان الضوء على هذه الصفحات التي يتيه فوقها نظري. فقد مرضت ليجيا. والتهبت العينان الغريبتان ببهاءٍ مشعّ جداً؛ الأصابع الشاحبة استحالت إلى لون الشمع، وصارت عروق جبهتها المرتفعة تنتفخ لأقل انفعال. أدركت أنها ميتة حتماً. واشتكبت في صراع روحي يائس مع عزرائيل، ويا لدهشتي! كان صراع زوجتي المهيّمة أشدّ من صراعي بكثير. مع أنني تصورت أن رصانتها وحكمتها ستجعلانها تستقبل الموت دون رعب. لكن لم يكن تصوري في محله. ليس باستطاعة الكلمات أن تنقل المقاومة الضارية التي أظهرتها في صراعها مع الموت. كنت أتعذب وأتمزق إزاء ذلك الوضع المحزن. كنت أحاول أن أعزيها ـ أو أن أعلل لها الأمور بالمنطق؛ لكن شدة تعلقها بالحياة ـ بالحياة ـ ولأي حياة ـ جعلت كل منطق وكل عزاء يبدوان أشبه بالجنون. غير أنَّ سلوكها لم يتغير، رغم صراعها، ورغم أن روحها العنيفة لم تكفّ عن الصراع والمقاومة حتى اللحظة الأخيرة. أصبح صوتها أكثر لطافة وأكثر عمقاً ـ لكنني لا أحب أن أستعيد معنى تلك الكلمات الأخيرة التي قالتها بمنتهى الهدوء حيث ترنح عقلي وأنا أنصت مأخوذاً إلى نغمة أقوى من الموت، إلى آمال ورؤى لم تعرفها البشرية أبداً.

لم أشك أبداً في أنها أحبتني. وكان واضحاً بالنسبة لي أن الحب في صدر كصدرها لم يكن عاطفة عادية. بيد أن الموت وحده كشف لي غور عاطفتها. كانت تمسك بيدي ساعات طويلة وتتدفق لواعج قلبها في بوح مهيَّم يرقى إلى درجة العبادة. هل كنت أستحق أن أنعم بتلك الاعترافات؟ لكن ماذا فعلت لأستحق لعنة أن تنتزع مني حبيبتي ساعة تهبني الفرح؟ لم أعد قادراً على التفكير بذلك الأمر. أستطيع أن أقول شيئاً واحداً هو أنني تمكنت من أن أفهم تعلّق ليجيا الشديد بالحياة من خلال استسلامها ـ أواه ـ للحب ـ الحب الذي لم أكن استحقه. تعلّقت بالحياة برغبة شديدة ومخلصة، الحياة التي كانت تهرب منها بسرعة. كان هذا القلق الغريب ـ هذه الحمّى من الرغبة في الحياة ـ ولا شيء غير الحياة، شيئاً لا يمكن أن أعبّر عنه.

انظروا! هي ذي ليلة فَرِحة
بين تلك الليالي الأخيرة الموحشة!
حشد من الملائكة المجنَّحة
مقنَّعة بالبراقع، غارقة في الدموع،

تجلس في المسرح، لتشاهد
مسرحية من الآمال والمخاوف،
بينما الجوقة تعزف بحرارة
موسيقى الأجواء.
أشكال بيهئة الله في العُلى
تتمتم وتترنم بصوت خافت
وترفرف هنا وهناك
يا للدمى المسكينة التي تأتي وتذهب
تغيّر المشهد في مجيئها ورواحها
مستجيبة لمشيئة كائنات
هائلة لا شكل لها
نافضة عن أجنحتها النسرية.
رعباً لا مرئياً.
تلك المأساة الملوّنة!
تأكدوا أنَّها لن تنسى.
أبداً تطارد شبحَها الحشودُ
في حَلْقةٍ تنتهي حيث تبدأ
دون أن تقبض عليه.
لأن كثيراً من الجنون ومزيداً من الخطايا
ومن الرعب، تكوّن عقدة الرواية.
لكن انظروا، هو ذا شيء أحمر كالدم
يشق طريقه متلوّياً وسط جمهرة الأشباح
يطل من الجانب المنعزل للمشهد
يتلوَّى، يتلوَّى ـ بشرهٍ قاتل
فتصير الأشباح له طعاماً
وتشهق الملائكة بالبكاء وهي ترى
الدوَّدَ يلعق الدم البشري.
الأنوار تنطفيء كلها ـ كلها تنطفيء
وفوق كل طيفٍ مُرتجف
تنزل ستارةٌ ـ بساطُ الموت
عنيفة كهبوب عاصفة هوجاء

فتنهض الملائكة، شاحبة اللون صفراء
ترفع أقنعتها وتؤكد
بأن المسرحية، مأساة اسمها «الإنسان»
وأن بطلها هو الدُّود القاهر.

«آه يا رب!» شهقت ليجيا وهي تقفز على قدميها وترفع ذراعيها نحو السماء بحركة تشنجية حين أتيت على نهاية هذه الأبيات - «آه يا ربّ، يا أبانا السماوي! - هل الأمر هكذا فعلاً؟ ألن يُقهر هذا القاهر مرَّة؟ ألسنا جزءاً لا يتجزأ منك؟ من - «من يعرف عجائب الإرادة بكل قوتها؟ الإنسان لا يسلّم نفسه للملائكة ولا يذعن للموت كلياً إلَّا نتيجة ضعف إرادته».

وكأنما أنهكها الانفعال فتراخى ذراعاها البيضاوان بألم بالغ، وعادت إلى فراش الموت بهدوء. وبينما كانت تصعّد آخر زفراتها خرجت من بين شفتيها تمتمات ضعيفة ممتزجة مع هذه التأوهات، واستطعت أن أميّز مرة أخرى نهاية مقطع غلانفيل «الإنسان لا يسلم نفسه للملائكة، ولا يذعن للموت كلياً إلَّا نتيجة ضعف إرادته».

ماتت هي؛ أما أنا فقد سحقني الحزن ولم أستطع أن أتحمَّل وحدتي وعزلتي في تلك المدينة الشاحبة على ضفاف الرين. لم يكن ينقصني ما يدعوه الناس بالثروة. كانت ليجيا قد جلبت لي أكثر بكثير مما تتيحه الأقدار للبشر. بعد أشهر قليلة من التجوال الضال الذي لا هدف له، اشتريت ديراً، لن أذكر اسمه، في أحد الأماكن الغريبة النائية من انكلترا الجميلة. الأبّهة الحزينة والعظمة الشاحبة لذلك المكان، والغرابة الوحشية للمنطقة والذكريات القديمة الكئيبة، بالإضافة إلى شعوري بأنني متروكٌ كلياً، كل ذلك دفعني لأن أنفي نفسي في هذا المكان المنعزل. ومع أن الدير كان يبدو من الخارج عتيقاً هرماً فلم اهتمّ بتحسينه، وانصرفت إلى إجراء التغييرات من الداخل متوخياً بعناد كعناد الأطفال وأمل ضعيف في أن يشغلني ذلك عن آلامي، حتى صار ذلك المكان المهجور إلى فخامة وبهاء ملكيين. كنت في طفولتي أجد لذة خاصة بأعمال كهذه. ويبدو أنني الآن قد وجدت في غمرة حزني نوعاً من الرغبة في الرجوع إلى تلك الأعمال تخلصاً من أحزاني. لكن، وأسفاه، كان في تلك المظاهر ما يكشف بداية جنون أكيد، - في الستائر الفخمة المتموجة، في النقوش المصرية الهادئة والأفاريز الغريبة والمفروشات الشاذة، في السجاد ذي النقوش الذهبية! وكنت قد أصبحت عبداً أسير شباك الأفيون، وتلوَّنت أعمالي وترتيباتي بألوان أحلامي. ينبغي ألا أقف لأصف تفاصيل هذه الترّهات. وسأقصر كلامي على تلك الغرفة الملعونة التي قدمت إليها في إحدى ساعات النسيان، عروسي - بعد ليجيا التي لا تنسى - الليدي روينا تريفانون أوف تريمان، روينا ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين.

لا يمكن أن تغيب عن عيني قطعة أو جانب من غرفة العرس تلك. أين كانت غطرسة أهل العروس عندما دفعتهم شهوة الذهب للسماح لابنتهم الغالية الحبيبة أن تعبر عتبة بيت

مؤثث بهذا الشكل؟ قلت إنني أتذكر تفاصيل الغرفة بكل دقة ـ مع أنني غير قادر على تذكر أمور أكثر أهمية. لم يكن هناك أي نظام، أي ترتيب في أثاث الغرفة ينطبع في الذاكرة. كانت الغرفة تقع في برج الدير العالي المبني على طراز القلاع، مخمّسة الزوايا فسيحة الأرجاء. في الجهة الجنوبية من الغرفة كانت تقع نافذة وحيدة، مكونة من لوح كبير جداً من بلور فينيسيا غير القابل للكسر، وهذا اللوح ذو لون رصاصي بحيث أن أشعة الشمس أو القمر التي تنصب عليه وتنفذ إلى الغرفة، تلوّن الأشياء بلون شاحب أصفر. فوق هذه النافذة الضخمة كانت تمتد عريشة قديمة تتسلق جدران البرج الضخمة. وكان السقف من خشب السنديان القاتم اللون، مرتفعاً جداً وعلى هيئة القبة، منقوشاً بدقة، بأغرب أنواع النقوش التي تشبه النقوش القوطية والغاليّة. من قمة هذه القبة الكئيبة تتدلى سلسلة ذهبية تنتهي بمبخرة ذهبية ضخمة من طراز إسلامي، لها عدة ثقوب مرتبة بشكل يخيل للرائي أن ناراً متعددة الألوان تندلع منها وهي تتلوى كالأفعى.

كانت أيضاً بضع أرائك وشمعدانات ذهبية من طراز شرقي تشغل أماكن مختلفة من الغرفة. ثم السرير ـ سرير العرس ـ بطرازه الهندي، الذي كان منخفضاً ومنحوتاً من خشب الآبنوس الصلب يرتفع فوقه سرادق أشبه بأغطية الموتى. وفي كل زاوية من الزوايا يجثم ناووس ضخم من الغرانيت الأسود، من قبور الفراعنة في الأقصر، بأغطيتها الأثرية الملأى بالنقوش التذكارية. لكن نزواتي الشاذة تبدَّت أكثر ما تبدت في الستائر. كانت الجدران الشاهقة، البالغة الارتفاع إلى درجة عدم التناسب مغطاةً من أعلاها إلى أسفلها بستائر كبيرة من النسيج المشجر، ذات ثنيات عريضة. وكان نسيج الستائر من النسيج ذاته الذي يغطي الأرائك والسرير الآبنوسي، والسرادق، وستائر النافذة، ويشبه السجادة إلى حد بعيد. وكانت هذه جميعها من أنفس الأنسجة الذهبية، تنتشر عليها أشكال من الأرابسك محيط الواحد منها حوالي القدم، تحددها خطوط سوداء. لم تكن هذه الرسوم تظهر على النسيج إلا إذا نظر إليه من زاوية معينة، بسبب الطريقة الخاصة في حياكته التي تجعله متموجاً متغيراً. كانت الستائر تبدو لمن يجتاز العتبة، ذات مظهر قاتم بشع، ليس إلاّ. لكن هذا المظهر يأخذ بالتلاشي تدريجياً بعد كل خطوة. وكيفما تحرك الناظر في أنحاء الغرفة تطل عليه بشكل جديد، حتى يجد نفسه محاطاً بتتابع أشكال مرعبة مستوحاة من خرافات النورمانديين، أو بصور الرهبان المحكومين بالنوم الأبدي. ويزيد هذه الأشكال رهبة، ويجعلها تتموج وتتغير بسرعة، مرور تيار هوائي خلف الستائر، مما يخلق جواً مرعباً مزعجاً في الغرفة كلها.

في مسكن كهذا، وغرفة عرس كهذه أمضيت مع الليدي تريمان الساعات المشؤومة من الشهر الأول لزواجنا. ولقد أمضيتها دون كبير إنزعاج.

لم يخفَ عليّ أنّ زوجتي تخشى مزاجي الشرس، وتتجنبني كثيراً ولا تكنّ لي حباً يذكر. لكن ذلك أفرحني. وقد كرهتها كرهاً يمت إلى الشياطين أكثر مما ينتمي إلى عواطف البشر، ورجعت ذاكرتي إلى الوراء (آه! بأية لوعة) إلى ليجيا المعبودة، المهيبة، الجميلة، الميتة. وغرقت في تصوّر

نقائها ورصانتها، وشخصيتها الأثيرية النفاذة، السامية، وحرارة حبّها الذي كان نوعاً من العبادة. واضطرمت مشاعري، بجذوة لم أعرفها من قبل. وفي غمرة أحلامي الأفيونية (لأني كنت دائماً تحت تأثير هذا السمّ) أخذت أنادي اسمها بصوت مرتفع وسط سكون الليل، وفي ظلال الوديان المنعزلة كأنما كنت أقدر بضراوة حبّي المتأجج اللاهب الوحشي أن أبعثها إلى الحياة في الممرات التي هجرتها؛ آه هل يمكن أن تكون هجرتها إلى الأبد؟

حوالي مطلع الشهر الثاني لزواجنا أصيبت الليدي روينا بمرض فجائي، لم تشف منه إلا ببطء شديد. وقد عانت خلال ذلك المرض من ليالٍ قلقة مضطربة بسبب إرتفاع الحرارة. وكانت تتحدث وهي بين النوم واليقظة عن أصوات وحركات في البرج، وهو ما عزوته إلى تشوش ذهنها، أو إلى تأثير الغرفة وأشباحها المتغيّرة. أخيراً بدأت تتحسن، ثم تماثلت للشفاء. لم تكد تشفى من وعكتهاالأولى حتى تركتها إصابة ثانية أشد من الأولى طريحة الفراش من جديد. هذه المرة لم تنهض من الفراش، بل ظلت عليلة لما أصاب جسمها من الهزال. كانت كلما بدأت تتحسن عادت فأصيبت بنكسة خطرة حتى صارت حالتها تتحدى علم الأطباء وجهودهم. لاحظت أن أعصابها تزداد توتراً وإرهاقاً، فتثور وترتعب لأتفه الأسباب. كانت هذه الحالة العصبية تزداد مع اشتداد وطأة المرض الذي تمكّن من جسمها حتى بدَا أنه من المستحيل على الأيدي البشرية إنقاذها. وعادت تتحدث عن الأصوات الخافتة وحركة الستائر غير العادية التي كانت تشكو منها في البدء.

ذات ليلة، في أواخر شهر أيلول وجّهت انتباهي إلى هذا الأمر بانفعال غير عادي. كانت تستيقظ من نوم قلق، وكنت أراقب تعابير ملامحها الهزيلة، بشعور هو مزيج من القلق والفزع. جلست على إحدى الأرائك قرب سريرها الآبنوسي. نهضتْ قليلاً وتكلمت بصوت هامس مضطرب عن أصوات سمِعَتْها، ولم أستطع سماعها، وعن حركات رأتها آنذاك ولم أستطع رؤيتها. كان الهواء يتحرك بسرعة خلف الستائر، ورغبت في أن أبرهن لها (ما لم أكن أصدقه أنا نفسي) أنّ تلك التنهدات الخافتة، وتلك التغيّرات الطفيفة في الصور لم تكن سوى نتيجة طبيعية لتأثير مجرى الهواء المعتاد. لكن لونها امتقع فجأة وصار وجهها في شحوب الموتى، فأدركت أن كل محاولة لتطمينها ستذهب سدىً. كانت على وشك الإغماء، ولم يكن الخدم قريبين مني. تذكرت مكان زجاجة النبيذ الخفيف الذي وصفه لها أطباؤها، فعبرت الغرفة بسرعة لأحضره لها. لكن حين مررت تحت ضوء المبخرة جَذَبَ انتباهي حدثان مثيران، إذ أحسست أن شيئاً خفّاقاً غير منظور يمرّ بي بخفّة وسرعة. وعلى السجّادة الذهبية تحت ضوء المبخرة الساطع رأيت ظلاً - ظلاً شفافاً غير محدد، في هيئة ملائكية، وكأنّه ظل لظلّ. لكن كنت فريسة جرعة أفيون مضاعفة فلم أمنح هذه الحوادث اهتماماً كبيراً ولم أحدّث عنها روينا. عثرت على الخمر، أجتزت الغرفة ثانية، ملأت كأساً من الخمر وأدنيتُها من شفتي زوجتي المغمى عليها. في هذه اللحظة كانت قد تحسنت قليلاً فتناولت الكأس بيدها بينما ذهبت أجلس على الأريكة وأتابعها بنظري. عندها

سمعت بوضوح وقع أقدام خفيفة على السجادة وقرب السرير. وحين كانت روونيا تدني الكأس من شفتيها رأيت - ربما في الحلم - رأيت ثلاث أو أربع قطرات كبيرة بلون الياقوت تهطل من نبع لامرئي معلق في فضاء الغرفة وتسقط في الكأس. إذا كنت قد رأيت هذا فإنّ روونيا لم ترَه وابتلعت الخمر دون تردد. وإمتنعت بدوري عن إخبارها بحادث اعتبرته من وحي خيال متأجج زاده رعب الليدي المريضة والأفيون والليل نشاطاً.

لكن لم أستطع أن أنكر التدهور السريع الذي طرأ على حالة زوجتي إثر سقوط النقاط الحمراء، حتى أن الخدم قد هيأوها بعد ثلاثة أيام لتغيب في تراب القبر. وفي اليوم الرابع كنت أجلس وحيداً مع جثمانها المكفّن في تلك الغرفة الغريبة التي استقبلتْها عروساً منذ أشهر قليلة، والرؤى التي يخلقها الأفيون تحوّم حولي. رحت أحدّق في النواويس التي تجثم في زوايا الغرفة، في أشكال الستائر المتغيرة، في الأضواء الملتوية التي يبعثها المصباح. وحين بدأت أستعيد حوادث تلك الليلة السابقة وقع نظري على البقعة التي تسقط عليها أضواء المبخرة حيث رأيت الظل الشاحب فلم أجد شيئاً، عندئذٍ تنفسّت بحرية وحوّلت نظري إلى الوجه الشّاحب السّاكن على السرير. ثم غمرتني ألف ذكرى من ليجيا - وأحسست بالألم الساحق يندفع إلى قلبي عبر صخّاباً كمدّ بحري، هذا الألم الذي عانيته يوم رأيتها هي أيضاً، يلفّها الكفن. كان الليل يتقدّم وقلبي يغصّ بحسرات وأفكار كانت هي محورها، هي حبي الوحيد الخارق - وظلت عيناي تحدقان في جثمان روونيا.

حوالي منتصف الليل، ربما بعد هذا الوقت أو قبله بقليل، إذ لم أكن أهتم بحساب الزمن، سمعت شهقة بكاء أجفلتني وأيقظتني من أحلامي. كانت شهقة خافتة، ضعيفة لكن واضحة، أحسست أنها صادرة عن السرير الآبنوسي - سرير الموت. أصغيت يمزّقني رعب خرافي - لكن الصوت لم يتكرر. أمعنت النظر لأتبيّن أية حركة في الجثمان - لكنني لم أرَ شيئاً. مع ذلك يستحيل أن أكون قد أخطأت. لقد سمعت الصوت على ضعفه، وكنت بكامل وعيي. لم أحوّل نظري عن الجدث، ورحت أراقبه بإصرار ومكابرة. دقائق عديدة مرّت قبل أن يحدث ما يلقي ضوءاً على ذلك اللغز - في النهاية، بدا واضحاً أن حمرة طفيفة باهتة لكن ملحوظة علت خديها وسرت في العروق الصغيرة التي تعلو الجفنين. شعرت بقلبي يتوقف عن الخفقان، وبأطرافي تتجمد في مكانها، وتسمرّت في مكاني مأخوذاً برعب تعجز لغة البشر عن تصويره. لكن الشعور بالواجب هدّأ من روعي. ولم يعد لديّ شك بأننا تسرعنا في إستعداداتنا - وأن روونيا ما تزال من الأحياء. كان لا بد من القيام بمحاولة ما، لكن منطقة البرج، حيث توجد غرفتنا، كانت مفصولة تماماً عن الأقسام الأخرى حيث ينام الخدم، ولم يكن أحدٌ منهم قريباً يمكنني أن أناديه، ولم تكن لديّ أية وسيلة لدعوتهم، ما لم أترك الغرفة لبضع دقائق، وهو ما لم أجرؤ على القيام به. فعزمت على أن أحاول بنفسي مساعدة الروح التي ما تزال تحوم. لكن ما هي إلا لحظات حتى حصلت نكسة. اختفى اللون من الخدين والجفنين وعاد وجهها أكثر شحوباً

من الرخام. إزداد إنطباق الشفتين وغمرت الجسد برودة لزجة كريهة، وعاد إليه جمود الجثث. استلقيت على الأريكة وقد اقشعرّ جسدي، وعدت أغرق في تأملاتي المهيّمة وأحلم في يقظتي بليجيا.

مرّت على ذلك ساعة حين (يا إلهي هل كان ذلك ممكناً؟) عدت أسمع صوتاً غامضاً ينبعث من ناحية السرير. أصغيت وأنا أرتعد من الرعب. عاد الصوت من جديد، كان هذه المرة تنهدّة. قفزت نحو الجسد المسجّى على السرير، ورأيت الشفتين تختلجان بوضوح، إنفرجتا بعد لحظة عن صفّ من الأسنان اللؤلؤية. أخذ الذهول يصارع الرعب الفظيع الذي تملكني حتى الآن. علت عينيّ غشاوة سوداء، وبدأت أفقد وعيي. ولم أستعد الشجاعة للإستمرار في الواجب الذي دعاني ثانية إلا بعد جهد عنيف. هذه المرة تورد خداها وجبينها وعنقها وغمرت الجسد حرارة ظاهرة، بل كان هناك خفقان ضعيف في منطقة القلب. الليدي ما تزال على قيد الحياة. ورحت أؤدي واجبي بحماس مضاعف، وأساعدها على إستعادة الوعي. دلكت يديها وصدغيها وبللتهما بالماء، وفعلت كل ما علمتني إياه الخبرة وما اكتسبته من قراءاتي الكثيرة في كتب الطب. لكن عبثاً. غاض اللون فجأة وهمد النبض، وعادت إلى الشفتين علامة الموت، وإستعاد الجسد برودة الصقيع، واللون الرصاصي المبقّع، والجمود التام، وكل المظاهر الكريهة التي تبدو على جثة كانت لأيام عديدة من سكان القبور.

غرقت من جديد في تأملاتي وتصوراتي لليجيا ـ ومن جديد ـ هل تصدقون أنّ القشعريرة تعتريني بينما أكتب هذا ـ من جديد بلغت أذنيّ زفرة خافتة آتية من منطقة السرير الآبنوسي. لكن مالي أسترسل في سرد تفاصيل الذعر الذي لا يوصف، ممّا مرّ بي تلك الليلة؟ هل أخبركم كمْ مرّة بعد مرة تكررت تلك الفاجعة المكربة، فاجعة العودة إلى الحياة، حتى طلوع الفجر. كيف كانت كلّ عودة مريعة إلى الحياة تتبدّل بموت أكثر جموداً وبشاعة، وكيف كان كل نزع جديد يشبه الصراع ضد خصم لامرئي، وكيف يعقب كل صراع تغيّر غريب في شكل الجسم؟ لكن ها أنا أبلغ الختام.

كان القسم الأكبر من الليلة المريعة قد مرّ. التي كانت ميتة تحرّكت من جديد ـ وهذه المرّة بنشاط أكبر، مع أنها كانت تنهض من موت مرعب بدا أن لا صحوة بعده. كنت قد توقفت منذ فترة طويلة عن كل محاولة أو حركة، وبقيت مسمّراً على الأريكة غارقاً في دوار من الانفعالات العنيفة، كان الرعب اللامتناهي أقلّها فظاعة وهولاً. ماذا كنت أقول؟ تحرّك الجسد ثانية وبنشاط أكثر من المعتاد، وعادت ألوان الحياة تشع في وجهها بحيوية فريدة، تحرّكت أطرافها، ولولا أجفانها الثقيلة المطبقة، والأكفان التي ما تزال تضفي عليها مسحة جنائزية، لقلت أن روويناً قد حطمت أغلال الموت. لكن إذا كنت لم أقبل بهذه الفكرة من قبل فلم يعد بإمكاني أن أشك طويلاً بالأمر، وقد نهضت من السرير وتقدمت بخطوات ضعيفة مترنّحة ـ مغمضة العينين ـ

كمن يسير في نومه ـ الجدث الـذي كانت الأكفـان تلفّه تقـدم بجرأة يتلمّس طـريقه إلى وسط الغرفة.

لم أرتعد ـ لم أتحرّك ـ لأن حشداً من الخواطر التي لا أجد تعبيراً عنها بعثتها فيّ هيئة الشبح، وقامته، ومشيته، إندفعت على الفور إلى رأسي وشلّت حركتي وحولتني إلى حجر. لم أتحرّك ـ فقد حدّقت في الشبح الواقف أمامي. كانت أفكاري في هيجان مجنون، وصخب لا يهدأ. هل التي أمامي هي فعلاً روونيا وقد عاشت؟ هل يمكن لهـذاالطيف أن يكـون روونيا ـ الليـدي روونيا تريفانون أوف تريمان، ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين؟ لماذا، أجل لماذا أشك بـذلك؟ كان الرباط الثقيل يشدّ الفم. لماذا لا يكـون فم الليدي روونيـا أوف تريمـان؟ والخدان ـ كـانا متوردين كما في أوج صباها ـ أجل، لا بد أن يكونا الخدين الأسيلين لليدي أوف تريمان التي ما تزال على قيد الحياة. والذقن ذو الغمّازة التي كانت لها من قبل، هل يعقل أن لا تكون ذقنها؟ لكن ما بال قامتها قد طالت منـذ مرضهـا؟ أيّ جنون لا يفسّر استبـدّ بي حين خـطرت لي هذه الفكرة. وبقفزة واحدة صرت عند قدميهـا. تراجَعَتْ حـين لمستها، وألقت عن رأسهـا الكفن الفظيع الذي كان يغطيها، وإنهمر في فضاء الغرفة شلاّل غزير من الشعر الطويل المشوّش. كان أكثر سواداً من أجنحة الليل حين ينبت ريش الغراب! حينئذٍ رأيت الوجه الذي كان قبالتي يفتح عينيه شيئاً فشيئاً.

وصرخت بصوت مدوٍّ: «أخيراً! ها هما من جديد!» هل يمكن أن أخطئهما قط؟ ها همـا العينان السوداوان، عيناها الواسعتان، عينا حبّي الضائع ـ عينا الليدي ـ الليدي ليجيا!

اللوحة البيضوية

القصر الذي خطر لخادمي أن يدخله عنوةً كي لا يدعني أمضي الليل في العراء وأنا جريح بشكل يرثى له، كان من هذه القصور التي هي مزيج من العظمة والكآبة. كان كل شيء فيه يدلّ على أنه قد هُجر مؤقتاً ومنذ فترة قريبة. إتخذنا أصغر الغرف وأقلها إزدحاماً بالأثاث. كانت تقع في برج منفرد في البناية، غنية بزخارفها، لكنها قديمة وخربة، جدرانها مغطاة بالسجاد مزينة بمجموعة من شعارات النسب الشريف من كل شكل، وبكثير من لوحات التصوير الحديث الزاخرة بالروح الحديثة، تحيط بها إطارات فخمة، ذهبية منمنمة. صرفت إهتمامي إلى هذه اللوحات التي لم تكن معلقة على واجهات الجدران الرئيسية فحسب، بل تشغل حشداً من الزوايا التي حتّمت وجودها هندسة القصر الغريبة، حتى إنني أمرت بيدرو أن يُغلق باب الغرفة الثقيل ـ لأن الليل كان قد حلّ ـ وأن يُشعِلَ شمعداناً كبيراً موضوعاً قرب وسادتي، ويفتح الستائر المخملية السوداء المهدّبة التي كانت تحيط بالسرير. أمرته أن يفعل ذلك لأستطيع على الأقلّ، إذا لم أقدر على النوم، أن أتسلّى بالنظر إلى هذه اللوحات وقراءة كتاب صغير وجدته على الوسادة، يحلل هذه اللوحات ويقيّمها.

قرأت طويلاً ـ طويلاً؛ تأملت بخشوع، بتعبّد؛ انقضت الساعات سريعة رائعة، وانتصف الليل. لم أكن مرتاحاً لوضع الشمعدان، فمددت يدي بصعوبة كي لا أزعج خادمي النائم، ووضعته بشكل يسمح لأشعته كلها أن تسقط على الكتاب.

لكنّ هذه الحركة سبّبت حادثاً غير منتظر. لقد سقطت آنذاك أشعة الشموع الكثيرة (كانت هناك عدة شموع) على مخدع في الغرفة كانت إحدى قوائم السرير تغطيه بظلها الكثيف. لمحت في الضوء الساطع لوحة فاتني أن ألاحظها بادىء الأمر. كانت صورة فتاة ناضجة حتى لتبدو كأنها امرأة. ألقيت عليها نظرة سريعة وأطبقت عينيّ. لماذا؟ لم أفهم أنا نفسي هذا جيداً

لأول وهلة. لكنني حللت السبب بسرعة بينما كانت عيناي مطبقتين، ذلك السبب الذي جعلني أطبقهما هكذا. كان ذلك بحركة غير إرادية لربح الوقت وللتأمل ـ للتأكد أن نظري لم يخدعني ـ لكي أهدّىء فكري وأهيئه لتأملٍ واثقٍ ودون إنفعال. بعد بضع لحظات حدّقت ملياً في اللوحة من جديد.

لم يكن ممكناً الارتياب، مع أنّني تمنّيته، أنني لا أنظر بوضوح تامّ. لأنّ الضوء الأول الذي سقط من الشمعدان على هذه اللّوحة كان قد بدّد الذهولَ الحالم الـذي يمتلك حواسيّ وأعـادني فجأة إلى الحياة الواقعية.

قلت إن اللوحة كانت لفتاة؛ كانت تمثـل رأسها وكتفيهـا بأسلوب يسمّى من النـاحية التقنية، أسلوب الصور الصغيرة، يشبه كثيراً طريقة سولّـلي في تصويـر الرؤوس التي يؤثـرها. وكان الذراعان والنّهدان وحتى أطراف الشعر المتلألىء تمتزج بشكل لا يُدرك في الـظلّ الغائم، لكن العميق والذي كان بمثابة خلفيّة لمجموع اللوحة. كان الإطار بيضوي الشكل مذهَباً بطريقة رائعة، ومزخرفاً بخطوط متموّجة على غرار الزخرفة المغربيّة.

كانت كأثر فني، بديعة لا يمكن العثور على أجمل منها. لكن ما أثارني فيها بهذه القوّة وهذه المفاجأة قد لا يكون أسلوبها ولا جمالها الخالد. كما أنني لن أفترض أن خيالي الذي يستفيق من ذهول شبيه بالنوم، قد حسب الصورة فتاةً حيّة ـ لأن تفاصيل اللوحة، وأسلوب النمنمة، وهيئة الأطار، كانت ستبدّد مباشرة مثل هـذا السحر وتقيني من كـل وهم حتى لو كان مؤقتاً. لعلني بقيت ساعة كاملة في هذه التأملات، وأنا نصف ممدد، نصف جالس، وعيناي مسمّرتان في هذه اللوحة. أخيراً عندما أكتشفت سرّ تأثيرها الحقيقيّ، تمددت في السرير ثانيةً، إكتشفت أن سحر اللوحة الذي كان تعبيراً حياتياً مطابقاً للحياة نفسها مطابقة تامّة، هو الذي أثارني أوّلاً وشوّشني في النهاية، واستولى عليّ وأخافني. أعدت الشمعدان إلى وضعه الأول، بـرعبٍ عميق مهيب. وإذ أخفيت عن نظري بهذه الطريقة سبب إضطرابي العنيف، تناولت بحرارة وشوق، الكتاب الذي يتضمن تحليل اللوحات وتاريخها. بحثت عن رقم اللوحة البيضوية في الكتاب وقرأت عنها هذه القصة الغامضة الغريبة

«كانت فتاة نادرة الجمال لطيفة ومليئة بالفرح. ألا لُعنت الساعة التي رأت فيها الـرسام وأحبته وتزوجته. كان هو متيّماً بحبّ فنه صارماً مجدّاً، وجد في هذا الفن زوجة له؛ أما هي فكانت فتاة بجمال نادر لطيفة ومليئة بالفرح: لا شيء غير الضوء والبسمات ومرح شادنٍ فتيّ؛ كانت تحب كل شيء ولا تكره إلا الفن الذي كان خصمها؛ ولا تخاف إلا لوحة الألوان والفُرش والأدوات الأخرى التي كانت تحول بينها وبين وجه معبودها. لقد امتلأت هذه السيدة بالرعب لسماعها الرسام يتحدث عن رغبته في أن يـرسم حتى زوجته الشـابة. لكنهـا كانت متـواضعة ومطيعة وجلست بهدوء مدى أسابيع طويلة في غرفة البرج المظلمة العالية، حيث كـان الضوء

يتسرّب إلى اللوحة الشاحبة من السقف فقط. لكن الرسام كان يرى مجده في أثره الذي يكتمل ساعة فساعة ويوماً بعد يوم ـ وكان شخصاً هائماً وغريباً دائم الهواجس يضيع في تخيلاته، بحيث أنه لم يكن يريد أن يرى إلا الضوء الذي كان يسقط بهذا الشكل الكئيب في هذا البرج المنعزل الذي يقضي على صحة زوجته ويذهب بنشاطها وجذلها. كان هزالها بادياً للناس جميعاً باستثنائه هو. ظلّت مع ذلك دائمة الابتسام ولا تشكو أبداً، لأنها رأت الرسام (الذي كانت له شهرة كبيرة) يسرُّ للغاية ويتفانى في عمله، ويعمل ليلاً نهاراً لكي يرسم هذه التي يحبها كثيراً، لكن التي تزداد يوماً بعد يوم هزالاً وضعفاً. الواقع أن الذين كانوا يتأملون اللوحة كانوا يتهامسون عن مشابهتها للأصل، كأعجوبة هائلة وكبرهان على حبّه العميق لهذه التي كان يرسمها بهذا الاتقان المعجز، ذلك الحب الذي لا يقلّ أبداً عن مهارته الخارقة ـ لكنه لم يعد يسمح لأحد بدخول البرج حين كانت اللوحة تقترب من نهايتها؛ لأن الرسام أصبح مجنوناً بعمله، ولم يكن يحرف نظره عن اللوحة إلا نادراً، حتى لكي ينظر إلى وجه زوجته. لم يكن يريد أن يرى أن الألوان التي يضعها على اللوحة كانت مأخوذة من خدّي هذه التي تجلس قربه. وحينما إنقضت عدة أسابيع وأشرفت اللوحة على الاكتمال النهائي، إذ لم تبق إلا لمسة لأجل الفم، وأخرى للعين، كانت روح الفتاة لا تزال تنبض كلهب المصباح. وحينما أنجزها الرسام غاب لحظة في نشوة أمام الأثر الذي أكمله؛ غير أنه، بعد لحظة ارتجف وهو يتأمل، وتملّكه الرعب؛ وصرخ بصوت قويّ: «الحق أن هذه هي الحياة ذاتها». وإستدار لكي يرى حبيبته: لكنها كانت جثة هامدة!».

طريقة الدكتور طار والبروفسور فذر

في خريف عام ـ ١٨، بينما كنت أقوم برحلة في أقاصي الجنوب الفرنسي، قادتني طريقي إلى مسافة بضعة أميال من إحدى المصحات، أو المنازل الخاصة بالمجانين، وكنت قد سمعت كثيراً عن ذلك المصح من أصدقائي الأطباء في باريس. وبما أنه لم يسبق أن زرت مكاناً كذلك، قررت أن لا أدع الفرصة تفوتني؛ لهذا إقترحت على مرافقي في الرحلة (وهو سيد صدف أن تعرفت عليه قبل أيام قليلة) أن نمر بالمكان لمدة ساعة ونتعرف على المؤسسة، لكنه لم يوافق على إقتراحي قائلاً ان علينا أن نسرع، ثم أن منظر المجانين يثير خوفه. غير أنه رجاني ألاّ أحرم نفسي من هذه الرغبة، مجاملة له وقال أنه سيستمر في السفر على مهل بحيث أتمكن من اللحاق به خلال النهار، أو على الأكثر خلال اليوم التالي. وبينما كان يودعني فكرت أنني قد أواجه بعض الصعوبة في دخول المؤسسة، وذكرت له مخاوفي تلك. فأجاب أنني على حق، لأنني إذا لم أكن على معرفة سابقة بالرئيس العام، مسيو ميلارد، أو إذا لم أكن أحمل رسالة تعريف لا بد أن تواجهني الصعوبات لأن قوانين هذا المصح أشد من قوانين المستشفيات العامة. وأضاف أنه سبق له أن تعرّف على مسيو ميلارد، منذ سنوات خلت، ولهذا بإمكانه أن يرافقني للمدخل ويقدمني إليه؛ لكنه أصرّ على عدم الدخول لأنّ مشاعره تجاه المجانين لا تسمح له بذلك.

بعد أن شكرته، إنعطفنا عن الطريق العام إلى طريق فرعي مغطى بالعشب، ضاعت معالمه بعد حوالى نصف الساعة من السير في الغابة الكثيفة التي تغطي سفح الجبل. قطعنا حوالى الميلين في تلك الغابة الرطبة المظلمة، حتى وصلنا إلى المصح. كان البناء قصراً رائعاً، إلا أنه كان متهدماً يبدو عليه الإهمال خلال مرور السنين. بعثت فيَّ رؤيته رهبة بالغة قررت أثناءها أن أعود أدراجي وأوقفت الحصان، لكنني سرعان ما خجلت من ضعفي، وأستأنفنا المسير.

عندما بلغنا المدخل، تبين لي أن البوابة مفتوحة جزئياً، ورأيت شكل رجل يلوح من الشق. وبعد برهة تقدم ذلك الرجل وخاطب مرافقي منادياً إياه بأسمه، وهز يده بمودة، ثم

رجاه بأن يترجّل. كان هذا الرجل هو المسيو ميلارد نفسه، وكان رجلاً مهيباً، ذا هيئةٍ جميلة ومسلك مهذب تبدو عليه ملامح الغبطة، والكبرياء والسلطة.

وبعد أن قدمني صديقي ذكر أنني أرغب بالتفرج على المكان، فأكد له المسيو ميلارد بأنه سيؤمّن لي ذلك بكل عناية. ثم أستأذن صديقي وغادرنا ولم أعد أراه.

بعد أن ذهب صديقي قادني الرئيس إلى ردهة صغيرة مرتبة بشكل يلفت النظر. كانت فيها أشياء تدل على ذوق مرهف، منها بعض الكتب، واللوحات الفنية، وآنية الزهر، والآلات الموسيقية. وكانت النار في المدفأة تتأجج بينما تجلس سيدة جميلة جداً إلى البيانو تغنّي مقطوعة لبلّيني؛ حين دخلت الردهة توقفت السيدة عن الغناء واستقبلتني بأدب جم. كانت تتكلم بصوت منخفض، وظهر لي بأن سلوكها كله تميز بشيء من الكبت. بدا لي شيء من الحزن في ملامحها التي بدت كثيرة الشحوب، لكنها كانت بالنسبة لي، ملامح رائعة. كانت ترتدي ثياباً سوداء، وقد أثارت في دخيلتي مشاعر يمتزج فيها الاحترام بالاهتمام والاعجاب.

كنت قد سمعت في باريس أن مؤسسة المسيو ميلارد تتبع الطريقة التي تعرف عادة «بطريقة التسكين» ـ وأن القصاص أمر غير متبع فيها؛ حتى الحجز كان نادراً ما يستعمل ـ ومع أن المرضى، يبقون تحت مراقبة سرية، إلا أنهم كانوا يتمتعون بحرية كبيرة، ويسمح لكثيرين منهم بالتجول في أرجاء المنزل وفي الحدائق كما لو كانوا يتمتعون بكامل قواهم العقلية.

تذكرت هذا، فكنت حذراً فيما أقوله أمام السيدة؛ إذ لم يكن من سبيل إلى التأكد من سلامة عقلها؛ الواقع أن بريقاً مترجرجاً في عينيها دفعني إلى الشك بصحة عقلها. لهذا حصرت ملاحظاتي بأمور عامة ومواضيع أملت ألا تخلو من بعض القيمة أو البهجة حتى بالنسبة لمجنون. كانت تجيب على كل كلماتي باتزان وكانت في ملاحظاتها الأولى جيدة الحساسية؛ على أن معرفتي الطويلة بميتافيزيقا الجنون علمتني ألاّ أتشدد في إيماني بمظاهر الصحة العقلية؛ ولهذا حافظت خلال المقابلة بكاملها على خطة الحذر التي اتبعتها منذ البدء.

وسرعان ما دخل خادم وبين يديه صينية عليها بعض الفاكهة والخمر وبعض المرطبات الأخرى، أخذت منها بعض الشيء. ولم تلبث السيدة أن غادرت الردهة بشكل مسرع؛ وحينما كانت تخرج من الباب أدرت نظري إلى مضيفي بشيء من التساؤل:

ـ «كلا» قال، «أوه، كلا ـ هي إحدى أفراد عائلتي ـ ابنة أختي، وسيدة كاملة الصفات».

ـ «أستغفرك آلاف المرات للشك الذي ساورني» أجبت، «لكنك بدون شك تعرف كيف تغفر لي، إذ إن إدارتك الممتازة هنا تلاقي استحساناً في باريس، ولهذا فكرت أنه من الممكن، كما تعلم».

ـ «نعم، نعم ـ لا تقل شيئاً آخر ـ واجب الشكر هو في الحقيقة عليَّ لما أظهرته من الفطنة، إننا نادراً ما نلقى من زوارنا مثل بصيرتك النافذة؛ لقد حدثت أكثر من مرة مفاجآت مزعجة

نتيجة لعدم تبصّرهم. عندما كنت أتبع طريقتي السابقة وكان مرضاي يتجولون أحراراً جيئة وذهاباً أنّى شاؤوا، كانوا غالباً ما يثارون إلى درجة الخطر بسبب سلوك أشخاص غير حكماء يمرون للتفرج على هذه المؤسسة. لهذا اضطررت إلى فرض نظام صارم من العزلة ولم يحصل أحد على إذن لدخول المكان من أولئك الذين لا أثق بأذواقهم».

- «عندما كانت طريقتك السابقة متبعة!» قلت معيداً كلماته: «هل أفهم منك، إذن، بأن الطريقة المسكِّنة التي سمعت عنها الكثير لم تعد متبعة؟».

أجاب: «لقد توقفنا عن اتباع تلك الطريقة نهائياً منذ عدة أسابيع».

- « حقّاً! إنك تدهشني!»

ثم قال: «لقد وجدنا، يا سيدي أنه من الضروري العودة إلى الطريقة القديمة. إذ إن أخطار «الطريقة المسكنة»، كانت دائماً، مخيفة، كما أنه قد بولغ في ميزاتها إلى درجة كبيرة. إنني أعتقد، يا سيدي، بأن تلك الطريقة قد لاقت، في هذا المكان، فرصة كافية لتجرَّب تجربة عادلة وعملنا كل شيء يمكن لإنسان عاقل أن يقترحه. آسف إنك لم تتمكن من القيام بزيارتنا من قبل لتحكم بنفسك، لكنني أتصور بأنك ضليع في «الطريقة المسكنة» بكل تفاصيلها

- «ليس بكل تفاصيلها، ما أعرفه اكتسبته عن طريق خبرات الأشخاص الآخرين».

- «بإمكاني أن أصف الطريقة، بتعابير عامة، فهي تترك للمرضى أن يتدبروا مزاجهم بحريَّة. لم نكن لنحول دون تسرب أية تخيلات إلى أذهان المصابين. بل على العكس، لم نكن نكتفي بأن نوحي لهم أحياناً ببعض التخيلات، إنما نشجعهم على الوثوق بها؛ وكنا نتوصل إلى كثير من علاجاتنا الناجحة بفضل هذه الطريقة. ليس هناك أي دليل ينفذ إلى ذهن المصاب أكثر من مبدأ «إقامة البرهان بنقض نقيضه». كان عندنا رجال، مثلاً، يتصورون أنفسهم دجاجاً. وكان العلاج يتم عن طريق الإصرار على هذا التصوّر وكأنه حقيقة - ثم نتهم المريض بالسخافة إن لم يتحقق من أنه فعلاً دجاجة - وهكذا نرفض أن نقدم له أي غذاء سوى ذلك الذي يناسب الدجاج لمدة أسبوع. وبهذه الطريقة كان قليل من الذرة والرمل يصنع العجائب».

- «ولكن، هل كان ذلك النوع من الخضوع للوهم، هو كل ما في الأمر؟».

- «كلا، كنا نعلق أهمية كبيرة على المسليات من الأنواع البسيطة، كالموسيقى، والرقص، والرياضة البدنية عامة وأوراق اللعب، وبعض أنواع الكتب، وهكذا. اتبعنا طريقة معالجة كل فرد على حدة كما لو كنا نعالج أمراضاً جسمية؛ وهكذا فإن كلمة «الجنون» لم تستعمل أبداً. وكنا نعلق أهمية بالغة على أن نعطي كل مصاب مهمة مراقبة أعمال الآخرين وحراستهم. حين تولي المجنون الثقة بفهمه وإحساسه تستطيع أن تكسبه روحياً وجسدياً. وبهذه الطريقة، تمكنّا أيضاً من الاستغناء عن عدد كبير من المراقبين الذين كانوا يكلفون نفقات بالغة».

ـ «وكنتم لا تستعملون أي نوع من العقاب؟».

ـ «أبداً».

ـ «ولا تحتجزون مرضاكم مطلقاً؟».

ـ «نادراً جداً؛ حين كان مزاج بعض المرضى، يتطور في بعض الحالات إلى حد الأزمة، أو حين يثور مريض ما فجأة، حينذاك كنا نقود المصاب إلى زنزانة سرية كي لا يؤثر وضعه على غيره من المصابين، ونحتفظ به هناك إلى أن يحين موعد إطلاق سراحه وإرجاعه إلى أترابه ـ أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً مع المجنون الثائر، فمثل هؤلاء يؤخذون عادة إلى المشافي العامة».

ـ «والآن غيّرتم كل ذلك ـ وتعتقدون أن هذا أفضل؟».

ـ «بدون شك. كان لتلك الطريقة مساوئها، وحتى مخاطرها، ولحسن الحظ أبطلت في جميع مصحات فرنسا.

قلت، «إنني مندهش جداً لما تخبرني، إذ تأكد لي، في هذه البرهة أنه ليس ثمة طريقة أخرى لمعالجة الجنون في أي قسم من البلاد».

ـ «ما تزال صغير السن يا صديقي». أجاب مضيفي، «لكن سيأتي اليوم الذي تتعلم فيه بأن تحكم بنفسك عما يجري في العالم دون أن تستلم لثرثرات الغير. لا تصدق شيئاً مما تسمع وثق بنصف ما ترى فقط. والآن، فيما يتعلق بمصحنا، من الواضح أن غبياً ما قد ضلّلك. على أية حال، بعد أن تكون قد استرحت من مشاق السفر، وبعد تناول العشاء، سيكون من دواعي سروري أن أريك أقسام المصح، وأعرفك على طريقة، هي في رأيي، وفي رأي من تحقق من نتائجها، أنجع طريقة سبق أن تم اكتشافها».

تساءلت «هي من اكتشافاتك؟» «هل هي إحدى اكتشافاتك الخاصة؟».

فأجاب «إنه لمن دواعي افتخاري» «أن أعترف بأنها من اكتشافاتي ـ على الأقل، إلى حدٍ ما».

بقيت أتبادل أطراف الحديث مع مسيو ميلارد على هذا النحو لمدة ساعة أو ساعتين أراني خلالها الحدائق وقاعات الموسيقى التابعة للمؤسسة. قال:

ـ «لا يمكنني أن أريك المرضى الآن. هناك دائماً أمر مريع في مثل هذه المشاهد لذوي الطباع المرهفة، ولا أرغب في أن أفسد عليك شهيتك قبل العشاء. سنأكل. بإمكاني أن أقدم لك بعضاً من لحم العجل والقرنبيط مع مرق اللحم ـ وبعد ذلك كأساً من النبيذ، عندها ستكون أعصابك قد هدأت بما فيه الكفاية».

في السادسة جاء من يعلن أن العشاء جاهز وقادني مضيفي إلى غرفة طعام كبيرة حيث كان يجتمع عدد كبير سن الناس ـ حوالي الخمس والعشرين أو الثلاثين. كانوا، على ما يظهر، أناساً

ذوي مكانة مرموقة ـ وذوي حسب عريق بدون شك ـ مع أن ملابسهم كانت مسرفة في الغنى، كما ظهر لي. لاحظت أن حوالي ثلثي الضيوف كانوا من النساء، بعضهن يتزيّن بثياب لا يمكن أن يعتبرها الباريسي أنيقة بالنسبة للوقت الحاضر، وكثير منهن ـ ممن لا تنقص أعمارهن عن السبعين، كن يتحلين بمزيج من الحلي، كالخواتم والعقود والأقراط ويتركن صدورهن وأذرعهن عارية بدون خجل. لاحظت أيضاً أن الثياب المصنوعة باتقان كانت قليلة بين الحضور ـ أو على الأقل، أن قليلاً من تلك الثياب كانت تناسب اللابسين. حين تلفت حولي رأيت الفتاة الجميلة التي عرفني عليها مسيو ميلارد في الردهة لصغيرة، لكن دهشتي كانت كبيرة عندما رأيتها تلبس طارة وحذاءً ذا كعب عالٍ وقبعة مصنوعة من الشريط المتسخ تبدو كبيرة جداً بالنسبة لرأسها حتى أن وجهها يظهر صغيراً ومضحكاً. عندما رأيتها في المرة الأولى كانت ترتدي ثياباً سوداء وتظهر بشكل لائق يدل على أنها في حداد. باختصار، كان هناك شيء من الغرابة في أزياء جميع الضيوف، مما جعلني في البدء، أسترجع بيني وبين نفسي، ما أعرفه عن الطريقة المسكنة، متصوراً أن مسيو ميلارد كان يحاول أن يغشني إلى أن ينتهي العشاء! كي لا أشعر بأي انزعاج خلال الوليمة حين أجد نفسي آكل مع مجانين. غير أنني تذكرت ما سمعته في باريس من أن أهل الجنوب هم قوم ذوو طباع غريبة، تتملّكهم أفكار قديمة جداً: والأهم من كل ذلك أنني حينما تحدثت مع الحضور، بعد ذلك، تلاشت مخاوفي كلياً وبسرعة.

كانت غرفة الطعام تفتقر إلى كثير من معالم الأناقة مع أنها كانت واسعة جداً ومريحة. فمثلاً كانت الأرض غير مغطاة بالسجاد، لكن على أية حال، نادراً ما يُستعمل السجاد في فرنسا. أما النوافذ فكانت بدون ستائر وأبوابها الموصدة كانت تبدو كأبواب المخازن في باريس تتقاطع عليها القضبان الحديدية زيادة في الحرص. ولاحظت أن الشقة تكوّن لوحدها، جناحاً كاملاً من القصر تبدو فيه النوافذ موزعة في الجهات الثلاث بينما يوجد الباب في الجهة الرابعة. لاحظت هناك ما لا يقل عن عشر نوافذ.

كانت المائدة ذات شكل فخم محملة بالصحون ترزح تحت أثقال من الطعام. أما طريقة الترتيب فبربرية تماماً. كان على المائدة من اللحم ما يكفي لإطعام قبيلة بكاملها. لم أشاهد في حياتي كلها مثل ذلك الإسراف أو الاستعمال السيء لهبات الطبيعة. كانت قلة الذوق تبدو جلية في الترتيب. وكان الضوء المتوهج يبهر عيني اللتين تعودتا على الأضواء الهادئة، إذ أن عدداً كبيراً من الشموع كان موضوعاً في قوائم فضية وملقى على الطاولة بدون تنسيق وفي أماكن مختلفة من أرجاء القاعة. وكان هناك عدد كبير من الخدم الذين يبدون في أوج نشاطهم، وفي الطرف الآخر من الشقة مائدة كبيرة يجلس عليها سبعة أو ثمانية أشخاص ومعهم مزامير وطبول وصفارات. لقد سبب لي أولئك الفتيان انزعاجاً كبيراً إذ إنّهم، خلال الوليمة، كانوا يحدثون أنواعاً لا تحصى من الأصوات، القصد منها، على ما يظهر، أن تكون موسيقى، وكانت تلقى من الجميع إعجاباً واستحساناً، باستثنائي أنا.

لم أقدر، بشكل عام، أن أمتنع عن التفكير، بأن شيئاً ما، غريباً ومصطنعاً يميز كل ما يقع عليه النظر ـ لكن العالم مكوَّن من مختلف أنواع البشر بمختلف أنواع التفكير، ومختلف العادات والتقاليد. كنت قد سافرت كثيراً وأصبحت قادرا على أن أمسك عن استغراب أي شيء؛ هكذا أخذت مكاني بهدوء إلى يمين مضيفي، وإذ كنت ذا شهية ممتازة أكلت من الخيرات التي أمامي.

كان الحديث خلال الوليمة، حيوياً وعاماً. وكالعادة أكثرت السيدات الكلام؛ وسرعان ما تبين لي بأن جميع الحضور، تقريباً، كانوا على درجة علمية لا بأس بها، أما مضيفي فعالم من الفكاهات بحد ذاته. كان، على ما يظهر، يجد لذة خاصة في أن يتكلم عن نفسه كرئيس للمصح؛ وبالحقيقة كان موضوع الجنون موضوعاً شيّقاً يتحدث الجميع عنه؛ وقد سمعت أثناء الوليمة، عدداً كبيراً من القصص المسلية التي تصف غرابة طباع المرضى.

ـ «كان عندنا شخص» قال رجل صغير الجسم يجلس إلى يميني ـ «شخص يتصور نفسه إبريق شاي؛ وبالمناسبة أليس غريباً كيف شقّ هذا الوعاء طريقه مرات عديدة إلى أذهان المرضى؟ إذ لا يكاد يوجد مصح عقلي واحد في كل فرنسا يفتقر إلى إبرق شاي بشري. أما صاحبنا هذا فكان إبريق شاي بريطاني الصنع، وكان شديد الحرص على أن يلمّع نفسه كل صباح بالجلد والعشب».

وقال رجل آخر يجلس مقابل الرجل الأول، «كان عندنا هنا أيضاً، من زمان غير بعيد، رجل دخل في روعه أنه حمار. والحقيقة أن هذا، من الناحية المجازيَّة، صحيح تماماً. فقد كان مريضاً مزعجاً، وكنا نرهق أنفسنا لنبقيه ضمن الحدود المعقولة. وقد رفض، لمدة طويلة، أن يأكل شيئاً غير الأشواك لكن سرعان ما نجحنا بمعالجته من هذا الوهم بأن أصررنا على أن لا يأكل شيئاً غير هذا. ثم إنه كان دائم التلبيط بعقبيه، هكذا ـ هكذا ـ ».

ـ «مستر ديكوك! سأكون شاكرةً إذا تأدبت!»، قاطعته سيدة عجوز كانت تجلس إلى جانبه ـ «أرجوك أن تحتفظ برجليك لنفسك! لقد نزعت تطريزي! استحلفك أن تخبرني هل من الضروري أن تشرح هذه الطريقة بشكل عملي كما تفعل؟ إن صديقنا هذا باستطاعته، حتماً، أن يفهم ما تقصد بدون هذا كله. إنني أقسم بأنك حمار كبير كما كان ذلك المسكين يتصور نفسه؛ وتصرفك طبيعي جداً، وحق السماء».

ـ «ألف عذر، مدموازيل!»، أجاب مسيو ديكوك. «ألف عذر! لم انو أن أزعج أحداً مدموازيل لابلاس ـ أنه مما يشرّف مسيو ديكوك أن يشاركك الخمر».

وهنا انحنى مسيو ديكوك انحناءة قوية، وقبَّل يده بابهة ظاهرة، وشرب نخب مدموازيل لابلاس.

ـ اسمح لي يا صديقي». قال مسيو ميلار مخاطباً إياي، «اسمح لي بأن أقدم لك هذه

القطعة من لحم العجل. ستجده لذيذ الطعم بشكل خاص».

في هذه اللحظة قام ثلاثة من الخدم بوضع وعاء ضخم على الطاولة؛ وبعد أن تفحصته عن كثب تبين لي أن ما كان يحتويه ليس في الحقيقة سوى عجل صغير مشوي بكامله، موضوع على ركبتيه، وفي فمه تفاحة كما هي الطريقة الإنكليزية في تزيين الأرنب.

- «كلا، أشكرك» أجبته، «في الواقع لست مولعاً بالعجل المطبوخ بهذه الطريقة؛ ما هي؟- إذ إنني لا أجدها تناسبني أبداً سأبدل صحني على كل حال، وآكل شيئاً من الأرنب».

كان هناك عدد كبير من الصحون الجانبية موزعة على المائدة، تحتوي على ما ظهر وكأنه الأرنب الفرنسي - وهو نوع من اللحوم اللذيذة جداً والتي أحبها.

- «بيار» صرخ مضيفي، «أبدل صحن هذا السيد، وقدم له قطعة جانبية من هذا الأرنب - مع الهرة.

- «مع ماذا -؟» هتفت.

- «هذا الأرنب مع الهرة».

- «أوْ، شكراً - كلا، بعد أن فكرت بالأمر؛ سأتناول قليلاً من لحم الخنزير، فقط

وقلت في نفسي، لا يمكن لأحد أن يعرف ماذا يأكل، على موائد هؤلاء الناس، لن أتناول أياً من أرانبهم المطبوخة مع الهررة - ولا حتى من هررتهم المطبوخة مع الأرانب، أيضاً.

- «ثمَّ»، قال شخص يبدو شاحب اللون يجلس إلى طرف المائدة، وهو يتابع الحديث حيث توقف - «بين الغرائب أيضاً أنه كان عندنا مريض، يظن نفسه جبناً قرطبياً، وكان يدور والسكين في يده راجياً أصدقاءه أن يجربوا قطعة من منتصف ساقه».

- «كان مجنوناً كبيراً، بدون شك». علق أحدهم، «لكن لا يمكن مقابلته بشخص نعرفه جميعاً، باستثناء هذا السيد الغريب؛ أعني ذلك الذي كان يعتبر نفسه قنينة شمبانيا؛ وكان دائماً يتجول وهو يحدث دويًّا ويفور كما يحدث لقنينة الشمبانيا حينما تُفتح».

وهنا وضع المتكلم إبهامه الأيمن، بكل فظاظة، في حنكه الأيسر، وأنتزعه محدثاً صوتاً شبيهاً بصوت الفلينة وهي تنتزع من القنينة؛ ثم أخذ يحرك لسانه حول أسنانه محدثاً أصواتاً حادة من الفحيح والفوران استمرت لعدة دقائق، مقلداً صوت الشمبانيا وهي تفور من القنينة. رأيت بوضوح، أن هذا التصرف لم يكن مصدر سرور كبير لمسيو ميلارد، لكن هذا الأخير لم يقل شيئاً، واستمرّ الحديث على لسان أحد الحضور الآخرين.

- «أيضاً كان هناك غبي يتصور نفسه ضفدعاً؛ والحقيقة أنه لم يكن بعيد الشبه عن الضفدع. أتمنى لو تمكنت من رؤيته يا سيدي». قال المتكلم موجهاً حديثه إلي - «كان سيبهج قلبك أن تشاهد الأدوار التي يقوم بها؛ ومن المؤسف حقاً أنه لم يكن ضفدعاً حقيقياً. نقيقه هكذا

ـواق ـ وواققق! كان أجمل صوت في العالم ـ وحين كان يضع مرفقيه على الطاولة، هكذا ـ بعد أن يتناول قدحاً أو قدحين من الخمر كان يمط فمه، هكذا؛ ويبرم عينيه، هكذا، ويغمز بهما بسرعة مدهشة، هكذا؛ ولهذا يا سيدي، أثق أنك، بدون أدنى ريب، كنت ستؤخذ إعجاباً بعبقرية الرجل».

ـ «ليس لدي شك بذلك». قلت.

ـ «ثم». قال شخص آخر، «ثم كان عندنا جيلارد الصغير، الذي يتصور نفسه قرص نشوق، ويتكدر بالفعل لأنه لا يستطيع أن يمسك بنفسه بين سبابته وإبهامه».

«وهناك أيضاً جولس ديزولير، الذي كان في الحقيقة عبقرياً فريداً من نوعه، وكان سعيداً جداً إذ يتصور نفسه قرعة. ويرجو الطاهي أن يصنع منه فطيراً ـ الأمر الذي رفض الطاهي أن يقوم به، أما من جهتي فإنني لست متأكداً تماماً من أن فطيرة مصنوعة من ديزولير لن تكون أكلة رائعة».

ـ «أنك تدهشني!» قلت، ونظرت إلى مسيو ميلارد متسائلاً.

ـ «ها! ها! ها!» قال ذلك السيد ـ «هيْ! هيْ! هي! ـ هاي! هاي! هاي! ـ هوْ! هوْ! هوْ! ـ أكلة رائعة حقاً! يجب ألا تدهش يا صديقي، إن صاحبنا هذا هو فكاهي مهرج ويجب ألاّ تأخذ كلامه حرفياً».

ـ «ثم»، قال شخص آخر من الحضور: «ثم كان عندنا بوفون العظيم ـ شخص آخر غريب على طريقته الخاصة. نشأ مشوشاً بسبب الحب، وكان يتصور أنَّ له رأسين، يؤكد أنَّ أحدهما رأس شيشرون، والآخر رأس معقد مكون من رأس ديموستينيس من أعلى الجبهة وحتى الفم، ورأس اللورد بروغام من الفم حتى الذقن. كان من المستحيل أن يكون مخطئاً، ولا ريب في أنه ينجح في إقناعك بصحة تصوره، إذ إنه كان رجلاً بليغاً جداً. كان مولعاً بالخطابة ولعاً غريباً، وما كان يستطيع التوقف عن عرض مواهبه. فمثلاً كان يقفز على مائدة الطعام هكذا، و ـ و ـ .».

وهنا وضع صديق للمتكلم يده على كتفه، وتمتم ببضع كلمات في أذنه جعلته يتوقف عن مشهده ويعود إلى كرسيه بهدوء.

ـ «ثم» قال الرجل الذي تمتم لصديقه: «كان عندنا بولارد الدوامة ذات الشعب الثلاث، لأنه كان في الواقع عبداً للهزل لكن ليس بشكل منطقي تماماً، فقد توهم أنه تحول إلى دوامة. لو رأيته يدور على نفسه لتلاشيتَ من الضحك. كان يدور على عقب واحدة لمدة ساعة، على هذا الشكل ـ هكذا ـ».

وهنا قام صاحبه الذي توقف عن دوره بعد أن همس المتكلم في أذنه، بأداء دور مماثل وبطريقته الخاصة.

ـ «لكن»، صرخت عجوز بأعلى صوتها: «مسيو بولارد كـان مجنونـاً، ومجنونـاً سخيفاً في أحسن الحالات، إذ من سمع بدوامة بشرية؟ هذا لا معنى له، مدام جوايوز كانت شخصاً أعقل منه، كما تعلم. كانت تضفي على كل معارفها سروراً بالغاً. وجدت، بعد تمحيص دقيق أنها، بسبب حادث ما، قد تحولت إلى ديك، وكانت تتصرف بلياقة كاملة، فتضرب بجناحيها بشكل رائع ـ هكذا ـ هكذا ـ هكذا، وأمّا صياحها فكان لذيذاً جداً! كـوك ـ أ ـ دودل ـ دو! كوك ـ أ ـ دودل ـ دو! ـ كوك ـ أ ـ دودل ـ دي دو ـ دو ـ دوو ـ دووووووو!».

ـ «مدام جوايوز، أكون ممتناً كثيراً، إذا تصرفت بلياقة!» قاطعها هنا مضيفي بغيظ ظاهر: «بإمكانك إما أن تتصرفي كما ينتظر منك كسيدة، أو أن تتركي المائدة حالاً ـ اختاري».

أحمر وجه تلك السيدة حتى حاجبيها (وقد دهشت أن أسمع مضيفي يدعوها بمدام جوايوز بعد الوصف الدقيق الذي قدمته لمدام جوايوز)؛ وظهر أنها قد خجلت خجلاً فظيعاً. وأخفت رأسها ولم تجب بحرف واحد. لكن سيدة أخرى، أصغر منها، تابعت الحديث. كانت هي تلك السيدة الجميلة التي تعرفت عليها في الردهة.

ـ «أوه، مدام جوايوز كانت مجنونة» قالت بحماس: «لكن أفكار يوجيني سالسافيت كانت أكثر تعقلاً. كانت سيدة رائعة الجمال بسيطة المظهر، وتؤمن بأن الطريقة التي تتبعها النساء في اللباس غير لائقة، لهذا كانت دائماً ترغب حين ترتدي ثيابها، أن تخرج من هذه الثياب بدل أن تدخل فيها. إن هذا أمر بالغ السهولة. على أية حال ليس عليك أن تفعل أكثر من هذا ـ هكذا، ثم هكذا ـ وهكذا ـ وهكذا ـ ثم هكذا ـ وهكذا ـ وهكذا؛ ثم ـ».

ـ «يـا إلهي، مدمـوازيل سـالسافيت!» هنـا تعالت أصـوات كثيرة: «مـا الذي تفعلينه؟ ـ احتشمي ـ يكفي هذا! ـ إننا نرى بوضوح تام كيف يمكن ذلـك! ـ توقفي! تـوقفي!». وقفز عدة أشخاص من مقاعدهم ليحاولوا أن يمنعوا مدمـوازيل سـالسافيت من أن تجـرد نفسها من الثياب بكليتها؛ ولم يكن من حاجة لهذه المحاولة، إذ إن المدموازيل سرعان ما توقفت عن عملها عندما بلغ أسماعنا أصوات ولولة وصراخ مفاجىء وحاد من بعض أنحاء القصر.

لقد تأثرت أعصابي جـداً، في الحقيقة، بسبب هـذا الصراخ، غـير أن مشهد الآخـرين أحزنني بالفعل. لم أر في حياتي جماعة من النـاس أصابهم الـرعب على ذلـك الشكل. شحبت ألوانهم جميعاً وأصبحت كألوان الموتى، وإذ تقلصوا في مقـاعدهم أخـذوا يرتجفـون من الرعب كأنهم يترقبون حدثاً خطيراً. وجاءت الأصوات مرة أخرى ـ أعلى وأقرب على ما يظهر ـ ثم مرة ثالثة، كانت الأصوات عالية جداً، ثم مرة رابعة، وكانت هذه الأخيرة خفيفة. مع اختفاء هذه الأصوات استعاد الجماعة قواهم وعاد كل شيء إلى ما كـان عليه. عنـدئذ لم أجـد بداً من أن أتساءل عن سبب الصراخ.

ـ «مجرد أضحوكة» قال مسيو ميلارد، إنّنـا معتادون عـلى هذه الـظواهر، والحقيقـة أننا لا

نهتم بها كثيراً. فالمجانين، بين الحين والآخر، تأخذهم نـوبات صـراخ جماعيـة، صرخة تثير صرخات تتلوها، كما هي الحال مع قطيع من الكلاب الهائجة في الليل. يحدث أحياناً أن تتبع هذا الصراخ محاولات من المجانين للافلات من عقالهم. وعندها، بالطبع، يمكن أن نتـوقع خـطراً ما».

ـ «وكم عدد الذين هم تحت إشرافك؟».

ـ «في الوقت الحاضر ليس عندنا أكثر من عشرة».

ـ «أكثرهم إناث، على ما أعتقد؟».

ـ «أوه، كلا، كل واحد منهم رجل، ويمكن القول: رجل قوي».

ـ «حقاً! كنت أعتقد أنَّ أكثر المصابين هم من الجنس اللطيف».

ـ «هذا بشكل عام، لكن ليس دائماً. فمنذ مدة قليلة كان هنا حـوالي السبع والعشـرين مريضاً بينهم ما لا يقلّ عن ثماني عشـرة امرأة، لكن مؤخـراً، تغيرت الأحـوال، كثيراً، كـما ترى».

ـ «نعم ـ تغيّرت كثيراً، كما ترى» قاطع السيد الذي قطّع تطريز مدموازيل لابلاس.

ـ «نعم ـ تغيرت كثيراً، كما ترى!» ردد الجميع بصوت واحد.

ـ «أمسكوا ألسنتكم» قال مضيفي بغضب بالغ فـرض على الحضـور هدوءاً تـاماً استمـر حوالي الدقيقة. وكانت هناك سيدة، أطاعت أمر مسيو ميلارد حرفياً، إذ قذفت بلسانها خارج فمها، وكان لساناً طويلاً حقاً، ثم أمسكت به، بكل ثبات، بكلتا يديها حتى نهاية المشهد.

ـ «وهذه السيدة»، قلت لمسيو ميلارد، وأنا أقبل نحوه وأكلمه بصـوت منخفض: «هذه السيدة التي تكلمت الآن، والتي قامت بدور الكوك ـ أ ـ دودل ـ دي ـ دو ـ أعتقد أنها غير مؤذية ـ غير مؤذية أبداً، إيه؟».

ـ «غـير مؤذية!» أجـاب هو بـدهشة غير مصطنعة، «مـاذا ـ ماذا، مـا الـذي يمكن أن تعنيه؟».

ـ «مصابة بمس خفيف؟» قلت وأنـا أشير إلى رأسي. «أتصـور أنها ليست مصابـة بشكل خطر! إيه؟».

ـ «يا إلهي! ما الذي تتصوره؟ هذه السيدة، صديقتي الحميمة، مدام جوايوز، هي بكامل قواها العقلية، تماماً مثلي. إنّ لها بعض الطبـاع الغريبـة لا شك في ذلـك ـ لكن، كل النسـاء العجائز ـ الطاعنات في السن ـ كما تعلم، هن نوعاً ما، ذوات أطوار غريبة»

ـ «بدون شك»، قلت ـ «بدون شك ـ ثم بقية هؤلاء السيدات والسادة ـ».

ـ «هم أصدقائي ومعاونيّ»، قاطـع مسيو ميـلارد، وهو يتخـذ طابـع الاستعلاء ـ «إنهم

أصدقائي ومعاونيّ الأعزاء».

- «ماذا! كلهم؟» سألته، «النساء والجميع؟».

- «بالتأكيد»، قال - «لا يمكنني أن أتدبر الأمر أبداً بدون النساء. إنهن أفضل ممرضات الجنون في العالم. إن لهن طريقتهن الخاصة، كما تعلم؛ إن لعيونهن البرَّاقة فعلاً عجيباً - شيئاً كسحر الأفاعي، كما تعلم».

- «بدون شك» قلت - «بدون شك! أنهن يتصرفن ببعض الغرابة. إنهن شاذات نوعاً ما؟ - ألا تعتقد ذلك؟».

- «غريب! - شاذات! - ماذا، هل حقاً تقصد ذلك؟» إننا لسنا شديدي الحصافة هنا في الجنوب، بدون شك - نتصرف في الغالب كما نرغب - نتمتع بالحياة، وكل الأمور الأخرى، كما تعلم -».

- «بدون شك». قلت - «بدون شك».

- «ثم، لعل هذه الخمر تؤثر في الرأس نوعاً ما، كما تعلم - قوية لدرجة ما - تفهم ما أعني، إيه؟».

- «بدون شك» قلت - «بدون شك، بالمناسبة، مسيو، هل فهمت منك أن الطريقة التي تتبعها الآن بدل الطريقة الشهيرة المعروفة، بالطريقة المسكنة، هي بالغة الصرامة؟».

- «أبداً. إن الحصار حول المصابين محكم فعلاً، لكن علاجنا، علاجنا الطبي، أعني - يحظى بقبول المرضى بشكل حسن».

- «والطريقة الجديدة هي من اختراعك الخاص؟».

- «ليس بكاملها. بعض أجزائها من ابتكار البروفسور طار الذي لا أشك أنك سمعت عنه، ثم هناك بعض التعديلات في طريقتي التي اعترف، بتواضع كلي، أنها تعود إلى الشهير فذر، الذي لا بد أن تكون قد حظيت بشرف لقائه، إن لم أكن مخطئاً».

- «إنني أخجل جداً، إذ أعترف» أجبت - بأنني في الحقيقة لم أسمع بايّ من هذين الاسمين لهذين الشهيرين من قبل».

- «يا إلهي!» صرخ مضيفي، وهو يسحب كرسيه فجأةً إلى الخلف ويرفع ذراعيه في الهواء - «لا بد أنني لم أسمعك جيداً. إنك لم تقصد أن تقول، إيه؟ بأنك لم تسمع بالعالم الشهير الدكتور طار ولا بالبروفسور فذر؟».

- «أراني مجبراً على الاعتراف بجهلي» أجبت. «لكن الحقيقة يجب أن تقال رغم كل شيء. على أية حال، إنني أشعر بضعة بالغة لأنني لست مطلعاً على كتابات هؤلاء الذين لا شك بأنهم

رجال متفوقون، سأبحث عن كتبهم حالاً وسأنصب على دراستها بكل اهتمام. مسيو ميلارد، بالفعل ـ يجب أن أعترف بذلك ـ بالفعل، جعلتني أخجل من نفسي!».

وهذه كانت الحقيقة.

ـ «لا تقل أي شيء آخر، يا صديقي الفتيّ العزيز». قال ذلك بلطف وهو يضغط على يدي، «شاركني الآن شرب كأس من الخمر». وشربنا. وحذا حذونا الحضور. ثرثروا ـ وتمازحوا ـ وضحكوا ـ وقاموا بآلاف السخافات ـ وزعقت الزمامير ـ وضربت الطبول ـ وشخرت الأبواق كقطيع من عجول فالاريس ـ وكان المشهد بكامله يتطور من سيء إلى أسوأ، بينما كانت الخمر تفعل فعلها، وخيم نوع من جحيم الأبالسة. وفي هذه الأثناء كنت ومسيو ميلارد، وبيننا بعض القناني من الخمر نتبادل الحديث بأعلى ما أوتينا من قوة الحنجرة، حتى أنه لم يكن للكلمة التي تلفظ بصوت اعتيادي نصيب في بلوغها أذن الآخر أكثر من نصيب صوت تطلقه سمكة في قعر شلالات نياغارا.

ـ «ويا سيدي» صرخت في أذنه، «ذكرت شيئاً قبل العشاء عن بعض المخاطر التي تكمن في الطريقة المسكنة التي كنتم تتبعونها من قبل. ماذا تقصد بذلك؟».

ـ «نعم.» أجاب، «كان هناك، أحياناً، خطر بالغ، بالفعل. إذ لا يمكنك أن تتصور أنواع الحيل التي يمكن أن يبتدعها المجنون؛ وفي رأيي، كما في رأي الدكتور طار والبروفوسور فذر، أنه ليس من السلامة في شيء ترك المصابين على سجيتهم بدون مراقبة. قد يمكن «تسكين» المجنون، كما يقال، لمدة، ولكن قد يصبح في النهاية شيطاناً لعيناً. إن دهاءه مضرب الأمثال وبالغ الخطورة. فإذا ما كان لديه مخطط ما فإنه يخفي نواياه بحكمة مدهشة، والمهارة التي يظهرها حين يدعي الصحة هي بالحقيقة إحدى المظاهر التي تواجه الميتافيزيقي بواجب الدراسة لفهم العقل البشري. عندما يظهر المجنون صحيحاً كلياً، يعني ذلك أن الوقت قد حان لوضعه في قفص.»

ـ «لكن الخطر الذي تتكلم عنه يا سيدي العزيز ـ حسب اختباراتك الخاصة ـ أثناء إدارتك لهذا المصح ـ هل سبق لك أن تأكدت من أن الحرية تفشل في معالجة المصاب؟».

ـ «هنا؟ ـ حسب اختباراتي الخاصة؟ ـ لماذا؟ بإمكاني أن أقول، نعم. فمثلاً، من مدة ليست بالبعيدة حدث أمر غريب جداً في هذا المكان بالذات. كانت «الطريقة المسكنة» التي تعرفها هي المتبعة، وكان عدد المرضى كبيراً، وكانوا يتصرفون بتعقل تام، خاصة، حتى أن أي واحد ذي إدراك، ما كان ليشك بأن مخططاً شيطانياً ما، هو قيد الإعداد، لأن المصابين كانوا يتصرفون على ذلك الوجه من لتعقل التام. وكما هو منتظر، فقد وجد القائمون على إدارة المكان أنفسهم في صباح يوم جميل مقيدين بأقدامهم وأيديهم ومطروحين في الزنزانات والمجانين يقومون على العناية بهم، كأنما هم المصابون بعدما اغتصب المجانين السلطة من أوليائهم».

- «لا يمكنك أن تقصد ذلك! أنني لم أسمع بأغرب من هذا في حياتي!».

- «إنها الحقيقة. كل العملية حدثت بسبب شخص سخيف - معتوه - تسربت إلى رأسه بعض الأفكار عن طريقة ابتدعها وظن أنها أفضل من أية طريقة أخرى لإدارة المصح - أعني إدارة المجانين. ورغب هذا في أن يجرّب اختراعه لمدة، على ما أعتقد، وهكذا تمكن من إقناع بقية المصابين بأن يشتركوا معه بقلب السلطات الحاكمة».

- «وقد نجح فعلاً؟».

- «لا شك في ذلك. فقد تبادل القيمون على المجانين مع المجانين أماكنهم. وليس هذا بالضبط؛ إذ إن المصابين كانوا من قبل أحراراً بينما أصبح القيمون، بعد الانقلاب، سجناء، وعوملوا، ويا للأسف، بطريقة شهمة جداً».

- «لكنني أتصور أن ثورة مضادة سرعان ما قامت. فهذه الوضعية لا يمكن أن تكون قد استمرَّت طويلاً. أهل الريف بجوار المكان - الزوار الذين يأتون للتفرج على المصح - لا بد أنهم أعطوا إنذاراً».

- «هنا، أنت على خطأ؛ فالثائر الأكبر كان على درجة عالية من الدهاء، إذ لم يسمح لأي من الزوار بدخول المصح - هذا باستثناء شخصٍ كانت تظهر عليه دلائل السخف البالغ، وبعد أن تأكد أنه لا خطر من دخوله، سمح له بزيارة المكان - هذا على سبيل تنويع المشاهد- وللحصول على شيء من التسلية معه؛ وبعد أن نال منه ما فيه الكفاية، أخرجه وأعاده من حيث أتى».

- «وكم استمر، إذن، حكم المجانين؟».

- «أوه، استمرَّ وقتاً طويلاً؛ الحقيقة أنه استمر شهراً - لا يمكنني أن أقول ما إذا طال حكمهم أكثر من ذلك. في هذه الأثناء حصل المجانين على فترة من أمتع فترات إقامتهم هنا - بإمكانك أن تقسم على ذلك؛ لقد خلعوا ثيابهم البالية واقتحموا خزائن الثياب التابعة للمدراء واستعملوا مجوهراتهم، وكانت عنابر القصر مليئة بالخمر الجيدة، والمجانين هم، بالفعل، شياطين تعرف كيف تشرب الخمر. عاشوا جيداً، بإمكاني أن أؤكد لك ذلك».

- «والمعالجة - ما هي خصائص تلك المعالجة التي اتَّبعها ذلك الثائر الأكبر أثناء تلك الفترة؟».

- «لماذا؛ إن المعتوه ليس بالضرورة شخصاً مجنوناً كما سبق وتأكدت من ذلك. وإنني بكل ارتياح أقول إن طريقته كانت أفضل بكثير من الطريقة التي سبقتها. كانت طريقة رائعة بالفعل - بسيطة - مرتبة - لا مشاكل مطلقاً - في الواقع كانت ممتعة - كانت -».

هنا توقف محدثي عن الكلام بسبب ارتفاع الصراخ والعويل مجدداً - الصراخ نفسه الذي

ارتفع من قبل؛ إلا أنه، هذه المرة، كان صراخاً ينبعث من جماعات يظهر أنها تتقدم نحونا بسرعة.

- «يا إلهي!» صرخت - «لا بدَّ أن المجانين قد حطموا الأبواب وخرجوا».

- «أخشى أن تكون مصيباً هذه المرة». أجاب مسيو ميلارد، بعد أن امتقع لونه من شدة الاصفرار. ولم يكد ينهي عبارته حتى سمعت صراخاً شديداً وصياحاً تحت النوافذ؛ وبعد ذلك مباشرة، تبين أن بعض الأشخاص في الخارج كانوا يحاولون اقتحام الغرفة. كان الباب يضرب ضرب شديداً بالمطارق، ولم تلبث الأقفال أن تكسرت وفُتحت الأبواب بقوة.

تبع هذا مشهد من الفوضى المرعبة لا يعقل. وكانت دهشتي بالغة حين رمى مسيو ميلارد بنفسه تحت البوفيه، إذ كنت انتظر منه حزماً أكثر. أما أعضاء الأوركسترا الذين كانوا في ربع الساعة الأخيرة من السكر بحيث لم يتمكنوا من أداء ما هو منتظر منهم، فقد قفزوا على أقدامهم ممسكين بآلاتهم، وبحركة واحدة مفاجئة أصبحوا فوق الطاولة وأخذوا يعزفون نغم «يانكي دودل» بقوة تفوق قدرة البشر خلال فترة الفوضى تلك.

وفي هذه الأثناء، وفوق مائدة الطعام، وبين القناني المتعددة، قفز السيد الذي سبق أن منع عن القفز إلى الطاولة، وحالما استقر له المقام هناك، ابتدأ بخطبة كانت، ولا شك، خطبة رائعة، لو أمكن سماعها. وفي الوقت نفسه أخذ الرجل الدوامة يدور على نفسه في أرجاء الشقة بسرعة مذهلة، وذراعاه ممدودتان بشكل يكوّن زاويتين قائمتين مع جسده حتى أنه ظهر كدوامة حقيقية ذات ثلاث شعب، وكان يطرح أرضاً كل من اعترض طريقه. والآن، كذلك، سمعت أصواتاً لا تصدق من الفحيح والفوران - شمبانيا - واكتشفت بعد برهة أنها كانت تصدر عن ذلك الشخص الذي قام بمشهد زجاجة الشمبانيا خلال الوليمة. وأيضاً، ومرة أخرى، أخذ الرجل الصفدع ينق كما لو أن خلاص روحه كان يتوقف على كل صوت يخرج من فمه. وفي وسط كل هذا، كان نهيق حمار يرتفع فوق جميع الأصوات. أما صديقتي القديمة مدام جوايوز، فقد كان باستطاعتي أن أبكي لحالها، لأنها كانت تبدو في حالة قلق مرعب هائل. وكان كل ما تفعله، هو وقوفها قرب المدفأة وصراخها بدون انقطاع وبأعلى صوتها: «كوك - أ - دودل - دو - دووووووو!».

والآن، نبلغ القمة - فاجعة المأساة. بما أن المقاومة ضد المتدخلين كانت مقتصرة على الصراخ والعويل والصياح، فقد اندفعت الشبابيك العشرة منفتحة في وقت واحد. ولن أستطيع أن أنسى أبداً مشاعر الدهشة والرعب التي أصابتني حين قفز من الشبابيك جيش كامل ظهر لي أنه شمبانزي وبشرٌ مما قبل التاريخ أو قرود رأس الرجاء الصالح - اندفعوا وهم يتقاتلون ويتزاحمون ويهولون ويضربون الأرض بأرجلهم وينهشون ما يقع تحت أيديهم.

كان نصيبي نوع من الضرب الهائل - زحفت بعده واختبأت تحت المقعد حيث مكثت

بهدوء. بعد أن بقيت هناك حوالي الخمس عشرة دقيقة، كنت خلالها أصغي بكل قواي ألى كل حركة تجري في الغرفة، وصلت إلى خلاصة واضحة لسبب هذه المأساة. فلقد كان مسيو ميلارد، على ما يظهر، حين أخبرني بقصة ذلك المجنون الذي حرَّض رفاقه على الثورة ـ كان في الواقع يخبرني بقصته هو. لقد كان هذا السيد، بالفعل، منذ سنتين أو ثلاث، رئيس تلك المؤسسة؛ لكنه أصيب بالجنون هو أيضاً، وهكذا وضع بين المصابين. لم يكن صاحبي الذي عرفني عليه في البدء مطلّعاً على هذه الحقيقة، أما القيّمون على المكان وعددهم عشرة فقد طليت أجسادهم بالقطران[1] ثم ألصق بها الريش[2] بعناية بعد أن غلبوا على أمرهم؛ وحبسوا في زنزانات تحت الأرض، وقد مضى عليهم أكثر من شهر وهم على تلك الحال. وقد سمح لهم مسيو ميلارد أثناء ذلك، ليس فقط بالقطران والريش (التي كانت عناصر طريقته المبتكرة) وإنما ببعض الخبز وبكثير من الماء أيضاً. وكان الماء يضخ يومياً إلى زنزانتهم، وأخيراً تمكن أحدهم من الهرب عبر مجرور مائي، وأطلق سراح الجميع.

أما الطريقة المسكنة، فقد أعيد استعمالها في المؤسسة بعد أن أدخلت عليها بعض التعديلات الأساسية؛ لكنني لا أستطيع إلاَّ أن أوافق مسيو ميلارد على أن «طريقته» المبتكرة كانت شيئاً رائعاً من نوعها. فلقد كانت بالفعل كما وصفها، «بسيطة، مرتبة، لا مشاكل فيها مطلقاً، لا مشاكل من أي نوع».

عليَّ أن أضيف شيئاً واحداً هو أنني بحثت في مكتبات أوروبا كلها عن كتابات الدكتور طار والبروفوسور فدر، فلم أتمكن أن أحظى بأية نسخة، حتى هذا التاريخ.

---

(١) قطران معناها Tarr (طار).

(٢) الريش تعني Feather (فذر).

هوب - فروغ

لم أعرف أحداً يطرب للنكتة كما كان يطرب لها ذلك الملك. كان يظهر وكأنه يحيا من أجل النكتة وحدها.

كانت الوسيلة الأكيدة للحصول على رضاه هي أن تسرد حكاية جيدة من النوع الهزلي، وأن تُسرد بالطريقة الملائمة. وهكذا فإن وزراءه السبعة كانوا مشهورين بالنكتة البارعة، وكانوا، يشبهون الملك إلى حد كبير، ضخام الجثث، مفرطين في السمنة ومهرّجين لا يشق لهم غبار. أترى تسمن أجسام الناس بسبب المزاح، أم أن في السمنة نفسها ما يثير حب الضحك؟ هذا ما لم أستطع أن أتأكد منه؛ لكن لا شك أن وجود المهرج الهزيل أمر نادر الوجود.

كان الملك مولعاً، بشكل خاص باتساع النكتة وكثيراً ما كان يتحمل طولها إذا تطرقت إلى أشياء كثيرة. أما الحذاقة فكانت تتعبه. كان يفضل «جارجنتوا» لرابليه على «زاديـغ» لفولتـير؛ وكانت الدعابات العملية بشكلٍ عام تحظى بإعجابه أكثر من الدعابات اللفظية.

عندما كتبت هذه القصة كان المهرجون المحترفون ما زالوا يملأون أروقة القصور. كانت عدة دول في أوروبا تحتفظ بمهرجيها الذين يتزينون بالقبعات والأجراس؛ وكان يفترض فيهم أن يكونوا على استعداد دائم لتأدية نكتة بارعة غب إشارة بسيطة، لقاء الفتات الذي يتسـاقط من الموائد الملكية.

وكان ملكنا يحتفظ بمهرجه. والحقيقة أنه اشترط وجود شيء يضفي على القصر جـواً من الفكاهة - إن لم يكن لسبب، فعلى الأقل ليوازن الحكمة البالغة لوزرائه السبعة الحكماء، دون أن نذكر حكمته هو.

لم يكن مهرجه، أو «مجنونه» المحترف، مهرجاً وحسب. كانت قيمته تبلغ أضعاف ذلك في عيني الملك لأنه كان أيضاً قزماً كسيحاً. في تلك الأيام كان الأقزام موضة شائعـة في القصور،

كالمهرجين؛ وكثير من الملوك كانوا يجدون صعوبة بأن يمضوا أيامهم (إذ إن الأيام على سدة الحكم تبدو أطول منها في الأمكنة الأخرى) بدون مهرج ليضحكوا معه، وقزم ليضحكوا منه. غير أنّ تسعاً وتسعين بالمئة من المهرجين كانوا سادة ضخام الجثث، مستديري القامة. لهذا لم يكن هوب ـفروغ، وكان هذا هو اسم مهرج الملك ـ مصدراً هيناً للاعتزاز بالنفس، إذ كان الملك يملك، بذلك المهرج، كنزاً من الخصائص الفريدة، في شخص واحد.

أعتقد أن الضفدع النطّاط (هوب ـ فروغ) لم يكن الاسم الذي أطلق على القزم عند المعمودية، لكنه أطلق عليه بعد الاتفاق العام بين الوزراء السبعة لعدم مقدرته على المشي كما يفعل الناس العاديون. والحقيقة أن هوب ـ فروغ لم يكن يستطيع السير إلا قفزاً ـ أو ما يتراوح بين القفز والدوران؛ هذه الحركة ـ بحد ذاتها ـ كانت توفر تعزية وتسلية لا حد لها، للملك الذي كان يعتبره أفراد حاشيته ـ بصرف النظر عن كرشه المستدير وانتفاخ رأسه، شخصاً عظيماً.

لكن رغم أن هوب ـ فروغ لم يكن، بسبب النقص في ساقيه، يستطيع السير إلا بمشقّة بالغة، فإن القوة العضلية الكبيرة في ذراعيه ـ هذه القوة التي أنعمت بها عليه الطبيعة كتعويض للنقص في أقسام جسمه السفلى ـ كانت تمكنه من أن يقوم بعدة حركات، بمهارة بالغة خاصة على الحبال أو الأشجار، أو أي شيء آخر يمكن تسلقه. كان في تلك الحركات يشبه، دون شك، سنجاباً أو قرداً صغيراً أكثر مما يشبه ضفدعاً.

ليس بإمكاني أن أحدد بالضبط البلاد التي أتى منها هوب ـ فروغ، أصلاً. كانت، على أية حال، بلاداً لم يسمع بها أحد ـ بعيدة جداً عن مملكة ملكنا. ولقد طرد هوب ـ فروغ هو وفتاة أكبر منه جسمياً بقليل (مع أنها تتميز بتقاطيع وملامح فاتنة، ومع أنها راقصة بارعة) طرداً بالقوة من منزليهما في مقاطعة مجاورة وأرسلا كهدية للملك بواسطة أحد جنرالاته المنتصرين.

في مثل هذه الحالات، لم يكن هناك مجال للعجب من أن تنشأ بين الأسيرين الصغيرين صلات ود وتقارب. وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين جداً. ولولا الخدمات الكثيرة التي كان باستطاعة هوب ـ فروغ أن يقدمها لتريبيتا لما كان ليصبح موضع الإعجاب، لكنها هي بسبب رشاقتها وجمالها الخلاب (بالرغم من قزميتها)، كانت موضع إعجاب الجميع وتملقهم، ولهذا كانت تملك تأثيراً كبيراً لم تتوان في ممارسته، حينما تقدر، لمصلحة هوب ـ فروغ.

في إحدى المناسبات العظيمة التي نسيت اسمها، قرر الملك أن يقيم حفلة تنكرية كبيرة. وحين كان القصر يعدَ لمثل هذه الحفلات، أو لأي نوع من الاحتفالات البهيجة، لم يكن ممكناً الاستغناء عن مواهب هوب ـ فروغ وتريبيتا. كان هوب ـ فروغ موهوباً، خاصة، بابتكار المواكب، وإدخال الشخصيات الجديدة، وترتيب الأزياء لحفلات الرقص التنكرية، حتى أن شيئاً من ذلك القبيل، ما كان ليتم على الوجه الصحيح، بدون مساعدته.

وأطل ليل الاحتفال الموعود. وكانت قاعة كبيرة قد أعدت تحت إشراف تريبيتا بكل

الوسائل التي يمكن أن تضيف شيئاً من البهاء إلى حفلة تنكرية. وكان جميع الحضور في حمى من الانتظار. وفيها يتعلق بالأزياء والأدوار التي ستمثل، يمكن القول إن كل شخص كان قد اتخذ قراراً حول ذلك. الكثيرون اختاروا بينهم وبين أنفسهم الأدوار التي سيقومون بأدائها وذلك قبل الموعد المحدد بأسبوع أو شهر؛ وفي الحقيقة لم يكن هناك أدنى شك أو تردد عند أي من الحضور ـ باستثناء ما يتعلق بأدوار الملك ووزرائه السبعة. أما لماذا تردد هؤلاء فليس بإمكاني أبداً أن أقول إلا إذا كانوا قد فعلوا ذلك أيضاً من قبيل الدعابة. الأغلب أنهم وجدو من الصعب، باعتبار سمنة أبدانهم، أن يقرروا أي شيء. على كل حال، مر الوقت، وكحلّ أخير أرسلوا في طلب تريبيتا وهوب ـ فروغ.

عندما استجاب الصديقان الصغيران لدعوة الملك وجداه جالساً إلى مائدة من الخمر وحوله وزراؤه السبعة. لكن الملك كان يبدو في مزاج صعب جداً. كان يعرف أن هوب ـ فروغ لا يحب الخمر، لأن الخمر كانت تهيج الكسيح المسكين إلى حد الجنون، والجنون ليس شعوراً مريحاً. غير أن الملك كان مولعاً بالدعابات العملية، وكان يجد متعة قصوى في أن يجبر هوب ـ فروغ على الشرب ـ أو كما يدعوه الملك ـ «على الفرح».

ـ «تقدم إلى هنا، يا هوب ـ فروغ» قال الملك ذلك حينما كان المهرج وصديقته يدخلان القاعة. «اكرع ما في هذه الكأس، نخب أصدقائك الغائبين (هنا تنهد هوب ـ فروغ) ثم دعنا نتمتع بفكاهاتك. إننا نريد ممثلين، ممثلين حقيقيين، يا رجل ـ شيئاً جديداً ما ـ ليس لنا عهد به. لقد مللنا هذه الرتابة القاتلة، تعال، اشرب! الخمر تشحذ قريحتك!».

حاول هوب ـ فروغ، كالعادة، أن يجيب بدعابة ما ليتجنب أوامر الملك بالشرب، لكن عبثاً. وحدث أن ذلك اليوم كان عيد مولد القزم المسكين؛ وأمر الملك أن يشرب «نخب أصدقائه الغائبين» مما أَدْمَعَ عينيه. سقطت نقاط كثيرة وكبيرة من الدمع في الكأس عندما تناولها، بتواضع، من يد الطاغية.

ـ «آه! ها! ها! ها!» قهقه هذا الأخير؛ بينما كان القزم يشرب ما في الكأس غصباً عنه. «أرأيت ماذا يمكن لكأس من الخمر الجيدة أن تصنع بك! آه، إن عينيك تبرقان منذ الآن!».

يا للمسكين! لقد كانت عيناه في الواقع تلتهبان، ولم تكونا تبرقان؛ إذ إن أثر الخمر على ذهنه السريع التهيج كان سريعاً أكثر مما هو قوي. ووضع الكأس باضطراب على الطاولة، وأخذ يجول بعينيه في الحضور بنظرات مخبولة. ظهر الجميع مسرورين لنجاح «دعابة» الملك العملية.

ـ «والآن، هيا للعمل» قال رئيس الوزراء ـ الرَّجل المفرط السمنة.

ـ «نعم» قال الملك. «تعال يا هوب ـ فروغ، أعطنا يدك. هات ممثلين يا فتاي الطيب؛ إننا بحاجة إلى ممثلين ـ جميعنا ـ ها! ها! ها!» وإذ كان يقصد من هذه الكلمات أن تكون دعابة حقيقية فقد انفجر الوزراء السبعة وهم يرددون ضحكة الملك.

وضحك هوب ـ فروغ أيضاً، مع أن ضحكته كانت خفيفة وباهتة.

ـ «أسرع، أسرع» قال الملك وقد عيل صبره، «أليس عندك ما تقترحه؟».

ـ «إنني أفكر بشيء جديد» أجاب القزم بذهن شارد إذ إنه كان قد ارتبك من فعل الخمر.

ـ «تحاول!» صرخ الطاغية بغيظ، «ماذا تعني بذلك؟ آه، الآن فهمت، أنت بليد وتحتاج إلى مزيد من الخمر. خذ، اشرب هذا!» وصب كأساً أخرى مليئة وقدمها للكسيح الذي حدق بها فقط محاولاً أن يلتقط أنفاسه.

ـ «اشرب أقول!» صرخ ذلك الوحش، «وإلا بحق الشياطين ـ».

وتردد القزم، وامتقع وجه الملك بالحنق، وتضاحك الندماء، أما تريبيتا التي أصبح لونها ممتقعاً كلون الأموات، فقد تقدمت إلى كرسي الملك، وسقطت على قدميها أمامه، وتوسلت إليه بأن يعفو عن صديقها.

ونظر إليها الطاغية، لبضع لحظات بتعجب ظاهر من جرأتها. وبدا كأنه لا يعرف ماذا يفعل أو يقول ـ إذ لا يليق أن يعبر عن غيظه! ـ وأخيراً وبدون أن يتفوّه بحرف، دفعها بشراسة ورمى الكأس في وجهها.

نهضت المسكينة، وإذ لم تتجاسر على التأوّه، استعادت مكانها قرب المائدة.

وساد في القاعة هدوء ثقيل استمر لمدة حوالي النصف دقيقة. كان سقوط ورقة أو تحرك ريشة صوتاً مسموعاً، وقطع ذلك الصمت صرير خفيف مخنوق كأنما ينبعث من جميع زوايا الغرفة.

ـ «لماذا ـ لماذا ـ لماذا تُصدر ذلك الصوت؟» سأل الملك وهو يستدير بحنق بالغ صوب القزم.

وكان هذا الأخير، على ما يظهر، قد استرد قواه بتأثير الخمر، فنظر بثبات، لكن بهدوء، إلى وجه الطاغية، وقال بصوت ضعيف.

ـ «أنا ـ أنا؟ كيف يمكن أن أفعل ذلك، أنا؟».

ـ «يظهر أن الصوت يأتي من الخارج»، قال أحد الندماء. أعتقد أن الببغاء في الشباك، وهو يحدث ذلك الصوت، عندما يشحذ منقاره على قضبان النافذة».

ـ «صحيح»، أجاب الملك، وكأنما قد ارتاح لهذا الحل؛ «لكن بشرف الفروسية، كان باستطاعتي أن أقسم بأن ذلك كان صرير أسنان ذلك المتشرد».

هنا ضحك القزم (وكان الملك لا يعترض على ضحك أحد إذ عرف بولعه بالضحك)، وبانت من وراء شفتيه أسنان صخمة قوية وبشعة لدرجة كبيرة. وأعلن بالإضافة إلى ذلك، عن

استعداده لأن يكرع من الخمر قدر ما يرغب الملك. وهدأت ثورة الملك؛ وبعد أن كرع كأساً أخرى بدون أن يظهر على هوب ـ فروغ رد فعل سيء، سرعان ما دخل بمرحٍ في موضوع الحفلة الرئيسي.

ـ «لا يمكنني أن أقول بأية مصاحبات ذهنية خطرت لي الفكرة. قال القزم بهدوء تام كما لو أنه لم يذق الخمر في حياته: «لكن بالضبط، بعد أن رميت جلالتك الكأس في وجه الفتاة، بالضبط، في البرهة التي قلت فيها ذلك، وفيما كان الببغاء يخرج ذلك الصوت الغريب، تذكرت لعبة رائعة ـ إحدى الدعابات التي نعرفها في بلادنا ـ وغالباً ما نقوم بأدائها في حفلاتنا التنكرية. لكنها هنا ستكون جديدة كل الجدة. غير أنها مع الأسف، تحتاج لثمانية أشخاص، و ـ».

ـ «ها نحن!» صرخ الملك، وهو يضحك لاكتشافه البارع لهذه الصدفة الشيقة. «ثمانية بدون كسور ـ أنا ووزرائي السبعة ـ أسرع، ما هي اللعبة؟».

ـ «ندعوها» أجاب الكسيح، «ثمانية أشخاص من أهل الكهف، وهي في الحقيقة رياضة ممتازة إذا لعبت كما يجب».

ـ «سنقوم بها على خير وجه» قال الملك، وهو يحاول أن يرفع جسده مخفضاً جفنيه.

ـ «روعة هذه اللعبة»، أكمل هوب ـ فروغ، «تكمن في الخوف الذي توقعه في قلوب النساء».

ـ «رائع!» صرخ الملك ووزراؤه السبعة بصوت واحد.

ـ «سأعتبركم ثمانية من أهل الكهف» أكمل القزم، «اتركوا كل ذلك لي. إن التشابه سيكون كبيراً جداً، والمتنكرون سيعتبرونكم وحوشاً حقيقية ـ وسيدهشون، لا شك، بقدر ما سيرتعبون».

ـ «أوه، ما أجمل هذا» قال الملك. «هوب ـ فروغ: سأجعل منك رجلاً».

ـ «وأما الجنازير فهي بقصد القرقعة وزيادة الصخب. يفترض فيكم أن تكونوا قد هربتم جميعاً من حرّاسكم. إن جلالتكم لا يمكن أن تتصور الأثر الذي سيتركه هذا المشهد في حفلة تنكرية برؤية ثمانية من أهل الكهف ـ الوحوش البشرية التي تسكن الغابات حين يتصور الجميع أنهم وحوش حقيقية؛ وإذ تتدافعون بصراخ وحشي بين حشد من السيدات والسادة المتأدبين المتأنقين. إن المشهد سيكون شيئاً لا يمكن تصوره».

ـ «يجب أن يكون كذلك». قال الملك؛ ونهض الجلوس بسرعة (إذ إن الوقت كان يمر) لتنفيذ لعبة هوب ـ فروغ.

كانت طريقته في تهيئة أهل الكهف بسيطة جداً وكافية لتنفيذ مقاصده. تلك الحيوانات التي سيقلدونها كانت نادراً ما تظهر في أي جزء من العالم المتمدن. وبما أن الهيئات التي ابتكرها

القزم كانت تبدو متوحشة بما فيه الكفاية ومخيفة أكثر مما يكفي، فإن مطابقتها لشكل تلك الحيوانات اعتبرت تامة.

أولاً، صُرّ الملك ووزراؤه بقمصان ضيقة على شكل الجوارب الكبيرة؛ ثم دهنوا بالقطران. في هذه المرحلة من العملية اقترح أحدهم استعمال الريش؛ لكن هذا الاقتراح، رفضه القزم للحال لأنّ شعر أهل الكهف يمكن تمثيله بصورة واقعية أكثر باستعمال خيوط القنب. وهكذا فقد لف الثمانية بخيوط من القنب فوق طبقة القطران. ثم أحضر القزم جنزيراً طويلاً أدخله أولاً حول خصر الملك، وعقده، ثم حول شخص آخر من الوزراء وعقده كذلك، ثم حول كلٍّ من الباقين؛ وكان يعقده في كل مرة. عندما انتهت مرحلة التقييد بالجنازير وأصبح كل من المجموعة بعيداً عن الآخر بمسافة ثابتة، قيد الجميع بحيث أصبحوا يكونون حلقة؛ وكيما يظهر كل شيء على أنه طبيعي، أدخل هوب ـ فروغ بقية الجنزير بعد أن لفه طوقين من طرف الحلقة إلى الطرف الآخر على طريقة صيادي القرود هذه الأيام أو الشمبانزي في جزيرة بورنيو.

كان البهو الذي ستجري فيه الحفلة التنكرية عبارة عن قاعة مستديرة، عالية السقف جداً، يتخللها نور الشمس من كوة وحيدة في السقف. أما في الليل (وهو الوقت الذي صممت من أجله تلك القاعة) فإنها كانت تضاء بشمعدان كبير معلق بسلسلة تتدلى من الكوة الضوئية، ويمكن رفعه أو إنزاله بواسطة أثقال عُلقت بالطرف الآخر من السلسلة لتحفظ التوازن (ولكي لا تبدو بشكل غير لائق)، فإن الطرف الآخر من السلسلة كان يمتد عبر الكوة وفوق السطح.

أما ترتيب الغرفة فقد ترك أمره لتريبيتا، غير أنها كانت، بالنسبة لبعض الجزئيات، تتلقى على ما يظهر، الإرشادات من صديقها القزم. كان من الواجب إزالة الشمعدان من القاعة في تلك المناسبة، وفق اقتراحاته، ذلك أن نقاطه الشمعية (التي لم يكن إيقافها ممكناً في هذا الطقس الحار) تضر كثيراً بثياب الحضور الفخمة. ووزعت قوائم للمصابيح في محلات مختلفة من القاعة، ووضعت في اليد اليمنى من كل عامود على شكل امرأة تستند إلى الحائط مشاعل تخرج روائح ذكية ـ وكان عدد هذه الأعمدة حوالي الخمسين أو الستين.

وانتظر جماعة أهل الكهف، حسب نصيحة هوب ـ فروغ، حتى منتصف الليل (حين تمتلىء القاعة بالمتنكرين) ليدخلوا إلى القاعة. وحالما أنهت الساعة ضرباتها الإثنتي عشرة اندفع، أو بالأحرى، تدحرج المربوطون إلى داخل القاعة ككتلة واحدة ـ ذلك أن الجنازير جعلت بعضهم يتعثرون ويسقطون عند المدخل.

كان الهيجان في قلوب المتنكرين لا يوصف، ممَّا ملأ قلب الملك بالغبطة. كان أغلب الحضور يتصورون، كما كان متوقعاً أن المخلوقات المرعبة التي اقتحمت وحوش القاعة حقيقية من نوع ما، إذ لم ينجحوا بتصورهم كجماعة من أهل الكهف. أغمي على عدد كبير من النساء؛ ولو أن الملك لم يأمر مسبقاً بأن يجرد الجميع من أسلحتهم لكانت دعاباتهم قد انتهت

بالدم. وكما ينتظر فقد اندفع الجميع باتجاه الأبواب، لكن الملك كان قد أمر بأن تغلق الأبواب جميعها فور وصولهم، ووفقاً لاقتراحات القزم أبقيت المفاتيح معه.

وبينما كان الصخب في أشده، وكان كل متنكر يهتم فقط بتأمين نجاته (إذ في الحقيقة، كان هناك خطر حقيقي بسبب تهيج الجمهور) كانت السلسلة التي علق بها الشمعدان من قبل والتي كانت قد رفعت إلى الأعلى بعد إزالة الشمعدان، تتدلى تدريجياً حتى أصبح طرفها يعلو حوالي الثلاث أقدام عن الأرض.

بعد أن اندفع الملك ووزراؤه السبعة في أرجاء القاعة كلها، وجدوا أنفسهم في منتصفها، قرب السلسلة المتدلية. وكان القزم أثناء دورانهم في الغرفة يتعقبهم بهدوء محرضاً إياهم على زيادة الصخب وحين وقفوا كان قد اقترب هو من السلسلة وأمسك بها وأدخل صنارتها في المكان الذي يتقاطع به الجنزير الذي يشدّ الممثلين إلى بعضهم؛ وبسرعة البرق ارتفعت سلسلة الشمعدان لتجعل من الصعب على أحد أن يطال السنارة، وكنتيجة طبيعية لهذا ضاقت حلقة الثمانية وأصبح كل واحد منهم مشدوداً إلى الآخر وجهاً لوجه.

في هذا الوقت، كان المتنكرون قد استعادوا صوابهم إلى حد ما، من شدة المفاجأة، وأخذوا ينظرون إلى العملية كلها كدعابة يقصد منها أن تضفي على الجو بهجة معينة. ولهذا انطلقوا في قهقهات صاخبة وصيحات استحسان للمشهد.

ـ «اتركوهم لي!» صرخ هوب ـ فروغ الآن، وصوته الرفيع يعلو فوق أصوات الجميع. «اتركوهم لي. أتصور أنني أعرفهم لو أنني أستطيع فقط أن أراهم جيداً ـ بإمكاني أن أعرف من هم بسرعة».

وهنا قفز هوب ـ فروغ فوق رؤوس الحشد، ووصل إلى الحائط وبعد أن انتزع مشعلاً من إحدى قوائم المصابيح عاد إلى منتصف القاعة ـ وقفز بخفة القرد، فوق رأس الملك، ومن ثم تسلق بضع أقدام على السلسلة ـ وهو يمسك بالمشعل ليتفحص مجموعة الأشكال، وهو ما يزال يصرخ: «سأعرف من هم بسرعة!».

وبينما كان الجمع كله يتلوى من شدة الضحك، صفر المهرج صفيراً حاداً فارتفعت السلسلة فجأة إلى حوالي الثلاثين قدماً ـ وهي تسحب معها جماعة أهل الكهف المرعوبين وهم يتخبطون في الهواء بين الكوّة السقفية والأرض. وكان هوب ـ فروغ، وقد تعلق بالسلسلة وهي ترتفع، ما زال محتفظاً بمكانه محافظاً على نفس المسافة من الكتلة البشرية، واستمر (كما لو أن الأمر اعتيادي تماماً) في التلويح بمشعله صوبهم وكأنه يكتشف من يكونون على ضوء المشعل.

بلغت دهشة الحضور جميعاً درجة كبيرة من جراء ارتفاع السلسلة على هذا الشكل، حتى أن سكوناً رهيباً حيم على الحضور استمر لمدة تقارب الدقيقة. وقطع هذا السكون صوت صرير أسنان خشن أجش أوضح من ذلك الذي جذب انتباه الملك ووزرائه عندما رمى الأول بالخمر

في وجه تريبيتا. لكن هذه المرة، لم يكن هناك شك في مصدر الصوت الذي كان ينبعث من أسنان القزم الكبيرة والتي تبدو كمروحة يطبق على حديها القزم طحناً وزحزحة فيما كان الزبد يثور من فمه، وهو يحدق بغضب جنوني، بالهيئات المقلوبة للملك وصحبه السبعة.

ـ «آه، ها!» قال المهرج الثائر أخيراً، «آه، ها! باستطاعتي الآن أن أرى من يكون هؤلاء القوم!» وهنا، يتظاهر، بأنه يتفحص الملك عن قرب أكثر، قرَّب المشعل من أحزمة القنب التي كانت تلفهم، وسرعان ما انفجرت الكتلة بالنار وأصبحت شعلة ملتهبة، وفي أقل من نصف دقيقة، كان أهل الكهف يحترقون بشراسة، بين صراخ الحشد الذي كان يحدق إليهم من الأسفل برعب قتال دون أن يكون في قدرة أحد أن يقدم لأي منهم أدنى مساعدة.

بعد قليل ازداد اللهيب استعاراً، مما جعل المهرج يتسلق السلسلة إلى أعلى بعيداً عن النار. وبينما كان يقوم بهذه الحركة، غرق الحشد من تحته مرة أخرى في صمت مذهل. وقبض القزم على هذه السانحة، وتكلم مرة أخرى قائلاً:

«أرى الآن بوضوح ـ أي نوع من القوم هؤلاء، هم ملك عظيم ووزراؤه السبعة ـ ملك لا يرتجف له جفن وهو يضرب فتاة لا حول لها ولا قوة، ووزراؤه السبعة الذين يطربون لحماقته. أما أنا، فلست إلاّ هوب ـ فروغ، المهرج ـ وهذه هي آخر مشاهدي».

وبسبب سرعة التهاب القنب والقطران، لم يكد ينهي القزم خطابه القصير حتى بلغ العمل الانتقامي ختامه. وبقيت الكتل الثماني معلقة في سلاسلها؛ نتنة، سوداء، مخيفة، ولا يمكن التمييز بينها. ورمى القزم بمشعله فوقها وتسلق إلى السقف على مهل، واختفى من خلال الكوة السقفية.

يفترض أن تريبيتا كانت متمركزة على سطح البهو، وأنها كانت شريكة صديقها في انتقامه الناري، وأنهما تمكنا من الهرب معاً إلى بلادهما، إذ إن أياً منهما لم يظهر لأحد بعد ذلك.

النظارتان

اعتاد الناس أن يهزأوا مما يعرف «بالحب من أول نظرة». غير أن من يفكر في الأمر ملياً، خاصة من كان مرهف الحس، لا يمكنه أن يشك أبداً في حقيقة هذا النوع من الحب. ثم إن الاكتشافات الحديثة التي تسمى بالمغناطيسية الشخصية أو المغناطيسية ـ الجمالية قد أظهرت أن أشد العواطف البشرية وأصدقها هي تلك التي تنشأ في القلب كما لـو أنها تنشأ بفعـل تعاطف كهربائي. وبكلمة أخرى إن أقوى الروابط الروحية وأبقاها هي التي تنشأ بفعل لمحة يتبادلها المحبان. وهذه الاعترافات التي سأقدمها الآن، ستضيف دليلاً جديداً على صحة ما أقول.

تستدعي قصتي أن أذكر تفاصيل كثيرة. ما زلت شاباً لم أتجاوز سنتي الثانيـة والعشرين، وأنا، في الوقت الحاضر ادعى باسم شائع جداً هو سمبسون. قلت، في الوقت الحاضر، ذلك لأنني اكتسبت هذا الاسم في العام المـاضي عن طريق المحـاكم كيما أصبـح الوريث الشـرعي لنسيب ثري يدعى أدولف سمبسون. وقد اشترط ادولف هذا حين توفي أن أتخذ اسم عائلته إسماً شخصياً لي بينما في الواقع كان اسمي الشخصي هو نابوليون بونابارت.

قبلت اسم سمبسون بحسرة كبيرة، ذلك أنني كنت أعتز اعتزازاً بالغاً بالانتساب إلى حسب كريم هو ـ فرواسارت، وعن طريقه اتصل بنسب مؤلف «الحوادث» الخالد. وبمناسبة التحدث عن الأسماء يجدر بي أن أذكر بعض الصدف الغريبة التي جعلت كثيراً من أسماء أقاربي وأجدادي متشابهة إلى حد كبير. فوالدي من أهل باريس وكان يعرف باسم السيد فرواسارت، وزوجته أي أمي ـ التي تزوجها ولم تتجاوز الخامسة عشرة، كانت تدعى الآنسة كرواسارت. وهي الإبنة الكبرى للمتمول الكبير المعروف باسم كرواسارت الذي تزوج بدوره، فتاة صغيرة السنّ في عامها السادس عشر وهي ابنة السيد فيكتور فواسارت. وهذا السيد فواسارت كان هو أيضاً قد تزوج فتاة صغيرة وذات اسم مشابه تدعى الآنسة مواسارت، وأم هذه الأخيرة تزوجت كذلك عن صغر أي

في سنها الرابعة عشرة، وأعني بها المدام مواسارت، وهذه الزيجات من فتيات صغار السن عادية في فرنسا. الأساسي في الأمر أن مواسارت وفواسارت وكرواسارت وفرواسارت كانوا يتحدرون من نسب واحد. جما أنا، فقد ذكرت أن اسمي أصبح سمبسون، ولكنني لم أذكر أنني تقبلت هذا الإسم على مضض وإنني فكرت كثيراً برفض الإرث ما دام مرتبطاً بهذا الشرط الغريب.

فيما يتعلق بالمزايا الشخصية اعتقد أنني أملك منها الكثير. فأنا ذو تركيب جسمي جيد، ولي وجه ذو قسمات حسنة، يتفق الكثيرون كما اعتقد على أنه وجه جميل. وأما قامتي فهي خمس أقدام وأحد عشر إنشاً. وشعري أسود مجعَّد، وأنفي متسق وجميل لا بأس بمنظره، وعيناي كبيرتان رماديتا اللون. ومع أنهما ضعيفتا النظر إلى درجة مشينة، فإنّ أحداً لا يمكنه من ناحية الشكل، أن يأخذ عليها شيئاً. كان هذا الضعف في عيني قد سبب لي بحد ذاته انزعاجاً بالغاً. وقد التجأت إلى كل علاج يخطر على البال بقصد مداراته، باستثناء النظارة. فأنا لا أعرف شيئاً يشوه منظر شابٍ، ويطبعه بطابع الوقار الكاذب ويجعله يظهر أكبر من سنة أكثر من النظارة. أضف إلى ذلك أنَّ للنظارة سيئةً أخرى وهي أنها تسِمُ من يستعملها بالتصنع وهذه من الصفات التي كنت أتجنبها منذ الصغر. اكتفي بهذا القدر من التفصيل في أكثر مزاياي الشكلية التي ليست لها أهمية بالغة، لكن يجب أن أضيف أنني ذو طبع سريع الانفعال، صريح ومندفع وانظر إلى الأمور بحماسة فائقة. هذا بالإضافة إلى ميزة أخرى وهي أنني في كل أيامي كنت وما أزال مولعاً بالنساء.

في إحدى ليالي الشتاء الماضي كنت أجلس بصحبة أحد أصدقائي، ويدعى تالبوت، في مقصورة بدار الأوبرا. كان المكان مكتظاً بالحضور إذ إن إدارة الدار قد قامت بدعاية كبيرة لتلك الحفلة؛ وكنا محظوظين، أنا وصديقي، إذ وصلنا باكراً وتمكنا من أن نشق طريقنا بين الحشود ونحتل المقعدين اللذين كنا قد حجزناهما مسبقاً.

كان صديقي مولعاً بالموسيقى، لهذا بقي حوالي الساعتين مسمر العينين في المسرح. في هذه الأثناء رحت أتلهى بالتفرج على الحضور الذين كانوا في غالبيتهم، من نخبة البلدة، وبعد أن أشبعت فضولي وانتهيت من التفرج على الناس اتجهت بأنظاري إلى المسرح، لكن لفتت نظري، وأنا أستدير بعينيّ إلى المسرح امرأة تجلس في إحدى المقصورات التي فاتتني مراقبتها.

لو عشت ألف سنة لما تمكنت أن أنسى المشاعر الحادة التي انتابتني حين رأيت تلك المرأة. كانت أحلى وأجمل أنثى رأيتها في حياتي. كان وجهها منصباً بكليته نحو المسرح حتى أنني، لبضع دقائق لم أتمكن من أن أراه بكليته ـ غير أن القامة والشكل كانا شيئين إلّهيين؛ أقول إلّهيين إذ لا أجد كلمة أخرى يمكنها أن تعبر عما أعني، وحتى هذه الكلمة تبدو كأنها تقصر عما أريد قوله.

كان سحر الجمال النسوي ـ سحر الرشاقة في المرأة ـ أمراً ليس باستطاعتي أن أصمد أمامه. وهنا في تلك المقصورة، كان الجمال أمامي ماثلاً، الجمال المثالي الذي يجسد أحلامي ورؤاي الجامحة. كانت القامة، التي استطعت رؤيتها بكمالها في المقصورة، تبدو أطول من

المتوسط قليلاً بحيث تقرب من الكمال. أما امتلاؤها وانحناؤها وثناياها فكانت ذات روعة تامة. وكان الرأس الذي لم يكن يبدو لي منه، سوى مؤخرته، ينافس أجمل الرؤوس التي عبرت لنا عنها الروح الإغريقية، وكان مغطى ـ والأصح أن يقال كان مكشوفاً ـ بقبعة أنيقة استعادت لمخيلتي إحدى لوحات أبّوليوس. والذراع اليمنى تتدلى من حافة المقصورة برشاقة سحرت لبي، والقسم الأعلى منها مغطى بذلك النوع من الأكمام الفضفاضة المشقوقة الذي ينسدل تحت المرفق، وتحته كان كم آخر من النسيج الناعم المحبوك حبكاً دقيقاً ينتهي بشريط جميل ترك فوق ظاهر اليد بحيث تبدو الأصابع الدقيقة فقط، وفي إحدى الأصابع يلمع خاتم ماسي تأكد لي على الفور أنه ذو قيمة عالية جداً. وكان المعصم الجميل مطوقاً بسوار مطعَّم بكثير من الجواهر الرائعة ـ كل هذا يدلّ بما لا يقبل الشك على ثراء بالغ وعلى براعةٍ في الأناقة وذوق رفيع.

رحت أحدق في هذا المشهد الملكي لمدة لا تقل عن النصف ساعة كما لو أنني استحلت فجأة إلى حجر، وفي هذه الأثناء انتابني شعور صارخ، شعور بكل ما في الشعور من معنى، بصحة كل ما قيل أو أكثر حول «الحب من أول نظرة». كانت المشاعر التي انتابتني شيئاً لم أعهده أبداً من قبل حتى ازاء أجمل النساءوأكثرهن شهرة. إن شيئاً من تعاطف الروح مع الروح، شيئاً لا يمكن وصفه بغير التعابير المغناطيسية، كان يشدّ ليس عيني فقط، بل جميع قواي الفكرية والشعورية إلى ذلك الشكل الحبيب أمامي. رأيت ـ لا بل شعرت ـ شعرت أنني واقع في الحب بشكل عميق، جنوني، بشكل لا يرد أبداً، حتى قبل أن أرى وجه الشخص مصدر جميع هذه الانفعالات. كان هيامي شديداً، يتأكلني بنهم، لدرجة أنني أعتقد أنه لو تمت لي رؤية الوجه، وبدا لي أنه وجه اعتيادي ليس على درجة من الجمال، لما كان أصاب ذلك الهيام أي هوان. إن طبيعة الحب، عندما يكون حباً حقيقياً وحيداً ـ الحب من النظرة الأولى ـ هي غير اعتيادية حتى أنها في الواقع لا تتوقف كثيراً على الحالات الخارجية التي تبدو كأنها تتحكم بها وتضبطها.

بينما كنت غارقاً في هذه الرؤية الحبيبة قامت بين الحضور جلبة مفاجئة جعلتها تميل برأسها قليلاً باتجاهي، فتمكنت من رؤية ملامح الوجه جانبياً. كان جماله يفوق حدّ تصوّراتي وتقديري ـ لكن كان هنالك شيء ما في تلك الملامح أصابني بنوع من خيبة الأمل يصعب تحديد أسبابها. قلت «خيبة أمل» مع أن هذه الكلمة ليست مناسبة تماماً. هدأت عواطفي بسرعة واستقرت، كأنما اكتفت بدل التجاوب أن تحظى بشيء من الاطمئنان العاطفي الثابت. لعل هذا الشعور نشأ بسبب سمات الوجه المتشح بشيء من وقار الأمومة، غير أنني توصلت بشكل مفاجىء إلى أن هذا الشعور لا يمكن أن ينشأ بكليته بسبب هذا وحسب. كان هناك شيء آخر ـ غرابة لا أستطيع فهم تفاصيلها ـ نوع من التعبير في الوجه والسلوك ادخل في روعي شيئاً من القلق وفي الوقت نفسه أثار اهتمامي لدرجة كبيرة. في الواقع كنت أمر في تلك الحالة الذهنية التي تدفع بأي شاب إلى الإقدام على أي عمل مغامر وتقبّل نتائج هذا العمل. لو كانت تلك السيدة وحدها لما ترددت في أن أدخل مقصورتها وأتكلّم

معها مهما تكن النتائج، لكن ـ لحسن الحظ ـ كان برفقتها شخصان ـ رجل، وامرأة أخرى رائعة الجمال تبدو أصغر منها بسنوات قليلة.

رحت أتدبر بيني وبين نفسي عدة طرق تمكنني من التعرف إلى السيدة الكبيرة؛ أو على الأقل تمكنني، في الوقت الحاضر، من أن أراها بوضوح أكثر. لولا شدة الزحام لحاولت أن أنقل مكاني إلى موقع آخر بجوارها، كما أن قواعد الذوق العام التي نشأت مؤخراً قد جعلت استعمال نظارات الأوبرا أمراً مستهجناً ـ هذا على افتراض أنه كان معي نظارات، لكن على أية حال، لم يكن ذلك متوفراً لدي، ولهذا تهالكت يائساً.

بعد فترة قصيرة من الوقت فكرت أن أستجير بصديقي. لهذا قلت له.

ـ «تالبوت، أعرني نظارتك التي تستعملها للمسرح، لا شك أن معك واحدة».

ـ «نظارة أوبرا ـ كلا، وما الذي يجعلك تعتقد أنني استعمل نظارة في دار الأوبرا؟» ثم استدار إلى المسرح.

ـ «لكن يا تالبوت» قلت مكملاً بعد أن جذبته من كمه، «استمع إليّ، أرجوك، هل ترى تلك المقصورة، هناك؟ هل رأيت في حياتك أجمل من تلك المرأة؟».

ـ «إنها رائعة الجمال بدون شك» أجاب تالبوت.

ـ «ترى من تكون؟».

ـ «يا إلهي! ألا تعرف من هي؟ إذا كنت تجهل يعني أنك لست من الوسط الاجتماعي. إنها مدام لالاند التي يعرفها الجميع ـ هي مثال الجمال الأعلى حالياً ومحور اهتمام البلدة بكاملها، وهي ثرية جداً أيضاً، وأرملة ـ وقد وصل مؤخراً خطيب لها من باريس».

ـ «هل تعرفها؟».
ـ «نعم ـ لقد سبق لي وتشرفت بذلك».
ـ «هل تقدمني إليها؟».
ـ «بالتأكيد، وببالغ السرور، متى ترغب بذلك؟».
ـ «غداً، الساعة الواحدة. سألاقيك في المكان ـ ب.».
ـ «حسناً، والآن أحبس لسانك إن كنت تقدر».

كنت مجبراً، بخصوص حبس اللسان، على الأخذ بنصيحة تالبوت. إذ إنه أولى أذناً صمّاء لكل التعليقات أو الأسئلة التي ألقيتها عليه بعد ذلك، وانصب بكليته بقية المساء يراقب ما يجري على المسرح.

خلال ذلك بقيت عيناي عالقتين بمدام لالاند، وبعد وقت حظيت بلمحة تمكنت أثناءها من أن أشاهد وجهها بكامله. كانت رائعة الجمال؛ لم يكن هناك مجال للشك في ذلك، إذ إنّ

قلبي قد سبق وأكده لي، غير أن ذلك الشيء الذي استعصى عليَّ فهمه بقي يكدّرني. وأخيراً لم أجد مفراً من أن استخلص، بيني وبين نفسي، أن أحاسيسي قد أصابها ولا شك شيء من الكمد والأسى، أو بالأحرى شيء من التعب ينزع عن معالم الجمال والشباب تألقها ويضفي عليها شيئاً من المهابة والحنوّ. هكذا أضفت تلك الأفكار على الموقف اهتماماً وقلقاً لا يـوصف بالنسبة لما اتّصف به من طبيعة حماسية رومنطيقية.

بينما كنت التهم بعينيّ المنظر الذي تملكني شعرت أن السيدة أحسّت فجأة باهتمامي بها. ومع هذا لم أتمكن من أن أغض طرفي ولو لبرهة، إذ كنت مأخوذاً كلياً بها. وحين مالت بوجهها جانباً تمكنت أن أرى، مرة أخرى، الثنايا الخلفية لرأسها الجميل.

استدارت بوجهها تدريجياً نحوي كما لو أن شيئاً داخلياً قوياً يدفعها بالحاح لتعرف إذا كنت لا أزال أنظر إليها، والتقت عيناها بعينيّ المحدقتين، ولم يدم ذلك أكثر من لحظة اخفضت السيدة عينيها بعدها، وبدا لي كأنَّ احمراراً شديداً قد صبغ وجنتيها. وكم كانت دهشتي بالغة، حين لم تكتف بالإستدارة مرة أخرى صـوبي، بل وأكـثر من ذلك، حين أخذت من زنـارها نـظارتين ورفعتهما، ثم ثبتتهما باتجاهي وأخذت تحدق فيَّ باهتمام بالغ وتصميم، طيلة عدة دقائق.

لو أن صاعقة سقطت بين قدمي لمـا بلغت دهشتي ما بلغتـه آنذاك ـ أقـول دهشة، إذ لم يساورني أي انزعاج أو تكدير، هذا بالرغم من أن عملاً جريئاً كذلك لو قامت به أيـة امرأة، لكان يؤدي إلى انزعاج دون شك، لكنها قامت بذلك العمل بكل هدوء، وببرودة، واحتشام، بشكل يدل على تربية أصيلة وثبات في النفس؛ إنها، باختصار، لم تفسح مجالاً بـالطريقـة التي أتبعتها، لأي شعور بالفظاظة أو قلة الأدب، ولهذا فإن مشاعـري قد التهبت مجـدداً بمزيـد من الإعجاب والدهشة.

لاحظت أنها في المرة الأولى عندما رفعت نظارتيها، اكتفت بالنظر إليّ بسرعة؛ لكنها فيما كانت تعيد النظارتين إلى مكانهما رفعتهما مجدداً وبحركة مفاجئة وسـريعة إلى عينيهـا وكأنمـا تداعى إلى ذهنها خاطر جديد، وعندها ثبتتهما عليّ وأطالت التحديق في طيلة دقائق عدَّة ـ طيلة خمس دقائق على أقل تقدير.

استرعى هذا العمل غير المألوف في المسارح الأميركية، انتباه الكثيرين من الحضور وسبّب حركة ودمدمة في القاعة أربكتني للحظات، لكنها على ما ظهر لي، لم تؤثر في شيء على مسلك مدام لالاند.

بعد أن أشبعت مدام لالاند فضولهـا ـ إذا كانت هـذه التسمية ممكنـة ـ رفعت نظارتيهـا وانصرفت بهدوء إلى المسرح، وبدا لي وجهها جزئيًّا. وتابعت مراقبتها دون كلل رغم أني أعرف عدم لياقة ذلك، ولم يطل الوقت حتى أخذ رأسها يميل بطيئاً باتجاهي حتى لم يعد عندي شك بأن السيدة وهي تتظاهر بمتابعة المسرح كانت بالحقيقة تراقبني باهتمام. لا حاجة بي للقول كم كان

وقع عمل كهذا ومن سيدة رائعة الجمال، كبيراً على ذهني السريع التهيج.

بعد أن مضى على تفحصها لي مدة لا تقل عن ربع الساعة، استدارت السيدة، مصدر هيامي، إلى الرجل الجالس بقربها وأخذت تبادله بعض الكلمات التي لم أشك في أنها كانت تتعلق بي خاصة بعد أن راح كلا الشخصين يرمقاني بنظراتها بين الفينة والفينة.

وبعد انتهائها من الحديث استدارت مدام لالاند بوجهها مرة ثانية إلى المسرح ولبضع دقائق ظهرت وكأنها مأخوذة بما يجري عليه. بعد انتهاء هذه الفترة، أصابني تهيج حاد كالحمى حين رأيتها تأخذ نظارتيها مرة ثانية وتتطلع صوبي بكل جرأة كما فعلت من قبل، وبدون أي اكتراث لتذمر الحضور ودمدمتهم، ثم أخذت تتفحصني بطريقةٍ واثقة وبكل دقة ومهابة مما أفرحني كثيراً.

هذا المسلك غير العادي ألقاني بين براثن حمى من التهيج - وفي فوارة من مشاعر الحب. وبدل أن يقلقني ولو قليلاً شحن أعصابي بكثير من الجرأة. في هذه الدوامة من الهيام العارم نسيت كل شيء ما عدا حضور تلك المرأة وروعة الحب الذي غمر كياني بكامله. ورحت أترقب الفرصة، حتى إذا ما خيّل إليَّ أن جميع الناس مستغرقون في الأوبرا، وتمكنت من أن التقط نظرات مدام لالاند لبرهة عابرة قمت بانحناءة خفيفة من رأسي لم أشك، رغم ضعفها، بأنها أثرت فيها.

وامتلأ وجهها بحمرة الخجل - ثم حولت عينيها عني وأخذت تجيل النظر حولها بحذر وبطء لتستطلع، على ما يظهر، ما إذا كان تصرفي الجريء قد أثار انتباه شخصٍ ما، ثم مالت صوب الرجل الذي يجالسها.

شعرت بفداحة الخطأ الذي ارتكبته، وأول ما خطر لي هو أن يفتضح أمرنا بسرعة، وطافت أمام عيني، فجأة، صورة فوهات المسدسات ترتفع في الغد المبكر. لكن سرعان ما تبدّدت مخاوفي عندما رأيت السيدة تمد يدها إلى مرافقها بمنهاج المسرحية دون أن تتكلم. وبإمكان القارىء أن يتصور نوعاً ما شدة دهشتي - دهشتي العميقة جداً - حيرة قلبي وروحي، حين تطلعت السيدة مجدداً صوبي بعد أن مرت برهة قصيرة، وسمحت لعينيها البراقتين أن تلتقيا بعيني، ثم حركت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة تكشف عن خيط براق من الأسنان البيض - حركت رأسها بانحناءتين خفيفتين، لا ريب أنهما دليل على الموافقة.

لا جدوى من الاستمرار في وصف فرحتي - لا بل نشوة قلبي التي لا حد لها. إذا كان هناك أي رجل أصيب بالجنون بسبب فرحة الحب، فلا شك أنني كنت أنا هو ذلك الرجل في تلك البرهة. لقد وقعت في الحب. إنه حبي الأول - وهكذا أسلمت نفسي للحب. كان حبّاً بأسمى معانيه، لا يوصف، كان «حباً من النظرة الأولى»، ومن النظرة الأولى أيضاً وقع حبي في مكانه، بل إنّ حبي قد استجيب أيضاً، «من النظرة الأولى».

أقول انني حظيت بالاستجابة، إذ كيف ولأي سبب يمكنني أن أشك بالأمر ولو لبرهة. إذ ماذا يمكن أن يعني تصرف مدام لالاند هذا ـ هذه السيدة الرائعة الجمال ـ الوافرة الثروة ـ العالية الثقافة ـ سليلة الأصل النبيل ـ صاحبة المركز المرموق في المجتمع ـ النبيلة في كل ناحية يمكن أن تخطر ببال ـ ماذا يمكن أن يعني هذا التصرف من مدام لالاند غير الاستجابة للحب؟ نعم، لقد أحبتني ـ لقد استجابت لحبي الكبير؛ هذا الحب المندفع غير المتردد الضارب عرض الحائط بكل تقاليد السلوك. وبينما كنت في هذه التخيلات، قطع عليَّ أفكاري انسدال الستار وانتهاء الأوبرا. ونهض الحضور، وقامت في القاعة جلبة اعتيادية تقوم بعد انتهاء كل حفلة. تركت تالبوت بدون استئذان، وحاولت، بكل ما أوتيت من قوة، أن أشق طريقي إلى مكان أقرب من مدام لالاند. لكن، بعد أن فشلت في ذلك بسبب شدة الازدحام لم يبقَ أمامي إلاَّ أن أوجه خطاي نحو منزلي معزياً نفسي عن فشلي حتى في لمس طرف ردائها، بأنني سأتعرف عليها رسمياً بواسطة تالبوت في الغد.

جاء الغد أخيراً ـ أي أن نهاراً آخر بزغت شمسه بعد ليل طويل من القلق. ثم أخذت الساعة التي تفصل بين بزوغ الفجر وبين الواحدة موعد لقائنا تزحف زحفاً بطيئاً كالسلحفاة. لكن لكل شيء نهاية، كما يُقال، وحان الموعد المحدد أخيراً. وحين دقت الساعة الواحدة كنت أقفز عتبة المكان المعين وأسأل عن تالبوت.

ـ «ليس موجوداً» قال خادمه.

ـ «ليس موجوداً؟» أجبت بدهشة كبيرة ـ «استمع إليّ جيداً يا هذا. إنّ الأمر لا يعقل أن يكون على هذه الصورة. إن تالبوت لا يمكن أن يكون غير موجود، ماذا تعني بذلك؟».

ـ «لا شيء يا سيدي، فقط أريد أن أقول إن السيد تالبوت غير موجود. هذا كل ما في الأمر؛ ذهب إلى ـ س توّاً بعد الفطور قائلاً إنه سيتأخر حوالي الأسبوع».

جمدت في مكاني تتأكلني نيران الحنق. حاولت أن أجيب، لكن لساني لم يطاوعني. أخيراً استدرت على عقبي ولساني يرتجف بالسباب المكبوت على تالبوت وكل سلالته. فكرت في نفسي أن صديقي قد نسي موعده معي ـ نسيه حالما اتفقنا على الموعد، إذ إنه لم يكن في حياته دقيقاً في مواعيده. وحيث أنه لم تكن لي حيلة في الأمر، رحت أهدّىء من ثورتي مجرجراً قدمي في الشوارع مستفسراً عن مدام لالاند من كل شخص أعرفه في الطريق. وجدت أن الكثيرين يعرفونها، أو بالأحرى قد سمعوا بها، وأن بعضهم يعرفها بالنظر فقط ـ غير أنني لم أجد إلاَّ قليلين جداً يعرفونها معرفة شخصية، إذ لم يكن قد مرَّ على وجودها في البلدة غير أسابيع. ولهذا فإن أولئك القلائل الذين يعرفونها لا يستطيعون، أو لا يريدون أن يعرفوني عليها باعتبار أنهم ما زالوا غرباء في علاقاتهم معها، وبينما كنت في تلك الحال من اليأس أتحدث مع ثلاثة أشخاص أعرفهم عن موضوع اهتمامي، حدث أن مدام لالاند مرت بنفسها.

- «يا إلهي، ها هي السيدة».
- «ما أجملها!»، أجاب آخر.
- «إنها ملاك على الأرض». قال الثالث.

ونظرت، فإذا بعربة مكشوفة تقترب صوبنا وتمر في الشارع ببطء وفي داخلها كانت تجلس السيدة وبرفقتها السيدة الصغرى التي كانت معها في دار الأوبرا.

- «ومزافقتها أيضاً ترتدي ثياباً جميلة جداً». قال أحد الثلاثة.
- «شيء مدهش» قال الثاني. «ما تزال تبدو كما هي. إن التبرج يصنع العجائب. أقسم أنها تبدو أحسن حالاً مما كانت عليه منذ خمس سنوات في باريس، إنها ما تزال امرأة جميلة - ألا توافق على ذلك يا فرواسارت؟ أعني سمبسون؟».

- «نعم» قلت، ولم لا تكون. لكنها بالنسبة لرفيقتها تبدو كخفاش الليل مقابل نجمة الصبح».

- «ها! ها! ها!، يا لك من رجل يا سمبسون. إن لديك حاسة غريبة للاكتشاف، أعني اكتشافات فريدة من نوعها». وتوقفنا عن الحديث عند هذا الحد بينما راح أحد الثلاثة يدمدم أغنية...

خلال ذلك حدث أمر أدخل إلى نفسي بعض العزاء رغم أنه كان بمثابة الزيت يصب على نار هيامي. إذ حينما مرت عربة مدام لالاند بجوارنا ونحن نتحدث لاحظت أنها عرفتني من بين الجميع؛ وأكثر من هذا، فقد انعمت عليَّ بابتسامة أروع من ابتسامات ملائكة السماء.

كان علي أن أقطع الأمل نهائياً فيما يتعلق بالتعرف إليها بواسطة شخص يقدمني إليها رسمياً، أو على الأقل أن أقطعه إلى أن يفطن تالبوت ويرى من المناسب أن يعود من سفرته. وإلى أن يحدث ذلك جهدت في ألاَّ أترك أي مكان يمكن أن تطأه قدماها دون أن أذهب إليه عدة مرات في اليوم. وبعد وقت طويل، وفي المكان الذي صادفتها فيه لأول مرة - في المسرح - حظيت بنعمة لقياها مرة ثانية، كما حظيت بتبادل النظرات الخاطفة معها؛ وكان قد مرَّ حوالي الأسبوعين على لقائنا الأول. وكنت خلال هذه المدة اذهب إلى مكان إقامة تالبوت وأسأل عنه، وكل يوم كنت ألقى الجواب الأبدي، الذي يلقيني في جحيم الغضب - «لم يَعدْ بعد».

ذلك المساء الذي لقيتها فيه، كنت، لهذه الأسباب، قد شارفت حد الجنون. كنت قد علمت أن مدام لالاند هي باريسية وأنها وصلت من هناك مؤخراً. أفلا يعقل أن تعود إلى باريس فجأة قبل أن يعود صديقي العزيز تالبوت؟ أولا يعقل أن أفقدها إلى الأبد؟ كانت هذه الأفكار ترعبني. وإذ كان مصير سعادتي ومستقبلي بكامله متوقفاً على النتائج قررت أن أتصرَّف برجولة. فحالما انتهت المسرحية رحت أتتبع السيدة إلى مكان إقامتها، ثم سجلت عنوانها عندي؛ وفي الصباح التالي أرسلت إليها رسالة طويلة وأنيقة حملتها كل ما في قلبي من حب صارخ.

تكلمت في تلك الرسالة بحرية وجرأة. تكلمت بدافع حب قوي. لم أخف شيئاً، حتى ولا نقاط الضعف في شخصيتي. وأشرت إلى الطريقة الرومنطيقية التي تمَّ بها لقاؤنا الأول صدفة، وحتى إلى النظرات التي تبادلناها آنذاك. وتجرأت حتى على القول إنني واثق من حبها لي، واتخذت ذلك بالإضافة إلى ما أشعر به من جهتي، كعذرين على تصرفي وكتابتي إليها بهذا الشكل غير المألوف، وأضفت إلى ذلك عذراً آخر هو أنني كنت أخاف أن تترك البلدة قبل أن تسنح الفرصة لأحظى بمقابلتها رسمياً. وختمت رسالتي بأقصى ما يمكن لرسالة غرام أن تتحمل من شجون، واصفاً حالتي، ومكانتي في هذا العالم، ومقدماً قلبي ويدي على أمل الزواج.

وانتظرت الجواب بكل آلام الانتظار وحُرَقه. وبعد مرور ما بدا وكأنه قرن من الزمن، جاء الجواب.

نعم، لقد جاء الجواب، ومع أن هذا يبدو أمراً بالغ الرومنطيقية فقد تسلمت، بالفعل، جواباً من مدام لالاند ـ السيدة الرائعة الجمال، الثرية، المعبودة لالاند؛ إنّ عينيها، عينيها الجميلتين لم تخونا قلبها النبيل. وهي كامرأة فرنسية حقيقية استجابت لنداء قلبها ولنوازع روحها الكريمة، ضاربة بتقاليد العالم الجامدة عرض الحائط. إنها لم تهزأ من كلماتي، ولم تغلق على نفسها باب الصمت. إنها لم ترجع رسالتي مغلقة، وإنما أجابتني برسالة خطتها بأنامل يدها اللطيفة، وهذه هي كلماتها:

«سيعذرني المسيو سمبسون لجهلي التعبير بطلاقة عن أفكاري بلغته الجميلة. وصلت هذا البلد مؤخراً ولم تسمح لي الظروف بدراستها بعد.

بعد هذا الاعتذار عن طريقتي في الكتابة ـ لا أجد مفراً من القول ـ واأسفاه!! إن قلب المسيو سمبسون قد أعطاه الخبر اليقين. وهل عليّ أن أزيد على هذا. واأسفاه. ليس باستطاعتي أن أتكلم أكثر».

«أوجيني لالاند»

قبّلت هذه الرسالة الطافحة بروح الحب مليون مرة، وبنيت على كلماتها آلاف المشاريع والمغامرات التي غابت عن ذاكرتي في الوقت الحاضر. تالبوت هذا لم يعد بعد. واأسفاه، هل يقدر أن يتصور ولو جزءاً بسيطاً من الآلام الهائلة التي يسببها غيابه لروحي؟ إنه لو قدر لما شككت بأنه يطير لا عانتي. لكن، مهما تكن الحال، فإنه لم يعد بعد. كتبت إليه، وأجاب. قال إنه مضطر للتأخر بسبب أشغال ملحة، وأنه سيعود قريباً، ورجاني أن لا أكون كثير اللجاجة، وأن أصبر، وأن أستعين بالقراءات المسلية المعزية، وأن أستجير بالفلسفة. هذا المجنون! إذا كان لا يقدر أن يأتي بنفسه فلماذا، يا إلهي، لم يرسل لي على الأقل كتاب تعريف؟ كتبت إليه مرة ثانية راجياً منه أن يرسل لي كتاب تعريف للحال، لكن رسالتي إليه عادت وعلى ظهرها كلمات كتبها

خادمه بقلم رصاص، ذلك الخادم! فلقد لحق بسيده حيث هو، وكانت الكلمات على ظهر الرسالة كما يلي:

«غادر المكان يوم أمس إلى جهة مجهولة. لم يقل إلى أين، ولا متى يعود. لهذا رأيت أن أفضل شيء هو إرجاع الرسالة إليك بعد معرفتي لخط يدك لعلمي أنك على عجلة كالمعتاد».

المخلص ستبس

ليس بي حاجة للقول إنني بعد أن تسلمت رسالتي المرتجعة أنزلت بالسيد وبخادمه أشنع اللعنات وصببت عليهما جام غضبي؛ لكن لم يكن من فائدة في الحنق، ولا من تعزية في التذمر.

بقي لي مخرج واحد يمكنني اللجوء إليه، وقد سبق لي أن لجأت إليه، وقررت الآن أن أستخدمه حتى النهاية. فأي خروج عن المألوف، أكثر من المراسلة التي جرت بيني وبين مدام لالاند يمكنني أن أرتكبه وتعتبره هي غير لائق؟ منذ تلك المراسلة أخذت أراقب منزلها، واكتشفت أنها كانت قد اعتادت الخروج كل يوم بعد غروب الشمس في نزهة إلى الحدائق العامة المجاورة لمنزلها برفقة خادم لها. وهناك بين ظلال الأشجار الجميلة، وفي إحدى أمسيات الصيف اللطيفة الهواء، ترقبت محبوبتي وتبادلت معها الحديث.

تقدمت بكل جرأة من مدم لالاند لكي أتخلص من وجود الخادم، وبدأت الحديث معها كصديق قديم. وكأنها عرفت مقصدي، كسيدة باريسية حقة، فمدّت إليّ يدها الساحرة لتصافحني. وبعد أن أسرع الخادم في الاختفاء ابتدأنا فوراً بتفريغ قلبين مفعمين بلواعج الهوى. وقد بقينا في الحديث طويلاً.

وبما أن مدام لالاند كانت تجهل تكلم الإنكليزية بطلاقة أكثر من جهلها الكتابة بها، فقد جرى حديثنا باللغة الفرنسية. وبهذه اللغة الملائمة طبيعياً لتعابير الحب، أطلقت العنان لنوازع روحي، وبكل ما أمتلك من فصاحة رحت أرجوها بأن توافق على زواجنا بسرعة.

أمام هذه اللجاجة، ابتسمت، وأخذت تشير إلى ضرورة التروّي ـ هذه الفزّاعة التي تحجب النعمة عن الإنسان حتى يفوت أوانها، وقالت إنني كنت متسرعاً حين أعلمت أصدقائي برغبتي بالتعرف إليها، ولهذا أصبح من الضروري أن نتظاهر أمام الناس بأن معرفتنا ليست قديمة كثيراً. وحين أشارت إلى أن تعارفنا هو بالفعل حديث العهد، خيِّل إليّ أن حمرة قد علت وجنتيها. ولهذا فإن زواجنا السريع لن يكون لائقاً ـ سيكون خارجاً عن المألوف، ومبعثاً لتقولات كثيرة. كانت تقدم كل هذه الاعتراضات بلهجة بسيطة تسحر القلب، وفي الوقت نفسه تدخل إلى النفس شيئاً من الحزن، ويجب أن أقول، شيئاً من القناعة كذلك. رجتني أن أتذكر بأنني في الحقيقة لا أعرف من تكون ـ وما هي حالتها، وعلاقاتها، وارتباطاتها ومركزها الاجتماعي. ورجتني بكلمات تمتزج بها تأوّهات الحسرة أن أعيد النظر في طلب الزواج قائلة إن حبي قد يكون نزوة هوى عابرة، أو اختراع مخيلة خصبة، وقد يكون وليد الخيال أكثر منه وليد

القلب ـ كانت تبدي هذه الملاحظات بينما ظلال المساء اللطيف تتجمع وتلفنا بعتمة متزايدة ـ ثم أتبعت أقوالها بلمسة خفيفة من يدها هدمت فيها كل ما بنته من قصور الحجج.

أجبتها بأحسن ما أستطيع ـ أعني، كما يمكن العاشق الحقيقي أن يفعل. تكلمت مطولاً وبإصرار عن حبي وعبادتي لها، وعن هيامي وعن جمالها الخارق، وعن إعجابي الذي لا حد له. وخلصت إلى الإشارة بأن طريق الحب مليء بالأشواك وأنّ الحب الحقيقي لا يمكن أن ينتهي إلى ما يريد بسهولة، وأنه لهذا علينا اختصار طريق الأشواك بالزواج.

هذه الحجة جعلتها تلين أخيراً، قائلة إن هناك عقبة باقية توحي بأنني لم أُولها اهتماماً كافياً. وهذه نقطة حساسة يصعب على المرأة أن تتكلم عنها، ولكنها قالت أنها ستفعل ذلك رغم مشاعرها، وأن أي تضحية تتعلق بذلك تسعدها. هذه النقطة هي ناحية السن. أكنت أعلم، علماً تاماً، بالفرق بين عمرينا؟ وهل كنت أعلم أن عمر الرجل يجب أن يزيد عن عمر المرأة ببضع سنين، وأن الناس لا يرون مانعاً في أن يزيد عمر الرجل عن عمر المرأة بخمسة عشر أو حتى عشرين سنة، وأنها على أية حال، كانت دائماً على يقين بأن عمر المرأة يجب أن لا يفوق عمر الرجل؟ إن فرقاً كهذا، غالباً ما يؤدي ويا للأسف! ـ إلى حياة غير سعيدة. كانت تعرف أنني لم أتجاوز الثانية والعشرين، وإنني في الغالب أجهل أنها تكبرني بسنوات كثيرة.

كانت في هذه الأقوال كلها نبيلة القلب، رفيعة الأسلوب، مما سحرني، وأحكم قيود الحب حول قلبي. لهذا لم أتمكن من أن أكبت مشاعري، وصرخت، «يا أوجيني الحبيبة ـ ما كل هذا الذي تتحدثين عنه؟ أعلم أنك تكبرينني ببضع سنوات لكن ما أهمية ذلك؟ إنّ تقاليد العالم مجموعة من المعتقدات البالية. وماذا يمكن أن تعني للمحبين مثلنا السنة أكثر من ساعة واحدة؟ تقولين إنني في الثانية والعشرين، والحقيقة يمكنك من هذه الساعة أن تقولي إني في الثالثة والعشرين، وأما أنت يا عزيزتي أوجين فلا يمكن أن يزيد عمرك عن، لا يمكن أن يزيد عن. . . لا يمكن. . . عن. . .».

هنا توقفت قليلاً على أمل أن تكمل مدام لالاند عبارتي وتذكر عمرها الحقيقي. لكن كما هي الحال مع النساء الفرنسيات اللواتي نادراً ما يشرن إلى الأمور بشكل مباشر، ويفضلن عندما يجابهن بسؤال محرج أن يجبن عليه بشكل عملي، راحت يوجين تفتش في صدرها عن شيء كأنها أضاعته، وبعد برهة سقطت من يديها صورة كانت قد خبأتها في صدرها، فسارعتُ إلى التقاطها وقدمتها إليها.

ـ احتفظ بها» ـ قالت وهي ترفق ذلك بابتسامة عذبة. «احتفظ بها من أجلي، من أجل من تمثلها الصورة. ثم إنك تستطيع أن تجد على ظهرها المعلومات التي يبدو أنك ترغب بمعرفتها. إنّ الدنيا مظلمة الآن ولهذا يحسن بك أن تتفحصها على مهل في الصباح. وفي هذه الأثناء أرجو أن توصلني إلى منزلي. إنّ أصدقاء لي ينوون تقديم أمسية موسيقية صغيرة هذا المساء. وأعدك بشيء

من الغناء الجميل. إننا معشر الفرنسيين لسنا كثيري التقيد بالأعراف مثلكم أيها الأميركيون، ولن يكون صعباً عليّ أن اختلي بك في الداخل كواحدٍ من أصدقائي القدامى».

ولم تنهِ كلامها حتى أمسكت بذراعي. وذلك المساء أوصلتها إلى منزلها. كان مسكنها جميلاً، وأعتقد أنه كان مؤثثاً بشكل ينمّ عن ذوق مرهف - والحقّ أنني لست في موضع يمكنني أن أحكم على هذه الناحية الأخيرة بالتأكيد، إذ كان الليل كثيفاً حينما وصلنا. وفي منازل كتلك نادراً ما تستعمل الأضواء القوية في ليالي الصيف الحارة كتلك الليلة. وبعد حوالي الساعة من وصولنا أضيء قنديل واحد ومظلل في قاعة الاستقبال، ويمكنني أن أجزم بأن تلك القاعة كانت مفروشة بأثاث جميل، حقاً، ومرتبة بشكل بالغ الأناقة؛ غير أن الضيوف لم يكونوا جالسين في هذه الغرفة وإنما في غرفتين مجاورتين لها وبقيت أضواؤها تبعث في أرجاء المكان ظلالاً خفيفة جميلة تضفي على الحضور جواً شاعرياً. هذا الترتيب في الإضاءة كان مناسباً حقاً وقد أعجبني كثيراً إذ إنّه يوفر للحضور أن يختاروا بين مكانين أحدهما مضاء بقوة والآخر خفيف الضوء.

هكذا، كان ذلك المساء من أجمل أماسي حياتي، ولم تقلل مدام لالاند من إعترافها بمواهب أصدقائها الموسيقية، ولم أسمع أفضل من الغناء الذي سمعته آنذاك، في أي من الحلقات الخاصة خارج فيينا. كان العازفون كثيرين وذوي مواهب خارقة؛ أما المغنون فكان أكثرهم من النساء وجميعهم أبدعوا في الغناء. وبعد مرور فترة من الوقت أخذ الحضور يدعون مدام لالاند للغناء، وقد إستجابت السيدة للدعوة فوراً. كانت تجلس إلى كرسي بقربي، فنهضت بدون تكلف وبرفقتها سيد أو سيدان بالإضافة إلى مرافقتها التي كانت معها في دار الأوبرا، واتجهت إلى البيانو في قاعة الاستقبال الرئيسية. حاولت أن أرافقها بنفسي، لكنني شعرت أنه من الأفضل أن أبقى بعيداً عن الأنظار قدر الإمكان وذلك بالنسبة لحداثة تعارفنا، وبقيت في مكاني حيث حرمت من مشاهدتها وهي تغني، لكنني لم أحرم من سماع صوتها.

كان تأثيرها على المستمعين هائلاً - أما تأثيرها عليّ فكان أكثر من ذلك. أعرف كيف يمكنني وصف ذلك التأثير على حقيقته، لا شك أنه كان مرتبطاً، بشكل ما، بالشعور الذي كان يغمر قلبي، لكنه في الغالب كان ناتجاً عن الحساسية الفائقة التي كانت تغني بها. يستحيل على بدائع الفنون أن تستنبط حساسية في التعابير أكثر ممّا عبرت عنه مدام لالاند، الطريقة التي أدت بها مقطوعة الهيام في عطيل والنغمة التي لونت بها الكلمات ما تزال ترن في أذنيّ حتى الآن. كانت تؤدي النوتات المنخفضة في السلم الموسيقي بطريقة مدهشة. وكان صوتها يجمع ثلاث جمل موسيقية كاملة تمتد من الكونترالدو الثالث إلى السوبرانو الثالث، ورغم إنها كانت تحافظ في كل ذلك على قوة صوتية ممتازة، فإنها ما كانت لتتجنب المقاطع الصعبة بل تغنيها ببراعة فائقة، فيرتفع صوتها وينخفض من أعلى السلم الموسيقي حتى أسفله. وفي نهاية الأغنية أجادت إجادة لا توصف.

حين نهضت عن البيانو، عادت إلى مقعدها بجانبي؛ ولم أتمالك إلاّ أن أنقل إليها فرحتي

البالغة بغنائها الرائع. لم أقل شيئاً عن دهشتي، غير أنني في الحقيقة، كنت كثير الإندهاش، إذ كنت قد كونت إنطباعاً في نفسي من خلال أحاديثنا السابقة، بأن طبيعة صوتها المائلة إلى الليونة لن تمكنها من أن تطلق أعنة صوتها بغناء قوي كالذي سمعت.

أصبحت أحاديثنا تمتد لفترات طويلة، وكنا نتكلم بحرية وصراحة ودونما توقف. جعلتني أسترجع كثيراً من ذكريات أيامي الماضية، وكانت تستمع إلى كل كلمة أتفوه بها وهي تحبس أنفاسها. لم أخفِ عنها شيئاً ـ شعرت أنني يجب أن أبوح بكل شيء ـ لتلك التي منحتني حبها. وإذ كانت قد شجعتني بصراحتها فيما يتعلق بعمرها، فقد رحت من جانبي بإخلاص كلي أتكلم ليس عن تفاصيل شروري حتى الصغيرة منها وحسب، بل أنني قمت بإعتراف صريح بكل مساوئي الخلقية وحتى نقائصي الجسمية التي يدل الاعتراف بها على إخلاص في مشاعر الحـ ب أكثر من الاعتراف بأي شيء آخر تكلمت عن أيامي الدراسية، وعن الحماقات التي كنت أرتكبها آنذاك، تكلمت عن البذخ، والمغامرات والغزوات التي قمت بها، وعن ديوني، وعن مغازلاتي للنساء. اعترفت بكل شيء حتى أنني تكلمت عن قحّة مؤلمة أصابتني مرة ـ وعن روماتيزم مؤلم، وحتى عن ذلك الذي كنت أحاول أن أبقيه سراً عن الجميع ـ عن ضعف نظري.

وهنا قالت مدام لالاند ضاحكة، «فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة فأنك لم تكن كثير الحكمة حين اعترفت بها، إذ لولا إعترافك لما كان أحد يستطيع أن يتهمك بالجرم، وعلى كلّ» أكملت حديثها «على كل، هل تتذكر. . .» وهنا تصورت أن إحمراراً قد علا وجنتيها، «هل تتذكر يا صديقي العزيز هذا الشيء الذي يتدلى من عنقي؟» وبينما كانت تقول ذلك، كانت أصابعها تداعب نظارتيها، تينك النظارتين اللتين سببتا لي إرتباكاً بالغاً في دار الأوبرا.

ـ «أتذكرهما تماماً ـ أواه، كم أتذكر!» قلت ذلك وأنا أضغط بحنو على اليد التي امتدت إلي بالنظارتين لأراهما. كانتا كاللعبة المزركشة مطعمتين بالجواهر التي رغم ضعف الضوء، تأكد لي أنها نفيسة الثمن، ثم أكملت حديثها بشيء من التأكيد ـ «حسناً يا صديقي العزيز، لقد طلبت مني بصراحة أمراً قلت عنه أنه لا يثمن. لقد طلبت مني الزواج في الغد، فلو قبلت طلبك ـ ويمكنني أن أزيد هنا أن هذا لن يكون منافياً لنوازع قلبي ـ ألا يحق لي بأن أطلب منك طلباً صغيراً ـ صغيراً جداً بالمقابل؟».

ـ «سميه» قلت بصوت لاهف كاد يجذب انتباه الحضور الينا. وأكملت، وقد منعني وجود الناس حولنا من ان أرمي بنفسي على قدميها ـ «أطلبي ما شئت يا حبيبتي، يا أوجيني سميِّه، لكن، واأسفاه، أن طلبك مستجاب حتى قبل أن تتلفظي به». قالت، «من أجل أوجيني التي تحبها، ستتغلب على هذا الضعف الصغير الذي اعترفت به مؤخراً. هذا الضعف الذي هو معنوي أكثر مما هو جسمي، خصوصاً أنه غير لائق بطبيعة نفسيتك النبيلة ـ أو بالأحرى يجب أن أقول إنه مناقض للصراحة التي تتميز بها، إذ أخاف أنك إذا أهملتها أن توقعك، عاجلاً أم آجلاً، في مآزق صعبة. انك ستتغلب على هذا التصنع الذي يؤدي بك، حسب إعترافاتك، إلى

الهرب من هذا الضعف في نظرك. إذ إن التهرب من إستعمال الوسائل العادية لا يفيد في معالجة هذا الضعف الذي تصر على إخفائه. أعني بكل هذا أنني أرغب إليك أن تستعمل نظارتين لعينيك. أوه، لقد وافقت مسبقاً على أن تستعملها، من أجلي، وأرجو أن تتقبل هذه القطعة التي في يدي، فهي رغم أنها ليست كبيرة القيمة في ما تحمل من جواهر، تساعد كثيراً في النظر. ويمكنك بمجرد تركيز أقسامها على الشكل الذي تريد، أن توافق عينيك كنظارتين، أو بإمكانك أن تضعها في جيب صُدرتك. ولقد قبلت من أجلي، بأن تستعملها كنظارتين».

هل من الضروري أن أعترف بأن هذا الطلب قد أزعجني كثيراً. لكن الطريقة التي جاء بها لم تدع لي أي مجال للتردد.

ـ «طلبك مستجاب» صرخت بكل ما تمكنت من قوة. سأفعل ما تريدين وبكل سرور. إنني أضحي بأي شعور من أجلك. هذه الليلة سأضع هاتين النظّارتين في جيبي بجوار قلبي، وغداً، عند بزوغ الشعاع الأول من صباح اليوم الذي يمكنني عندها أن أعتبرك زوجتي، سأضعها على... على أنفي.. وهناك ستبقيان إلى الأبد، ولو لم تكونا جميلتين على الأنف، لكنهما ستكونان هناك كما ترغبين».

إنتقلنا بعد هذا في حديثنا إلى ترتيبات الغد. لقد وصل تالبوت، كما أخبرتني خطيبتي إلى البلدة منذ وقت قريب ويجب أن أراه حالاً، وأن تؤمن عربة. قد لا تنتهي السهرة قبل الثانية صباحاً، وفي هذا الوقت يجب أن تكون العربة في الإنتظار على الباب حيث يكون بإستطاعة مدام لالاند أن تستقلها دون أن ينتبه إليها أحد، حين يكون الجميع خارجين. علينا، بعد هذا، أن نذهب إلى منزل كاهن سيكون في إنتظارنا، وهناك ستتم مراسم الزواج، وبعدها نترك تالبوت ونستمر في رحلة قصيرة إلى الشرق تاركين وراءنا الناس ليعلقوا على زواجنا كما يحلو لهم.

بعد أن إنتهينا من هذه الترتيبات أستأذنت بسرعة، وذهبت أفتش عن تالبوت، لكنني لم أتمالك في طريقي من أن أدخل إلى أحد الفنادق لاتفحص الصورة ولم أتردد بأن أستعمل النظارتين من أجل ذلك، كانت ملامح الجمال في ذلك الوجه شيئاً يأسر القلب. تلك العينان الواسعتان المشعتان، ذلك الأنف اليوناني الرفيع، تلك الجدائل المجعّدة السوداء ـ «آه» قلت بنشوة، إنها حقاً صورة ناطقة لمحبوبتي!» وقلبت الصورة ووجدت على ظهرها الكلمات التالية:

«أوجيني لالاند، العمر ٢٧ سنة و٧ أشهر».

وجدت تالبوت في البيت، وأسرعت فوراً لإعلامه بتفاصيل سعادتي. ظهرت عليه دهشة بالغة، دون شك، لكنه هنأني من كل قلبه، وقدم نفسه لكل خدمة ممكنة. وبإختصار قمنا بتنفيذ خطتنا حرفياً؛ وفي تمام الساعة الثانية صباحاً بعد إنتهاء الحفلة بعشر دقائق فقط، وجدت نفسي إلى جانب مدام لالاند ـ مدام سمبسون يجب أن أقول ـ وأسرعناخارج البلدة في إتجاه الشمال الشرقي.

كان تالبوت قد نصحنا بأن نجعل محطتنا الأولى في مكان يبعد حوالي العشرين ميلاً عن المدينة، إذ نكون قد أمضينا الليل بكامله دون نوم؛ وأن نتناول فطورنا هناك، ونحظى بشيء من الراحة قبل متابعة السفر. ولهذا ففي الساعة الرابعة تماماً كانت العربة تقف أمام الحانة الرئيسية. وأخذت بيد محبوبتي ونزلنا، ثم طلبنا فطوراً لتونا. وفي هذه الأثناء قادنا صاحب الحانة إلى مكان إستراحة حيث جلسنا.

كان الصباح قد طلع الآن، وفيما كنت أحدق كالمأخوذ، إلى الملاك بجانبي، خطرت ببالي فجأة، أن هذه في الحقيقة، هي المرة الأولى منذ لقائنا، تسنح لي فيها فرصة التمتع بذلك الجمال عن كثب وفي ضوء النهار.

ـ «والآن يا صديقي»، قالت، وهي تأخذ بيدي قاطعة عليّ تسلسل أفكاري، والآن يا صديقي العزيز؛ بما أننا أصبحنا روحاً واحدة في جسدين، وبما أنني أستجبت لطلبك وقمت، من جهتي، بنصيبي من الاتفاق ـ أتصور أنك لم تنس تعهدك بأن تقدم لي خدمة صغيرة ـ وعداً صغيراً، لا شك بأنك عازم على تحقيقه، آه، دعني أرى، دعني أتذكر! نعم، أنني أتذكر كلماتك بسهولة حين أعلنت وعدك لأوجيني الليلة الماضية. إستمع، تكلمت هكذا: «طلبك مستجاب. سأفعل ما تريدين وبكل سرور. أنني أضحي بأي شعور من أجلك. هذه الليلة سأضع هاتين النظارتين في جيبي بجوار قلبي، وغداً عند بزوغ الأشعة الأولى لصباح اليوم الذي يمكنني فيه أن أدعوك زوجتي، سأضعهما على، على أنفي، وهناك ستبقيان إلى الأبد، ولو لم تكونا جميلتين على الأنف، لكنهما ستكونان هناك، كما ترغبين». هذه هي الكلمات التي تفوهت بها بالضبط، أليس كذلك يا زوجي العزيز».

ـ «نعم إنها الكلمات نفسها»، قلت، إن لك ذاكرة ممتازة، ولا ريب أنني، يا أوجيني الجميلة، لا أميل مطلقاً إلى نقض العهد الذي قطعته لك. أنظري، ما رأيك، هل تناسبان وجهي.. نوعاً ما.. أليس كذلك؟» وهنا، حالما وضعت النظارتين على عيني وركزتهما لبضع لحظات بينما مدام سمبسون كانت تركز قبعتها على رأسها، وتضم ذراعيها، وتجلس بانتصاب في كرسيها بطريقة فيها شيء من الغرابة، أو بالأحرى، شيء من الفظاظة...

ـ «يا الله ارحمني» صرخت بذهول في نفس اللحظة التي استقرت النظارتان فيها على عينيّ ـ «يا، يا رب.. يا الله، ارحمني ماذا، أية داهية هي هاتان النظارتان؟!» وانتزعتهما بسرعة ومسحتهما بمنديلٍ حريريّ، ثم ركزتهما من جديد على عينيّ.

إذا كان ما حدث في البرهة الأولى سبب لي تعجباً، فما حدث في البرهة التالية رماني في دوامة من الدهشة ـ وهذه الدهشة كانت عميقة ـ كانت هائلة؛ وفي الحقيقة، يمكنني أن أقول إنها كانت دهشة مرعبة. هل أصدق عينيّ؟ هل يمكنني أن أصدق عينيّ؟ هذا هو السؤال. هل كان، ذلك الشيء، ذلك الشيء الذي يملأ وجهها بالحمرة صباغاً؟! وتلك الأشياء.. الأشياء....

تلك الأشياء في الوجه، هل هي تجعدات، في وجه أوجين لالاند؟ أواه، بحق جوبيتر وكل الآلهة، الصغار منهم والكبار، ما الذي حلّ، ما هو الشيء الذي أصاب أسنانها؟ ماذا حلّ بأسنانها؟ ورميت النظارتين بغضب شديد على الأرض وقفزت واقفاً على قدمي في منتصف الغرفة مواجهاً مدام سمبسون وفي كل جزء من جسمي يتفجر بركان من الحنق، وفي وجهي ثورة من الهلع؛ غير أني في نفس الوقت لم أستطع أن أقول شيئاً، كان الحنق والرعب قد لجما لساني.

قلت سابقاً إن مدام لالاند ـ أعني مدام سمبسون ـ كانت تتكلم الانكليزية بصعوبة وركاكة ولهذا ففي أحاديثنا السابقة لم تحاول أن تستعملها. غير أن الغضب يدفع بالمرأة إلى تطرفات عجيبة، وفي هذه الحالة دفع بمدام سمبسون إلى أن تتكلم بلغة لا تتقنها ولا تفقه كل معانيها.

ـ «حسناً أيها السيد» قالت بركاكة مؤلمة، وهي تتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي بدهشة بالغة ـ «حسناً ـ ثم ماذا؟ ما هي المشكلة الآن؟ هل تقلد رقصات القديسين؟» .

ـ «أيتها اللعينة!» قلت وأنا أصارع لألتقط أنفاسي، «أيتها العجوز الشمطاء!» .

ـ «أغ! ـ عجوز، أوه، أني لست عجوزاً لهذا الحد، أن عمري لا يزيد عن الثانية والثمانين بيوم واحد!» .

ـ «الثانية والثمانين!!» صرخت وأنا أترنح من الغضب.

« أثنتان وثمانون قردة! لكن الصورة تقول سبع وعشرون سنة وسبعة أشهر؟!» .

ـ «دون شك، أيها السيد، هذا صحيح لكن عمر الصورة خمس وخمسون سنة، عندما تزوجت للمرة الثانية من السيد لالاند، أخذت ذلك الرسم لابنتي من زواجي الأول بالسيد مواسارت!» .

ـ «مواسّارت!» قلت بدهشة لا تصدق.

ـ «نعم، مواسارت» قالت وهي تسخر من طريقة لفظي للاسم. «وماذا يعني هذا، ماذا تعرف عن مواسارت؟» .

ـ «لا شيء ايتها الفزّاعة العجوز. لا أعرف شيئاً عنه، لا شيء سوى أن أحد أجدادي كان يسمى بهذا الاسم» .

ـ «هذا الاسم، وما رأيك فيه؟ إنه اسمٌ جميل حقاً؛ وكذلك فواسّارت، انه اسم جميل جداً أيضاً. إن ابنتي الآنسة مواسارت قد تزوجت من السيد فواسارت، وكلا الاسمين محترم جداً» .

ـ «مواسارت؟» قلت، «وفواسارت، ماذا تعنين بحق السماء؟» .

ـ «ماذا أعني؟! مواسارت وفواسارت، وإذا أحببت أقدر أن أضيف أسماء أخرى

للعائلة، كرواسارت وفرواسارت. إنّ حفيدة ابنتي، الآنسة فواسارت، تزوجت من السيد كرواسارت، ثم ابنة حفيدة ابنتي، الآنية كرواسارت، تزوجت من السيد فرواسارت، ولا أعتقد أن بإمكانك الإدعاء أن هذا الاسم أيضاً ليس بالاسم المحترم».

ـ «فرواسارت!» قلت ذلك وأنا على وشك الإغماء، «هل تعنين حقاً هذه الأسماء، مواسارت وفواسارت، وفرواسارت؟».

ـ «نعم» قالت ذلك وهي تستند إلى الكرسي بكل إرتياح، «نعم، مواسارت وفواسارت وكرواسارت وفرواسارت. لكن السيد فرواسارت كان معتوهاً، مثلك، إذ إنه ترك فرنسا الجميلة وجاء ليقطن هذه الاميركا السخيفة. ورغم أنني لم أحظ بمقابلته بعد، لا أنا ولا رفيقتي مدام ستيفاني لالاند، فهو لا شك معتوه. لقد اتخذ لنفسه اسم نابوليون بونابارت فرواسارت. ولا أعتقد أن بإمكانك أن تدعي أن هذا الاسم ايضاً هو اسم غير محترم!».

بدا لي أن هذا الحديث العائلي الطويل قد أثار حفيظة مدام سمبسون وهيّج عواطفها وشجونها لدرجة كبيرة، إذ إنها حالما أشرفت على الانتهاء منه قفزت عن كرسيها كالمسحورة وأخذت تصر بأسنانها، ثم شمرت عن ذراعيها، ورفعتهما وأخذت تهز بقبضتها في وجهي، وأنهت هذه التمثيلية بأن أنتزعت قبعتها عن رأسها وانتزعت معها كتلة من الشعر الأسود المجعد المستعار، ورمت بكل ذلك إلى الأرض، وهي تولول وتدوسها بقدميها بثورة غضب شديد. كانت تفعل كل ذلك، بينما كنت أغرق في الكرسي الذي قفزت منه وأنا منهك القوى لا أقوى على شيء.

ـ «مواسارت وفواسّارت!» أخذت أردد لنفسي بينما كانت هي تقفز في رقصتها الحانقة، «وكرواسارت وفرواسارت» ـ مواسارت وفواسارت وكرواسارت، وأخيراً نابوليون بونابارت فرواسارت! أيتها الأفعى الرقطاء ـ هذا أنا، أنا، هل تسمعين، هذا أنا، أنا، أنا». ورحت أصرخ بأعلى صوتي، «هذا أنا، أنا نابوليون بونابارت فرواسارت، ولتلعني السماء إن لم أكن قد تزوجت من جدة جدتي!».

كانت مدام يوجين لالاند ـ وقبلاً مدام مواسارت وحالياً مدام سمبسون!) كانت في الحقيقة ودون مغالاة هي جدة جدتي. لقد كانت في صباها جميلة جداً، وحتى وهي في الثانية و الثمانين ما تزال تحافظ على إنتصاب قامتها وما يزال جبينها مرتفعاً وعيناها برّاقتين وأنفها الإغريقي محافظاً على شكله. وهي بمساعدة المساحيق، والحمرة، والشعر المستعار، والأسنان المستعارة، كل هذا بالإضافة إلى حيل التجميل الباريسية إستطاعت أن تحافظ على كثير من ملامح الجمال. كانت ثرية جداً، وبما أنها بقيت بدون أولاد من زوجيها الاثنين، أخذت تسعى للقياي في أميركا. ولكي تقيمني وريثاً لثروتها جاءت إلى الولايات المتحدة برفقة سيدة رائعة الجمال هي قريبة زوجها الثاني ـ مدام ستيفاني لالاند.

في دار الأوبرا استلفت انتباهها شكلي ونظراتي، وبعدما تفحصتني بواسطة نظارتيها دهشت لفرط الشبه بيني وبين أفراد عائلتها. لما ازداد اهتمامها بسبب هذا التشابه، ولعلمها بأن حفيدها الذي تفتش عنه هو في البلدة، التفتت إلى مرافقها وتساءلت عمن أكون. وكان السيد الذي برفقتها يعرفني، ولهذا أخبرها عني. وهكذا فان المعلومات التي جمعتها دفعتها لتجديد نظرها إليّ وتفحّصي من جديد، وكان إهتمامها هذا هو الذي جعلني أتجرأ على أن أتصرف بالطريقة العجيبة التي تصرفت بها. ولقد أجابت على إنحناءة رأسي إذ تصورت أنني بطريقة ما قد أكون لاحظت الشبه بيننا وعرفت من تكون. وعندما سألت تالبوت عمن تكون السيدة، وقد خدعت بسبب ضعف نظري بمظهرها ولم أتمكن من أن أتحقق من عمرها، ظن تالبوت أنني أعني السيدة الصغرى التي كانت معها، ولهذا أجابني بالحقيقة، وهي أنها مدام لالاند الأرملة.

في اليوم التالي، في الشارع، صادفت مدام لالاند الكبرى تالبوت صديقي الذي كانت قد تعرفت عليه في باريس وإمتد الحديث بالطبع إليّ، وهكذا عرفت مدام لالاند بأمر نظري، إذ كان هذا الموضوع مشهوراً عني، وتحققت قريبتي العجوز بأنني في الواقع إنما خدعت، ولم أفطن إلى التشابه بيننا وإلى النسب وأنني كنت أتصرف بتهور إذ أحاول أن أغازل امرأة عجوزاً علانية وفي مسرح مليء بالناس. لهذا قررت أن تعاقبني على هذا التهور، واتفقت مع تالبوت على الحيلة بكاملها. وكان أن غاب تالبوت عن عينيّ عمداً لكي لا يعرفني إليها. وأما اسئلتي عن الأرملة الجميلة مدام لالاند في الشوارع فقد كانت تؤخذ على أنها تعني السيدة الصغرى دون شك؛ وهكذا فإن الحديث مع السادة الثلاثة الذين صادفتهم في الشارع بعد مغادرتي مكان تالبوت يصبح أمراً واضحاً لا حاجة لتفسيره. لم تسنح لي الفرصة لرؤية مدام لالاند في ضوء النهار عن كثب، وفي الأمسية الموسيقية لم أتمكن من التحقق من عمرها وشخصيتها لأنني لم أستعمل النظارتين. وعندما دعيت «مدام لالاند» للغناء كان المقصود السيدة الصغرى، وهي التي قامت لتغني، وأما جدة جدتي فقد قامت برفقتها إلى البيانو حرصاً منها على عدم إفتضاح الأمر. فلو كنت حاولت أن أرافقها إلى هناك، لكانت نصحتني بالبقاء في مكاني، لكن ترددي في الأمر مخافة أن يكتشف أمرنا جعل ذلك أمراً غير ضروري. وأما الأغاني التي سمعتها والتي أثارتني بجودتها، فلم تكن سوى أغاني مدام ستيفاني لالاند، واما النظارتان فقد قدمتها لي على سبيل إتمام المكيدة. إذ إنها بذلك تمكنت من أن تتدفق بوعظها لي عن التصنع. ولا حاجة للقول إنها كانت قد أبدلت عدستي النظارتين بحيث جاءتا موافقتين لشاب في مثل سني. وهي في الواقع لم تخطىء كثيراً في إكتشاف مدى النقص في قوة نظري.

أما ذلك الكاهن الذي تظاهر بأنه يربط بيننا برباط الزواج الأبدي، فهو في الحقيقة لم يكن سوى صديق لتالبوت، وهو غير كاهن. لقد كان «سوطاً» مناسباً ليدفع بنا خارج المدينة، إذ إنه بعد أن أبدل ثيابه ووضع ثياب الكهنوت المزركشة وأتم مراسيم الزيجة المزورة سارع إلى تسفير «الزوجين السعيدين» خارج البلدة ـ وكان تالبوت قد اتخذ لنفسه مقعداً إلى جانب صديقه

الكاهن. كان هذان الشقيان ينتظران في غرفة خلفية من الحانة يمتعان نفسيهما بهذه الدراما التي اخترعاها. أعتقد أنّ عليّ أن أدعو كليهما خارجاً.

على أية حال، لم أصبح في الواقع زوجاً لجدة جدتي، وقد أزاح هذا الأمر عن كاهلي أثقالاً من الهم لا حد لها؛ لكنني أصبحت بالفعل زوجاً لمدام لالاند - أعني مدام ستيفاني لالاند، إذ أن نسيبتي العجوز، لفرط طيبتها رتبت لي أمر الزواج من مدام ستيفاني بالإضافة إلى أنها جعلتني وريثها الوحيد بعد موتها - هذا إذا كانت ستموت. الخلاصة أنني نفضت يدي نهائياً من كتابة رسائل الحبّ ولم يعد أحد يراني بدون نظارتين.

قوة الكلام

وانوس: اغفر، يا أغاتوس، ضعفَ روحٍ تلبس الخلود منذ هنيهةٍ.

أغاتوس: لم تقل، يا عزيزي وانوس، ما يوجب عليك طلب الصَّفح. فالمعرفة ليست حدساً، وهي ليست هنا. أما الحكمة فاسأل الملائكة بيقينٍ أن تمنحها لك.

وانوس: لكنني، خلال هذه الحياة الأخيرة، حلمت أنني أصلُ رأساً إلى معرفة الأشياء كلها، وأحظى مباشرة بالسعادة المطلقة.

أغاتوس: آه! إن السعادة ليست في العلم، بل في تحصيل العلم! الغبطة الأبدية هي أن نعرف دائماً؛ أما معرفتنا كل شيءٍ فتجديف شيطاني.

وانوس: لكن ألا يعرف الله المتعالي كل شيء؟

أغاتوس: وهذا هو الشيء الوحيد (باعتباره الميمون الخيّر) الذي ينبغي ألا يعرفه هو نفسه.

وانوس: لكن ما دامت كل دقيقة تزيد في معرفتنا، أفليس محتوماً أن نعرف، في النهاية، كل شيء؟

أغاتوس: أقذف بنظرك في أقاصي الهاوية! ولتجهد عينك أن تخترق هذه المشاهد العديدة من النجوم، بينما ننزلق عبرها، بطيئاً ـ ننزلق، ننزلق ـ إلى الأبد. أليست الرؤيا الروحية نفسها محدودةً دائماً بجدران الكون، المذهَّبة الدائرة ـ هذه الجدران المبنيَّة بـآلاف الأجسام المتلألئة التي تذوب في وحدةٍ لا حدود لها؟

وانوس: أدرك بوضوحٍ أن لا نهائية المادة ليست حلماً.

أغاتوس: لا أحلامَ في السماء؛ ـ لكن كُشف لنا هنا أنَّ الغاية الوحيدة لهذه اللانهائية هي أن تقدم ينابيعَ لا نهائية تستطيع فيها الروح أن تلطف عطش المعرفة فيها، ـ وهو عطشٌ لا

ينطفىء ولن ينطفىء، لأن في انطفائه نهاية الروح. اسألني إذن، يا صديقي وانـوس، بحرّيـةٍ ودون خوف. تعال! سنترك إلى يسارنا تناسق الثـريا، المشـعّ، وسنمضي مرفـرفين بعيـداً عن الناس في الحقول المكوكبة، فيـما وراء الجوزاء، حيث نجـدُ، بدل أزهـار الثالـوث والبنفسج، طبقاتٍ من الشموس المثلثة السطوح والشموس المثلثة الألوان.

وانوس: والآن علّمني، يا أغاتوس، ونحن نحوم في الفضاء! حدّثني باللهجة الأليفة على الأرض! لم أفهم ما قلته لي منذ هنيهةٍ، حول أوضاع الخليقة وطرق الخلق ـ حول هذا الذي كنا نسمّيه تكويناً، حينما كنا بشراً زائلين. هل تريد أن تقول إن الله ليس هو الخالق؟

أغاتوس: أريد أن أقول إن الألوهة لا تخلق.

وانوس: أوضح.

أغاتوس: خلقت في البداية فقط. ولا يمكن اعتبار الخلائق ـ أعني ما يبدو مخلوقـاً ـ التي تفيض في الكون من طرف إلى آخر على الوجود بلا كلل، إلا نتائج متصلة بغيرها، لا منفصلة، ـ نتائج القدرة الإلّهية المبدعة.

وانوس: هذه الفكرة، يا أغاتوس، اعتبرت عند الناس هرطوقية إلى أعلى حدّ.

أغاتوس: وهي بين الملائكة، يا وانوس، مجرد حقيقة.

وأنوس: أقدر أن أفهمك حيث تريد القول إن بعض أعمال الوجود التي نسميهاطبيعةً ،أو قوانين طبيعية، تنتج في بعض الظروف ما يحمل المظهر الكامل للخلق. أذكر أنه جرى، قبـل خراب الأرض النهائي، عـدد كبير من التجـارب الناجحـة سمَّاهـا بعض الفلاسفـة، بتبجحٍ صبياني، الخلق الجرثومي.

أغاتوس: لم تكن، في الواقع، الحالات التي تتحدث عنهـا إلا أمثلة خلقٍ ثانـويّ ـ نوع الخلق الوحيد الذي لم يتكرر قطعاً منذ أن لفظ الكلام الأول الشريعة الأولى.

وانوس: إن العوالم المكوكبة التي تنبجس من هاوية العدم تحدث كـل دقيقة انفجـاراً في السماوات، أليست هذه الكواكب، يا أغاتوس، عملاً مباشراً ذاتياً من يد السيد؟

أغاتوس: سأحاول، يا وانوس أن أسير بك خطوة فخطوة إلى المفهوم الذي أشـير إليه. تعرف تماماً أنَّ أية فكرة لا يمكن أن تزول، كذلك ما من عمل إلا ولـه نتيجة لا نهائيـة. كنا، ونحن نحرّك أيدينا عندما كنا نسكن هذه الأرض، نحدث اهتزازاً في الأفق المحيط بنا. وكان هذا الاهتزاز يمتدّ إلى ما لا نهاية له في الجو الأرضي الذي، بدءاً من لحظة الاهتزاز وإلى الأبد، دخل في حركةٍ بمجرد هذا العمل اليدوي. ولقد أدرك رياضيو كوكبنا هذه الحادثة تمام الإدراك. وكانت النتائج الخاصة التي يُسببها في السائل دفع خاص موضوع حسابٍ دقيق ـ بحيث أصبح سهلاً أن نحدّد في أيّ زمن معينٍ يستطيع دفعٌ معين أن يدور الفلك ويؤثر ـ دائماً ـ في كل ذروة

من الجو المحيط. هكذا أدرك رياضيونا أن هذه الظاهرة تتضمن طاقة من التقدم لا حدود له، وفهموا أن هذا النوع من الحساب لا يحده هو أيضاً، أي شيء ما عدا الروح التي أظهرته أو طبَّقته. لكن رياضيينا توقفوا عند هذه النقطة.

وانوس: ولماذا، يا أغانوس، كان ينبغي عليهم أن يذهبوا إلى أبعد منها؟

أغاتوس: لأن وراءها بواعث ذات فائدة كبرى. كانوا يستطيعون بما يعرفونه أن يستخلصوا أن كائناً بذكاء لا نهائي - كائن يتكشف له مطلق التحليل الرياضي - لن يواجه أية صعوبة في تتبع كل حركة أحدثت في الهواء - ونقلها الهواء إلى الأثير - حتى في أقصى ارتداداتها، وحتى في زمنٍ قديم جداً. والواقع أنه تمكن البرهنة على أن كل حركةٍ من هذا النوع في الهواء لا بدَّ في النهاية من أن تؤثر على كل كائنٍ فردي تشمله حدود الكون؛ - والكائن ذو الذكاء اللانهائي -، الكائن الذي تصورناه - يستطيع أن يتابع التموجات البعيدة للحركة، - يتابعها إلى أبعد ودائماً إلى أبعد، في تأثيراتها على جزئيات المادة كلها، - إلى أبعد ودائماً إلى أبعد، في التحولات التي تفرضها على الأشكال الهرمة، - أو بعبارة أخرى، على الخلائق الجديدة التي تبدعها، إلى أن تتحطم أخيراً، عاجزة، أمام عرش الألوهة.

وانوس: لكنك تتكلم فقط على الحركات المسببة في الهواء.

أغاتوس: في حديثي على الهواء، لا يحيط فكري إلا بالعالم الأرضي؛ إيَّ أن القضية المعمّمة تتضمن الحركات المحدثة في الأثير الذي بنفاذه وحده في الفضاء كله يجد نفسه الوسيط الكبير للخلق.

وانوس: إذن كلّ حركةٍ، من أي نوع كانت، حركة خلاقة؟

أغاتوس: هذا لا يستطيع ألا يكون؛ غير أنَّ هناك فلسفة حقَّة علمتنا منذ وقت طويلٍ أن الفكر هو مصدر كل حركة، - وأنَّ مصدر كل فكرٍ هو. . .

وانوس: الله.

أغاتوس: حدثتك، يا وانوس، كما لو كان عليّ أن أتحدث إلى طفلٍ عن هذه الأرض الجميلة التي بادت حديثاً - عن الحركات أحدثت في الجو الأرضي. . .

وانوس: نعم، يا صديقي العزيز أغاتوس.

أغاتوس: وحينما كنت أتحدَّث هكذا، أما شعرت أن روحك تجتازها فكرة تتصل بالقوَّة المادية للكلمات؟ أليست كل كلمةٍ حركة مخلوقةً في الهواء؟

وانوس: لكن لماذا تبكي، يا أغاتوس؟ - ولماذا، آه، لماذا تتلاشى أجنحتك أثناء تحويمنا فوق هذه النجمة الجميلة، - أنضر النجوم، ومع ذلك، الأشد هولاً بين جميع النجوم التي صادفناها في طيراننا؟ كأنما تبدو أزهارها المشعّة حلماً سحرياً، - لكن براكينها المرعبة تذكر بأهواء

القلب المضطرب.

أغاتوس: إنها لا تبدو، بل هي كذلك بالفعل. هـذه الأزهار أحـلامٌ وعواطف! هـذه النجمة الغريبة أنا الذي، ـ منذ ثلاثة قرون، ـ أنا الذي خلقتُها لافظاً بضع جُملٍ مهيَّمة عنـد قدمي حبيبتي، مشنج اليدين دامـع العين. وأزهارها الفاتنة هي أغلى الأحلام التي لم تتحقق، وبراكينُها المجنونة هي عواطف قلبٍ أكثر القلوب هيجاناً وأكثرها عذاباً.

قصة الجبال الوعرة

في خريف عام ١٨٢٧ ، عندما كنت أسكن قرب شارلوتسفيل من ولاية فيرجينيا، تعرَّفت صدفة إلى السيد أوغسطس بيدلوا. كان هذا السيد ذا مظهر غير عادي إلى درجة أثارت دهشتي واهتمامي الشديد. أدركت أنه من المستحيل عليّ أن أفهمه على حقيقته في علاقاته الأخلاقية أو الجسدية. أما عائلته فلم أفلح أبداً في أن أعرف عنها ما فيه الكفاية، كما لم أعرف أي شيء عن المكان الذي جاء منه. حتى في ما يتعلق بعمره كان هناك ما يحيّرني إلى درجة كبيرة بالرغم من أنني كنت أدعوه بالسيد الشاب. لا شك أنه كان يبدو صغير السن ـ وكان أحياناً يتحدَّث عن صباه ـ مع أنني أحياناً كنت أتصوره شيخاً يبلغ مئة سنة من العمر. كان مظهره هو ما يميّزه عن غيره أكثر من أي شيء آخر، إذ كان طويلاً مفرط الطول، دقيق البنية، متقوّس الظهر، ذا ذراعين غاية في الطول والهزال. كانت جبهته عريضة ومنخفضة. أما لونه فلم يكن يبدو فيه أيّ أثر للدم كان فمه كبيراً ورخواً، وأسنانه متباعدة. ومع أنها كانت أسناناً سليمة فلم أرَ مثلها في فم أيّ مخلوق بشري. أما ابتسامته، فعلى العكس مما يتبادر إلى الذهن، لم تكن تنقصها العذوبة، لكنها كانت دائماً مشوبة بالحزن العميق، والأسى اللامتناهي. كانت عيناه كبيرتين أكثر من المألوف مستديرتين كعيني الهرة لهما بؤبؤان يضيقان أو يتسعان تبعاً لكمية الضوء تماماً كأعين الهررة. في حالات الانفعال كانت كرتا عينيه تومضان كثيراً بصورة لا يمكن وصفها فتبدوان وكأنهما تقذفان بالشّرر الذي لا ينعكس على شيء ما، بل الذي ينطلق من داخل الشيء كما في الشمعة أو الشمس؛ لكنهما في حالتهما الاعتيادية كانتا باردتين وجامدتين، كعيني ميت مضى عليه في القبر زمن طويل.

هذه المظاهر كانت على ما يبدو تسبّب له ارتباكاً كبيراً. إذ كان يشير إليها باستمرار بطريقة فيها شيء من الاعتذار وشيء من التوضيح، مما أحزنني عندما سمعته لأول مرَّة. لكنني سرعان ما اعتدت على هذه الإشارات، ولم يعد يضايقني سماعها. فهمت أنه يقصد من هذه الإشارات

إقناع السامع بطريقة غير مباشرة أنّ حالته الجسدية لم تكن دائماً بهذه الصورة، وأن سلسلة من النوبات العصبية قد أحالته من كائن متميّز بقدر بالغ من الجمال إلى ما هو عليه الآن. كان يشرف على معالجته لعدَّة سنوات خلت طبيب يدعى ثمبلتون ـ وهو رجل طاعن في السن يبلغ السبعين من العمر ـ التقى به للمرة الأولى في ساراتوغا؛ ونال على يديه، أو هكذا خُيِّل إليه، منفعة قصوى. وكانت النتيجة أنَّ بيدلوا الذي كان ثرياً كبيراً قد اتفق مع الدكتور ثمبلتون على أن يكرّس هذا الأخير وقته وجميع خبراته الطبية للعناية به مقابل راتب سنوي ضخم.

كان الدكتور ثمبلتون رحَّالة في شبابه، فاعتنق في باريس مذهب التنويم المغناطيسي. وكان قد أفلح في أن يريح مريضه من آلامه الحادَّة بواسطة العلاجات المغناطيسية وحدها. وقد أدَّى هذا النجاح إلى أن يسلم المريض بالمبادىء المغناطيسية العامة التي كان يستمد منها الطبيبُ علاجاته. والطبيب ككلّ المتحمسين، بذل جهداً كبيراً ليجعل مريضه يعتنق مذهبه بكل قواه وبالنهاية نجح في إقناع المريض بأن يخضع لتجارب متعددة. وبالتكرار، نشأت حالة ـ أصبحت في الأيام الأخيرة من الشيوع بحيث لم تعد تلفت الانتباه، لكنها، حين جرت حوادث القصة، لم تكن معروفة في أميركا. أعني أنه نشأ تدريجياً بين الدكتور ثمبلتون وبين بيدلوا تعاطف واضح وقوي يمكن وصفه أنه علاقة مغناطيسية. لست على استعداد لأن أعلن جازماً أن ذلك التعاطف كان يتعدى عملية التنويم العادية إلى أشياء أخرى؛ لكن مما لا ريب فيه أن ذلك التعاطف قد بلغ حداً بعيداً من القوة. في المحاولة الأولى للبدء بالتنويم المغناطيسي فشلت العملية بكاملها. وفي المحاولة الخامسة أو السادسة نجحت جزئياً، لكن بعد جهد طويل. لم يصر النجاح كلياً إلاَّ في المحاولة الثانية عشرة. أصبحت إرادة المريض، بعد ذلك، ترضخ بسرعة لإرادة الطبيب، لدرجة أنني حين تعرَّفت عليه للمرة الأولى كان التنويم أمراً يتم بسهولة على يد الطبيب حتى ولو لم يكن المريض شاعراً بوجوده.

الآن ونحن في العام ١٨٤٥ تظهر عجائب مماثلة لآلاف المتفرجين يومياً، أتجاسر وأسرد هذه المعجزة كحقيقة ثابتة.

كانت حرارة بيدلوا شديدة الحساسية تمكن إثارتها بسهولة، وكان خياله قوياً خلاقاً بشكل فريد، زادته قوة جرعات الأفيون التي يتناولها بكميات كبيرة، والتي بدونها كان يستحيل عليه مجرد الوجود. كان من عادته أن يأخذ جرعة كبيرة كلّ صباح بعد الفطور مباشرة ـ أو بالأحرى بعد فنجان قوي من القهوة، ذلك أنَّه لم يكن يأكل شيئاً قبل الظهر ـ بعد ذلك كان يذهب وحيداً أو مع كلبه في نزهة بين سلاسل التلال الغريبة التي تقع إلى الشرق والجنوب من شارلوتسفيل والتي تسمى «الجبال الوعرة».

وذات نهار ضبابي دافىء من أيام نوفمبر، وفي الفصل الذي يعرف في أميركا بالصيف الهندي، توجَّه السيد بيدلوا كعادته إلى الجبال، ومرَّ النهار دون أن يرجع.

حوالي الساعة الثامنة مساءً، وكنا على وشك الخروج للتفتيش عنه، بعد أن أقلقنا غيابه، ظهر فجأة. لم تكن صحته أسوأ من عادتها، أما معنوياته الروحية فكانت أعلى مما تعوَّدناه منه. ثم أخبرنا بقصة رحلته، وبالأحداث الغريبة التي أخَّرته.

قال: تذكرون أنني غادرت شارلوتسفيل حوالي السَّاعة التاسعة، وقد توجهت مباشرة صوب الجبال. حوالي الساعة العاشرة دخلت مضيقاً لم يكن لي عهد سابق به. تتبعت تعرجاته باهتمام بالغ. كانت المناظر التي تحيط بالممر تتميَّز بسحر فريد يضفيه عليها جو العزلة الكئيبة. كانت الطبيعة تبدو عذراء كلياً. أعتقد أن المروج الخضر الرمادية التي مررت بها لم تطأها أقدام البشر قبلي. كانت المنطقة عميقة منعزلة، والأصح أنه لا يُنَفذُ إليها إلا من خلال الثغرات التي واجهتها، الأمر الذي يجعلني أؤكد أنني كنت المغامر الأول الذي عبر تلك المنطقة.

«كان الضباب الكثيف، أو الدخان الذي يميز الصيف الهندي، والذي يغمر الأشياء، يضفي عليها مظهراً غريباً. كان هذا الضَّباب الهادىء كثيفاً حتى أنَّه أعاقني عن رؤية الأشياء التي تبعد عني أكثر من عشر خطوات. كان الممر كثير التشعب، وكانت رؤية الشمس متعذرة، لذا لم أعد أعرف في أي اتجاه أسير. في الوقت نفسه بدأ المورفين يفعل فعله فيَّ فيزيد حدة اهتمامي بأبسط الأشياء: باختلاج ورقة - بتمازج الألوان في عشبة صغيرة - في شكل زهرة النفل - في أزيز نحلة - في لمعان قطرة ندى - في هبوب النسيم - في الروائح الضعيفة التي انبعثت من الغابة - في هذه الأشياء تمثّل لي عالم كامل من الإيحاءات، سلسلة من التخيلات والأفكار غير المتماسكة.

«مشيت ساعات عديدة وأنا على هذه الحال، بينما كان الضباب يشتد كثافة، حتى اضطررت إلى تلمس طريقي خطوة خطوة، وامتلكني ضيق شديد - نوع من التوتر والتردد العصبيين - كنت أخاف أن أخطو خطوة واحدة لئلا أغرق في هوَّة لا قرار لها. وتذكّرت قصصاً غريبةتروىعن هذه التلال الوعرة، وعن سلالات البشر المتوحشة التي سكنت وهادها وكهوفها. وبدأت آلاف التصورات الغامضة تجثم عليّ وترهقفني - كان أفظع ما في هذه التخيلات غموضها. فجأة طرقت سمعي ضربات طبل.

«كانت دهشتي بلا حدود. كان صوت طبل في هذه التلال أمراً غريباً غير عاديّ. إن أبواق الملائكة ما كانت لتدهشني أكثر مما فعلت تلك الضربات. لكن الأحداث التي تلتها كانت أكثر منها إثارة للحيرة والدهشة. إذ سمعت قرقعة غريبة كما لو أنها صادرة عن رزمة من المفاتيح، ثم اندفع أمامي رجل شديد السمرة نصف عار، يركض بسرعة خاطفة. لقد اقترب مني حتى شعرت بأنفاسه الحارَّة على وجهي، وكان يحمل في إحدى يديه آلة مكوَّنة من مجموعة من الحلقات الحديدية التي يهزّها بعنف وهو يركض. وما كاد يختفي في ثنايا الضبَّاب حتى اندفع وراءه وحش هائل وقد فغر شدقه واندلع الشرر من عينيه، عرفته فوراً، فقد كان ضبعاً.

«وبدل أن تزيد رؤية الوحش مخاوفي، بددتها - إذ تيقّنت أنني كنت أحلم؛ فحاولت أن

أسترجع وعيي. خطوت إلى الأمام باندفاع وجرأة؛ فركت عينيّ؛ صرخت بصوت عالٍ، ولملمت أطرافي. وحين ظهر أمامي فجأة جدول صغير من الماء، انحنيت وغسلت يدي ورأسي وعنقي، فزالت المشاعر العجيبة التي كانت قد أزعجتني. نهضت رجلاً جديداً، كما خُيّل إليّ، وتابعت سيري بخطى ثابتة في طريقي المجهول.

«أخيراً بعد أن أنهكني التعب وثقل الهواء على صدري، جلست تحت شجرة. نفذ إلى عيني شعاع ضعيف من ضوء الشمس، وانعكست ظلال أوراق الشجرة على العشب. حدّقت في تلك الظلال خلال دقائق مندهشاً. فقد أذهلني شكلها وطبيعتها. رفعت رأسي إلى الشجرة، فإذا هي شجرة نخيل.

«نهضت مسرعاً وبحالة من الانفعال المخيف ـ ذلك لأن ما ساورني قبلاً من أنني كنت في حلم لم يعد ليقنعني ـ رأيت ـ شعرت بأنني أمتلك كامل قواي ـ وأدخلت هذه المشاعر إلى روحي عالماً جديداً وفريداً. فجأة ارتفعت حرارة الهواء لدرجة لا تطاق. انتشرت في الهواء رائحة غريبة. وتناهت إلى مسامعي دمدمة خفيفة، لكنها متواصلة، تشبه الصوت الذي يتصاعد من نهر كبير بطيء الجريان؛ كانت هذه الدمدمة تبلغ أذني ممزوجة بأصوات بشرية كثيرة العدد.

«بينما كنت أنصت بدهشة هائلة لا حاجة لوصفها، هبّت دفعة قويّة من الريح وانتزعت غلالة الضباب الكثيفة كأنما بفعل ساحر.

«وجدت نفسي في سفح جبل مرتفع، أمامي نهر عظيم يجري في سهل فسيح. وعلى ضفة ذلك النهر، تنتشر مدينة بدت لي أشبه بالمدن الشرقية التي نقرأ عنها في القصص العربية، لكنها كانت تتميز بشيء فريد لم نسمع به في أية قصة من تلك القصص. كنت أقف في نقطة ترتفع كثيراً عن مستوى المدينة، لذا كان باستطاعتي أن أشاهد كل حدودها وزواياها كما لو أنها مرسومة على خارطة. كانت شوارعها عديدة لا تحصى، تتقاطع في مختلف الاتجاهات بدون أي انتظام، وهي أشبه بالأزقة الضيّقة الطويلة؛ كانت هذه الأزقة تكتظ بالسكان لدرجة لا تصدق. وبدت البيوت زاهية بهية بشكل غريب، والشرفات والمآذن، والأنصاب الدينية والشبابيك المقعَّرة تتدلى من كل ناحية. وكانت تكثر فيها البازارات التي تعرض فيها الأقمشة بأنواعها المختلفة المتمازجة الألوان من الموسلين والحرائر والأقمشة القطنية، وأبهى الجواهر والدرر. إلى جانب هذه البضائع، كان يبدو حشد من الأعلام والحمَّالات والهوادج تطل منها الصبايا المقنعات؛ والفيلة المزركشة بالألوان المختلفة، والتماثيل الدينية الملونة، والطبول والصنوج والحراب والمطارف المطعَّمة بالفضة والذهب. بين الضجَّة والفوضى، وسط جماهير غفيرة من الناس السود والصفر، المجلببين المعمّمين والملتحين، كان يتجوَّل قطيع عظيم من الأبقار المقدسة، بينما كان عدد كبير من القرود ينطّ ويتراقص ويعلق بالمآذن والنوافذ. بين هذه الشوارع التي تموج بالناس وبين ضفاف النهر كان ينحدر سلم طويل ينتهي إلى الحمامات؛ بينما يبدو النهر وكأنه يشق طريقه بصعوبة بين السفن المتعددة المثقلة بالبضائع، التي تعبره في جميع لاتجاهات. وخارج حدود

المدينة كانت الأشجار الضخمة تتوزع في غابات متفرّقة، أشجار من النخيل، والكاكاو وغيرها من الأشجار القديمة التي يبلغ عمرها مئات السنين. كما يبدو هنا وهناك حقل من الأرز أو كوخ مزارع، أو بركة ماء، أو برج للعلف، أو مخيّم للغجر، أو قد تقع عينك على عذراء وحيدة تمضي صوب النهر العظيم وعلى رأسها جرَّة.

«لا شك أنكم ستقولون الآن إنني كنت في حلم. ولكن الأمر ليس كذلك. لأن ما رأيت ـ ما سمعت ـ ما أحسست به ـ ما فكرت فيه، كل ذلك لم يكن مشوباً بأيّ من الترهات التي تميّز عالم الأحلام. كان كل شيء منسجماً مع سواه، ومع الأحداث التي تقع. عندما شككت في البداية، في أنني أحلم أخضعت نفسي لعدة تجارب أثبتت جميعها أنني كنت بكامل وعيي بدون شك. عندما يحلم أحدنا ويتبادر إلى ذهنه أثناء الحلم ذاته، أنه يحلم لا يخطىء أبداً إدراك حقيقة كونه يحلم، ثم ما يلبث أن يستيقظ للحال. وهكذا فإن نوفاليس محق في قوله: «إننا نكون قد قاربنا أن نستفيق حين نحلم أننا نحلم» فلو أن رؤياي التي وصفتها قد تراءت لي بدون أن أشك في حقيقتها، وبدون أن أخضعها لعدة تجارب لما ادّعيت أنها ليست بالحلم ولكن الأمر كان عكس ذلك، وعليّ أن أعتبرها شيئاً آخر».

«لست واثقاً بأنك مخطىء» قال الدكتور تمبلتون مقاطعاً «ولكن تابع حديثك. الآن نهضت وهبطت إلى المدينة».

«نهضت» قال بيدلوا متطلّعاً إلى الطبيب بدهشة بالغة، «نهضت كما قلت وهبطت إلى المدينة. في طريقي إليها مررت بحشد كبير من الناس يتقاطرون من كل صوب ويتجهون وجهة واحدة، وفي حركاتهم أشدُّ دلائل الهيجان. فجأة وبدافع مجهول شعرت بالاهتمام الشديد بما يجري وينبجس في صدري. بدا لي أنه يترتَّب عليّ القيام بدور معيّن في هذا الحشد الذي يحيط بي؛ أحسست بشعور العداوة العميقة. حاولت أن أختفي من بينهم، وبسرعة هربت سالكاً زقاقاً جانبياً ودخلت المدينة من جهة أخرى. هناك كان يرتفع الضجيج الصاخب والجدال العنيف. رأيت فرقة صغيرة من الرجال ترتدي أزياء نصفها هندي والنصف الآخر أوروبي، وعلى رأسها رجال بلباس الجيش البريطاني، تشتبك في قتال غير متكافىء مع الحشود التي تملأ الأزقة. انضممت إلى الجانب الضعيف متخذاً سلاح ضابط كان قد سقط، ورحت أقاتل عدوّاً لا أعرف من هو بكل قواي. وسرعان ما غلبنا على أمرنا، بسبب تكاثر العدو من الجهة المقابلة. واضطررنا أن نهرب ونلتجىء إلى مجموعة من البيوت الخربة. حصَّنا أنفسنا وبقينا في مأمن خلال برهة وجيزة. لكنني ما لبثت أن رأيت من خلال شقّ في أعلى البيت الذي لجأت إليه، حشداً كبيراً من الرجال في حالة هيجان مريع يحيطون بقصر بهي على ضفة النهر ويهاجمونه ثم رأيت شخصاً ينحدر بسرعة من نافذة ذلك القصر على حبل صُنع من عمامات حرَّاسه، ويبلغ قارباً كان في انتظاره، ثم يسرع به القارب إلى الجهة الثانية من النهر.

«الآن استولى عليّ شعور جديد. تبادلت مع رفاقي بضع كلمات سريعة مؤثرة، وبعد أن تأكدت من أنني ربحت بعضهم إلى جانبي إنطلقت معهم خارج البيت ورحنا نركض وسط الجماهير المحيطة بنا. كانت الجماهير تتراجع أمامنا أول الأمر. لكنهم كانوا يتجمّعون، يقاتلون بجنون ويتراجعون من جديد. في هذه الأثناء كنّا قد ابتعدنا عن المخبأ، وأصبحنا في زقاق ضيق تحيط به العمارات الطويلة الضخمة، ومن هناك ركضنا إلى زاوية لم يبلغها نور الشمس من قبل. واشتدّ ضغط الجماهير علينا، كانوا يهاجموننا بالحراب وينهمرون علينا بوابل من ا لسهام. تلك الأسهم كانت عجيبة فعلاً. كانت تشبه حراب مالي المتعرّجة، التي تصنع على شكل أفعى متلوية، تلك الحراب ذات الرؤوس المسمّمة. أحد هذه الأسهم أصابني في صدغي الأيمن. ترنّحت وسقطت. اعتراني ألم شديد في جسدي كله، قاومت بشدة - ثم تأوهت - ومتّ».

قلت وأنا أبتسم: «الآن لا يمكنك أن تعتبر أن مغامرتك كلها كانت شيئاً غير الحلم. لا يمكنك أن تدّعي أنك الآن ميت؟».

عندما تلفظت بهذه الكلمات. كنت بالطبع أنتظر من بيدلوا ردّاً ممتعاً، وكم كانت دهشتي شديدة حين رأيته يتردّد في جوابه، ثم أخذ يرتجف، وإمتقع لونه بشكل مخيف وبقي صامتاً. حولت نظري إلى ثمبلتون، كان يجلس في كرسيه منتصباً وبلا حراك - كانت أسنانه تصطك وعيناه على وشك أن تقفزا من محجريهما: أكمل حديثك قال الطبيب بعد وقت قصير بصوت أجش.

فتابع بيدلوا حديثه قائلاً:

«لعدة دقائق تلت موتي، كان شعوري الوحيد - إحساسي الوحيد - ليس شيئاً سوى الظلمة والعدم، مع وعيي التام بأنني ميت. بعد مدة أحسست وكأنّ روحي قد اعترتها هزّة قويّة ومفاجئة كصدمة التيار الكهربائي. ومع تلك الهزة عاد إليّ الشعور بالتمدد والإحساس بالضوء. لم أر الضوء إنما أحسست به. شعرت خلال برهة وكأنّني أخرج من بطن الأرض. لكن، لم أكن لأملك حضوراً جسدياً، سمعياً أو بصرياً. كانت الحشود قد غادرت المكان، والصخب قد توقف. بدت المدينة هادئة نسبياً- تحتي كان جسدي ملقى على الأرض وفي صدغي السهم الذي اخترقه، ورأسي قد انتفخ بكامله، وتغيّر شكله. لكنني لم أرَ هذه الأشياء، بل شعرت بها. لم يتملكني اهتمام بشيء. حتى ان الجسد الميت ذاته لم يستحوذ منّي على أيّ اهتمام. ولم أكن أملك إرادتي. بدا لي كأنني كنت مجبراً على الحركة. طفرت بخفة خارج المدينة متبعاً نفس الطريق التي قدمت منها. عندما وصلت تلك النقطة من الطريق حيث التقيت بالضبع، اعترتني ثانية تلك الهزة الروحية، وشعرت أنني أستعيد حاسة الثقل والإرادة والمادة. عدت إلى نفسي الأصلية ذاتها، وتوجهت بشوق صوب البيت - على أنّ ما مضى لم يفقد أبداً حرارة الحقيقة - والآن لا يمكنني أن أقنع نفسي ولو للحظة واحدة، بأن ما مرّ كان حلماً».

«ولم يكن كذلك» قال ثمبلتون وسيماء الجد تكسو ملامحه، لكن من الصعب أن نتمكن من

تحديد نوعية هذا الاختبار. لنفترض فقط أن روح الإنسان المعاصر هي على شفير إكتشافات نفسية هائلة. ولنكتفِ بهذا الافتراض. أما ما تبقّى من الحكاية فعندي له بعض الأمور الإيضاحية. بين يدي لوحة مائية كان عليّ أن أريك إيّاها من قبل، لكن شعوراً هائلاً من الهلع قد منعني من ذلك».

نظرنا إلى الصورة التي عرضها الطبيب. لم أرَ فيها شيئاً خارقاً للعادة، غير أنّ تأثيرها في بيدلوا كان هائلاً، وكاد أن يغمى عليه وهو يحدّق فيها. ذلك أنّ اللوحة كانت صورة مصغرة - صورة طبق الأصل عنه - عن تقاطيعه العجيبة غير العادية. على الأقل كان ذلك ما تبادر إلى ذهني عندما رأيت اللوحة.

«بإمكانكم أن تشاهدوا تاريخ هذه اللوحة». قال ثمبلتون. «التاريخ مكتوب هنا، في هذه الزاوية لدرجة تصعب معها رؤيته. إنه العام ١٧٨٠. فلقد رسمت الصورة في هذا التاريخ. إنها تشبه صديقاً ميتاً هو السيد ولديب - الذي تعرفت عليه في كالكوتا خلال فترة حكم وارن هاستينغ. كنت آنذاك في العشرين من عمري. عندما رأيتك للمرة الأولى يا سيد بيدلوا في ساراتوغا، كان الشبه العجيب بينك وبين صاحب هذه الصورة هو السبب الذي جعلني أتقرّب منك وأسعى لاكتساب صداقتك، وأتدبر الأمور بشكل جعلني مرافقك الدائم. كان يدفعني إلى ذلك شعور الأسى العميق الذي أكنّه لصديقي الراحل، وكذلك بدافع شعور لا يخلو من الهلع، تجاه طبيعتك وشخصيتك الغريبتين.

«في قصتك عن الرؤيا التي شاهدتها بين الجبال، وصفت بتفصيل دقيق جداً بينارس المدينة الهندية التي تقع على النهر المقدس. الفوضى والقتال والمجزرة التي تحدثت عنها هي الأحداث التي وقعت حقيقة عام ١٧٨٠ إبان ثورة شييث سنغ حين أصبح هاستينغ في خطر حقيقي على حياته. والرجل الذي هرب بواسطة الحبل المصنوع من العمامات كان هو شييث سنغ نفسه. والجماعة التي اعتصمت في البيوت الخربة، هم فرقة من الهنود المستخدمين في الجيش البريطاني وبضعة ضباط بريطانيين، على رأسهم هاستينغ. ولقد كنتُ أنا أحد أفراد هذه الفرقة وبذلت أقصى جهدي لأمنع هجوم الضابط الذي سقط في الزقاق المزدحم صريعاً بسهم مسموم أطلقه أحد البنغاليين. ذلك الضابط كان هو صديقي العزيز - ولديب. وسترى من هذه المخطوطات» (وهنا أخرج المتكلم دفتراً فيه بضعة أوراق تظهر عليها كتابة حديثة) «انني، لحظةَ كنت ترى رؤياك تلك في الجبال، كنت أنا هنا أقوم بتسجيلها في هذا الدفتر».

بعد حوالي الأسبوع، من هذه الحادثة ظهرت في أحدى صحف شارلوتسفيل الكلمات التالية:

«بأسف بالغ ننعي السيد بيدلو، الرجل الذي إكتسب بصفاته الحميدة وفضائله المتعددة مودّة أهالي البلدة.

كان السيد بيدلو لعدة سنوات خلت يصاب بنوبات عصبية طالما هددّت حياته. لكن هذه النوبات لم تكن على ما يظهر السبب المباشر لوفاته.

السبب المباشر هو شيء فريد. خلال إحدى رحلاته إلى «الجبال الوعرة» منذ أيام قليلة أصيب بحمى نتج عنها إزدياد الدم في رأسه. فلجأ الدكتور تمبلتون إلى الفصم الدموي كي يخفف إنصباب الدم في الرأس، وإستعمل في ذلك العلق الدموي بوضعه على الصدغين. لكن السيد بيدلو فارق الحياة خلال برهة وجيزة جداً؛ وقد وجد صدفة أنه في الوعاء الذي استحضرت فيه العلقات دودة سامة نادراً ما توجد في المستنقعات المجاورة. وقد التصقت هذه الدودة في شريان **الصدغ الأيمن**. وكان التشابه الكبير بين شكلها وشكل العلقات التي تستعمل في الفصم الدموي هو الذي أدّى إلى عدم تدارك الخطأ إلاّ بعد فوات الأوان.

ملاحظة الحشرات السّامة التي تشبه العلق يمكن تمييزها بلونها الأسود، وعلى الأخص، بالتوائها على شكل تثنيات الأفعى».

كنت أتحدّث إلى صاحب الجريدة التي نشرت خبر وفاة السيّد بيدلوا حين خطر لي أن أسأله عن سبب سقوط الحرف الأخير من اسمه حين كتابة النبأ.

قلت: «أنّك بطبيعة عملك ولا شك مرجع في التهجئة، ولكنني كنت أعتقد أن أسم المرحوم كان بيدلوا وليس بيدلو».

«مرجع؟ كلاّ، أبداً، إنها مجرّد غلطة مطبعية. الاسم ينتهي بالألف في كل أنحاء العالم، ولم أعرف أنّه يكتب بغير هذا الشكل في حياتي». هكذا أجابني صاحب الجريدة.

آنذاك قلت وأنا أستدير راجعاً؛ «حقاً إن الحقيقة أغرب من أي خيال ـ إذ ماذا يكون بيدلوا بدون الألف في نهاية الاسم غير ولديب بشكل مقلوب؟ وهذا الرجل يقول إنها غلطة مطبعية.

الصندوق المستطيل

منذ سنوات خلت قمت برحلة بين شارلستون ومدينة نيويورك على ظهر سفينة اسمها «الاستقلال» بقيادة الكابتن هاردي. كان مقرّراً أن نبدأ رحلتنا في الخامس عشر من حزيران، إذا كانت حالة الطقس مؤاتية. صعدت قبل موعد الرحلة بيوم واحد إلى السفينة لأتعرف على غرفتي وأجري فيها بعض الترتيبات عرفت أنَّه سيكون على ظهر السفينة عدد كبير من الركاب بينهم كثير من السيدات خلافاً للمعهود في أمثال هذه الرحلات. كما وجدت في لائحة المسافرين أسماء عدد من أصحابي. وقد سرَّني أن أجد اسم السيد كورنيلوس وَياط على اللائحة. كان وَياط الفنَّان الشاب صديقاً حميماً لي منذ أيام دراستنا الجامعية، حين كنا نمضي معظم أوقاتنا معاً. كان يتميّز بحساسية العباقرة وكان مزيجاً من الحماس وتجنّب الناس ورهافة الحس. ويجمع إلى هذه الميزات أخلص وأنبل قلب إختلج في صدر إنسان.

لاحظت أن وياط قد حجز ثلاث غرف. وعندما استعرضت لائحة المسافرين وجدت أنه حجز محلّات لنفسه ولزوجته واختيه. كانت غرف السفينة واسعة، في كلٍّ منها سريران الواحد فوق الآخر. ومع أن أسرة السفن ضيّقة عادة يستحيل أن يتسع الواحد منها لأكثر من شخص، فلم أفهم تماماً حاجة الأشخاص الأربعة إلى ثلاث غرف. كنت آنذاك في حالة عقلية تجعل المرء يتساءل عن أتفه الأمور، وأعترف بخجل، أنني بذلت جهداً كبيراً وأساليب ملتوية لمعرفة السبب في حجز الغرفة الثالثة. لم يكن الأمر يعنيني، بالطبع، لكن ذلك لم يصرفني عن عزمي على إكتشاف اللّغز. أخيراً توصّلْت إلى نتيجة جعلتني أستغرب كيف لم أكتشف السر بسهولة. «ترافقهم خادمة ولا شك» قلت مخاطباً نفسي. لكن حين عدت إلى اللائحة مرة ثانية ظهر لي خطأي. ويبدو أنهم اعتزموا بادىء الأمر ان يستصحبوا خادمة إضافية ولا ريب ـ شيء ثمين لا يريده أن يقع بين يدي سواه، شيء يرغب بالاحتفاظ به تحت بصره ـ آه ، الآن عرفت ـ هي

لوحة ولا شك، وهذا ما كان يساوم عليه نيكولينو الإيطالي اليهودي». أشبعت هذه النتيجة فضولي وصرفت النظر عن الموضوع.

كنت أعرف أختي وَياط معرفة جيدة. كانتا فتاتين حلوتين ذكيتين: أما وَياط فقد كان حديث العهد بالزواج ولهذا لم يتسنّ لي أن أتعرّف على زوجته. لكم تحدّث عنها في حضوري بطريقته الحماسية المعهودة. كان يصفها بالجمال الخارق وسرعة البديهةوالمهارة، لهذا كنت شديد الرغبة في التعرّف عليها.

حين كنت أزور السفينة ذلك اليوم (الرابع عشر من الشهر) أخبرني القبطان أن وَياط وصحبه قادمون لزيارتها أيضاً ـ ولهذا إنتظرت ساعة زيادة عمّا كنت أنوي أن أصرفه هناك. على أمل أن أرى العروس؛ لكن القبطان أخبرني بعد قليل بأنه تلقى خبراً يقول يأن السيدة وَياط لَيست على ما يرام ولذا لن تزور السفينة قبل موعد الرحيل.

في اليوم التالي حين كنت في طريقي من الفندق إلى المرفأ التقيت بالكابتن هاردي الذي قال انه «بسبب الظروف ـ (هذه العبارة السخيفة التي تطلق جزافاً) لن تبحر «الاستقلال» قبل يوم أو يومين وأنه عندما يكون كل شيء جاهزاً للسفر سيعلمني بذلك». لقد أدهشني هذا التأجيل، إذ إنَّ الريح كانت أكثر ما تكون ملاءمة للسفر. وحاولت دون جدوى أن أكتشف «الظروف غير المناسبة». لم يكن أمامي سوى الرجوع إلى الفندق ألجم لجاجتي على مهل.

لم يرسل القبطان كلمته المنتظرة قبل حوالي الأسبوع. حالما تسلمتها توجّهت على الفور إلى السفينة. وجدتها تعج بالركّاب، وكل ما على ظهرها في حالة الضجيج والفوضى التي تسبق الإبحار. بعد عشر دقائق من وصولي أطلّ وَياط وأهله ـ الأختان والعروس والفنان؛ وبدا لي أن وياط يجتاز إحدى نوبات تجنب الناس. كنت قد إعتدت مثل هذه الحالات من صديقي، لذا لم أعرها أيّ إهتمام. أما هو فلم يحاول أن يقدمني إلى زوجته ـ فاستدركت أخته ماريان الأمر، وكانت فتاة جميلة جداً وذكية ـ وقدمتنا الواحد إلى الأخر بكلمات سريعة.

كانت السيدة وياط تضع على وجهها قناعاً محكماً. وعندما رفعت القناع لترد على تحيتي لم أتمالك من الدهشة ـ ولولا أن تجاربي علّمتني أنّه ليس من الحكمة التسليم بآراء وياط في كل ما يتعلق بجمال النساء لكان تعجبي يفوق هذا الحد. كنت على علم تام بأية حرارة يندفع صديقي في أغداق الأوصاف المثالية حين يكون الموضوع متعلقاً بالجمال.

الحقيقة أنني رأيت السيدة وياط عادية جداً إن لم أقل بشعة أو على الأقل قريبة من البشاعة. لكنها كانت ترتدي ثياباً أنيقة جداً، مما جعلني أعتقد أنها قد أسرت قلب صديقي بجمال الفكر والروح. تفوّهت بعبارات قليلة جداً، بعد ذلك أسرعت إلى غرفتها برفقة زوجها.

الآن عاد فضولي القديم يقلقني. لم تكن تصحبهم خادمة؛ كان هذا جلياً أكيداً، فرحت أرتقب الأمتعة الإضافية. بعد قليل وصلت إلى الميناء عربة تحمل صندوقاً من خشب الصنوبر ذا شكل مستطيل. وبدا لي أن هذا الصندوق هو الشيء المنتظر. بعد وصوله أقلعنا فوراً ولم يطل بنا الوقت حتى أصبحنا في عرض البحر.

كان الصندوق المذكور كما قلت ذا شكل مستطيل. كان طوله حوالى ست أقدام وعرضه قدمين وعلوه نصف قدم. راقبته بإهتمام لأني أحببت أن أكون دقيقاً. كان شكل الصندوق غير عادي، وحالما رأيته سرّني أنني أحكم على الأمور بدقة. كنت قد توصلت إلى نتيجة واضحة كما أشرت سابقاً، وهي أن المتاع الإضافي لصديقي الفنان كان عبارة عن لوحات فنية، أو على الأقل لوحة فنية لأنني عرفت أنه كان قد تفاوض مع نيكولينو لعدة أسابيع خلت: ـ والآن هذا هو الصندوق الذي لا شك أنه يحتوي على نسخة من «العشاء الأخير» للفنان ليوناردو، وكنت أعرف أن النسخة التي رسمها روبيني في فلورنسا للعشاء الأخير، هي في حوزة نيكولينو. لهذا اقتنعت بيني وبين نفسي أن الأمر لم يعد غامضاً. وكم ضحكت في سري عندما تأملت مقدار حدة ملاحظتي. كانت هي المرة الأولى التي عرفت فيها أن وياط يخفي عليّ شيئاً من أسراره الفنية، لكنه على ما يظهر كان ينوي أن يقوم بلعبة على ظهري ويهرّب اللوحة إلى نيويورك تحت سمعي وبصري دون أن أعرف عن الأمر شيئاً. ولهذا قررت أن أستدرجه إلى الموضوع في الحال أو أية فرصة أخرى تسنح في المستقبل.

بقي سر واحد لم يشغلني مطلقاً، وهو أن الصندوق لم يوضع في الغرفة الإضافية الفارغة إنما وضع في غرفة وياط حيث احتلّ كل أرض الغرفة تقريباً ـ مما يسبب إزعاجاً أكيداً للفنان وزوجته، خصوصاً أن الدهان الذي أستعمل لكتابة العنوان كان يشيع رائحة مزعجة، لا بل رائحة أحسست أنها كريهة. لقد كتب على الغطاء بحروف كبيرة الكلمات التالية: «السيدة اديليد كورتيس الباني نيويورك، بواسطة كورنيلوس وياط، هذا الوجه إلى فوق، الرجاء نقله بعناية».

كنت على يقين بأن السيدة آديليد كورتيس التي تسكن في الباني، هي حماة الفنّان ـ والعنوان بكامله لم يخدعني. إذ أعتبرت أنه كتب خصيصاً لتضليلي، وهكذا أيقنت بأن الصندوق وما فيه لن يصل إلى مكان أبعد من ستوديو صديقي، في شارع تشامبرز نيويورك.

كان الطقس جميلاً خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى، والريح هادئة جداً خاصة بعد أن أستدرنا بإتجاه الشمال حالما إبتعدنا عن الشاطىء. كان الركاب مرحين يميلون إلى الإختلاط والعشرة. أقول هذا مستثنياً وياط وأختيه الذين كانوا يتصرفون بجفاء، بل كان سلوكهم نحو الركاب أقرب إلى عدم الاحترام. لم أهتم كثيراً بتصرفات وياط. فقد كان مكتئباً أكثر من عادته ـ بالحقيقة كان مغموماً ـ لكنني كنت على إستعداد لتقبل مثل هذا الشذوذ. أما الأختان فلم

أجد لمسلكهما أي عذر. لقد اعتزلتا في غرفتيهما معظم الوقت ورفضتا أي إتصال مع أي مسافر آخر رغم إلحاحي المتكرر عليهما بذلك.

كانت السيدة ویاط أكثر إنسجاماً من البقية، أعني أكثر كلاماً، وكثرة الكلام في عرض البحر ليست بالأمر المرغوب كثيراً. أصبحت على علاقة وثيقة مع أكثر السيدات المسافرات، وكانت دهشتي بالغة إذ شعرت أنها لا تميل إلى التحدث مع الرجال. لقد سلّتنا جميعاً، أقول «سلّتنا» ـ ولا أدري كيف أوضح ما أقول. الحقيقة هي أن السيدة وياط كانت أكثر الأحيان مصدر ضحك منها وليس لها. لم يكن الرجال يشيرون إليها كثيراً، لكن النساء أخذن بعد فترة وجيزة يَصفنْها بأنها «مخلوقة طيبة القلب لا يثير مظهرها أي شيء، جاهلة وعامية المستوى». التساؤل الذي كان يتردد على الشفاه هو كيف وقع وياط في هذه الورطة ـ الثروة، كان هو الجواب الشائع ـ لكنني كنت قد عرفت من وياط بأنها لا تملك دولاراً واحداً، ولا تنتظر أن ترث أي شيء من أي مصدر. لقد تزوّج كما قال «للحب، وللحب وحده، وأن عروسه تستحق منه ما هو أكثر بكثير من الحب». عندما تأملت في أقوال صديقي هذه وجدتني محتاراً إلى حدّ كبير. هل فقد عقله؟ أي شيء كان يمكن أن يرد إلى ذهني؟ ویاط الرجل المثقف، المرهف الحس النافذ البصيرة إلى كل شائبة، الذي يقدّس الجمال! لم يكن هناك شك بأن السيدة كانت من جهتها مولعة به ـ خاصة في غيابه، عندما كانت تضع نفسها موضع سخرية لكثرة ما تردد أقوال زوجها. كانت كلمة «زوجي» لا تفارق شفتيها ـ أو على حد تعبيرها الشيّق «زوجي دائماً على رأس لساني». ومع الوقت أصبح الجميع يلاحظون أن وياط يتجنّبها بشكل خاص، إذ ينفرد في غرفته معظم الوقت، ويغلق الباب على نفسه، تاركاً لزوجته الحرية الكاملة في أن تتصرّف كما تشاء في البهو العام للمسافرين.

الخلاصة التي توصلت إليها بعدما رأيت وسمعت، كانت ان الفنّان بسبب إحدى زلّات الصدف، وربما بسبب نزوة هيام متّقد، قد ربط بينه وبين مخلوقة هي أدنى منه بكثير، وان النتيجة الحتمية لذلك كانت كرهه السريع لها. لقد أثار شفقتي من أعماق قلبي ـ لكن، لهذا السبب بالذات لم أتمكن أن أغفر له كتمانه أمر «العشاء الأخير» وهذا ما دفعني أن أصمم على الثأر.

في أحد الأيام صعد وياط إلى سطح السفينة، فوضعت ذراعي في ذراعه كعادتنا ورحنا نتمشى جيئة وذهاباً. كان كئيباً ليس لكآبته قرار (الأمر الذي كنت أبرره بعد أن عرفت ظروفه). كان قليل الكلام، والقليل الذي يتفوّه به، كان يخرج من فمه بجهد وألم. حاولت أن أتندّر بفكاهة بين الحين والآخر، فما كانت فكاهاتي لتلقى منه سوى ابتسامة صفراء. يا للمسكين! حين فكرت ن وجته عذرته، حتى ولو لم تنفرج شفتاه عن طيف إبتسامة. أخيراً قررت أن أقتحم صلب الموضوع. رأيت أن أبدأ بإشارات واضحة إلى الصندوق المستطيل ـ لأجعله يدرك تدريجياً بأنني لم أكن ضحية سهلة لدعابته ـ العبارة الأولى التي بدأت فيها مخططي كانت تتعلق ببطارية

موضوعة في صندوق، ثم قلت شيئاً ما حول «الشكل الغريب لذلك الصندوق» واتبعت قولي بلمسة خفيفة من أصابعي لخاصرته، وغمزته كما لو أنني على علم بشيء هام.

الطريقة التي استقبل بها وياط هذه الدعابة الخفيفة أقنعتني حالاً بأن الرجل مجنون. في البدء حدّق فيّ كمن يستحيل عليه فهم ما أعني، لكن حين بدأت كلماتي تجد طريقها إلى رأسه، أخذت عيناه تنتفخان تدريجياً كأنهما تحاولان أن تقفزا من محجريهما. ثم أصبح لونه شديد الإحمرار - ثم شديد الشحوب - أخيراً، وكأنه سُرَّ كثيراً بما قلت، انفجر بضحكةٍ صاخبة استغرقت، لفرط دهشتي حوالي عشر دقائق أو أكثر، سقط بعدها على وجهه فوق ظهر السفينة. عندما ركضت لأرفعه بدا لي ميتاً.

إستغثت، وبعد جهد كبير قدرنا أن نعيده إلى رشده. حين إستفاق تكلم لبضع دقائق أشياء لا معنى لها. أخيراً فصمناه ووضعناه في فراشه. في صباح اليوم التالي ظهر وكأنه استعاد جميع قواه، الجسمانية منها على الأقل؛ وبالطبع لا يمكنني أن أقول شيئاً عن قواه العقلية. تجنبته منذ ذلك الحين حتى نهاية الرحلة نزولاً عند إشارة القبطان الذي كان على ما يظهر متفقاً معي كلياً فيما يتعلّق بجنونه، لكنه نبهني كي لا أذكر شيئاً عن ذلك لأي شخص آخر.

بعد هذه النوبة حدثت أشياء كثيرة أخرى أدّت إلى إثارة فضولي الذي كان يتملكني في كل حال. من هذه الأشياء الحادثة التالية: ذات مساء كنت عصبياً - شربت شاياً أخضر قوياً قدمه لي القبطان بكميات زائدة، فلم أتمكن من النوم أثناء الليل - بل لم يغمض لي جفن خلال ليلتين. كانت غرفتي متصلة بالقاعة الخارجية، أو غرفة الطعام، ككل الغرف الأخرى التي يحتلها غير المتزوجين. وكانت غرف وياط الثلاث في مكان متصل بالقاعة من الجهة الأخرى،ويفصل بينها وبين غرفة الطعام باب صغير لا يقفل أبداً حتى في الليل. كانت الريح قوية، تهب على السفينة بشدة، مما جعل السفينة تميل بكاملها مع الريح. وفي مثل هذه الحالة، حين يصير جانب السفينة الأيمن مائلاً أكثر من المعتاد، كان الباب الذي يفصل الغرف يُفتح ويبقى كذلك دون أن يكلّف أحدٌ نفسه عبءَ النهوض من فراشه ليغلقه. كان وضع سريري يتيح لي أن أرى الجهة الثانية بوضوح إذ كان باب غرفتي مفتوحاً وفُتح الباب المذكور (وكنت أترك بابي مفتوحاً بسبب الحر)، هكذا كنت أستطيع أن أرى جيداً الجانب الذي توجد فيه غرف السيد وياط وصحبه. النتيجة انني خلال ليلتين (غير متتاليتين) بينما كنت مستيقظاً في فراشي رأيت السيدة وياط بكل وضوح تخرج بحذر من غرفة زوجها حوالي الساعة الحادية عشرة، تسير ببطء وعلى رؤوس أصابعها، ثم تدخل الغرفة الإضافية الفارغة حيث تبقى حتى طلوع الفجر حين يذهب زوجها ويوقظها فتعود معه إلى غرفته. وقد أكد لي هذا أنهما منفصلان ولذايستعملان غرفتين مستقلتين. وليس أبلغ من هذا الدليل على إنفصالهما. هكذا اكتشفت أخيراً لغز الغرفة الإضافية.

هناك شيء آخر أثار إهتمامي لدرجة كبيرة. وهو أنه خلال الليلتين المذكورتين وفور خروج السيدة وياط من غرفة زوجها إلى الغرفة الإضافية تناهت إلى سمعي أصوات غريبة،

حذرة مكبوتة صادرة من غرفة السيد وياط. بعد أن أنصتّ طويلاً إلى هذه الأصوات وأنا غارق في التفكير فيها، نجحت أخيراً ولو جزئياً في معرفة طبيعتها. كانت ناجمة عن محاولات الفنان لفتح الصندوق المستطيل بواسطة إزميل ومطرقة صغيرة ملفوفة كما يظهر بشيء ناعم كالقطن أو الصوف كي يخنق صوتها حين الاستعمال.

بهذه الطريقة تصورت أنني أتمكن من تحديد الدقيقة التي يتوصل بها إلى خلع الغطاء ـ وأيضاً متى يكون قد ازاحه كلياً ومتى يضعه على السرير السفلي في غرفته. هذه النقطة الأخيرة عرفتها من الصوت الذي يصدر عندما يصطدم غطاء الصندوق بحرف السرير الخشبي، حين يحاول الفنان أن يضعه عليه بكل لطف، إذ لم يكن له مكان على الأرض. بعد ذلك تلي فترة هدوء عميقة ولا أعود أسمع شيئاً حتى طلوع الفجر ما عدا ـ بإمكاني أن أضيف هذا ـ صوت نحيب مكبوت، أو تمتمة ضعيفة لدرجة أنها تكادلا تُسمع، هذا إذا لم تكن الأصوات الأخيرة من ثمرات خيالي. أقول أنها أصوات تشبه النحيب أو التأوه ـ لكن، بالطبع، لم تكن شيئاً من هذا القبيل. أفضّل أن أعتبرها أصواتاً تخرج من أذنيّ. كان من عادة السيد وياط أن يترك العِنان لنزعاته ـ خاصة ما تعلّق منها بالحماس للفن. وهكذا فهو يفتح الصندوق كي يشبع عينيه من التحفة الفنية التي في الداخل؛ على أية حال لم يكن في هذا الصندوق ما يجعله ينتحب. لذا أكرر بأن تلك الأصوات كانت من نتاج خيالي الذي هيّجه شاي القبطان هاردي. قبل الفجر بقليل، في تينك الليلتين المذكورتين، سمعت السيد وياط بوضوح يعيد الغطاء إلى الصندوق ويعيد المسامير إلى أمكنتها بواسطة المطرقة الملفوفة كان بعد أن ينتهي من هذا يندفع خارجاً بكامل ثيابه ويدعو السيدة وياط من غرفتها.

مضى علينا في البحر سبعة أيام. وكنا قد مررنا بمضيق هاتيراس عندما أتتنا ضربة قاصمة من الجنوب الغربي. كنا إلى حدٍّ ما مستعدين لها، إذ كان الطقس يسوء تدريجياً يوماً بعد يوم.

أبحرنا تحت هذا الغطاء بأمان لمدة ثمان وأربعين ساعة ـ وقد برهنت السفينة على أنها مركب بحري ممتاز إذ لم يدخلها من الماء شيء يذكر. في أواخر هذه المدة انقلبت السكينة إلى إعصار مزق أشرعة السفينة وتركنا نتخبط بين الأمواج وغمرت المياه السفينة. أدى هذا إلى فقدان ثلاثة رجال كانوا في المطبخ السطحي، وكل المتاريس التي في الجهة اليسرى. ما كدنا نسترجع وعينا بعد أن تمزق الصاري الأمامي إلى نتف حتى ساد البحر جمود يتخلل العاصفة لفترات قصيرة، فأمضينا بعض الوقت على حال جيدة. وأخذت السفينة تعوم على الماء بثبات وإتزان.

إلا أن الإعصار لم يهدأ، وما كنا نترقب هدوءه بكثير من الأمل. لم تكن احزمة الأشرعة محكمة الربط، فضلاً عن أنها كانت قد توترت بشدة، في اليوم الثالث من العاصفة حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر إندثر، إثر دفعة قوية من الريح، صاري المؤخرة وسقط على السفينة. حاولنا خلال ساعة أو أكثر أن نتخاص منه لكن دون جدوى، بسبب تأرجح السفينة، وقبل أن

ننجح في ذلك، أسرع النجّار يعلن لنا أن الماء في السفينة أصبح يعلو أربعة أقدام. وقد إزداد مأزقنا حراجة حين وجدنا أن المضخات قد تعطلت ولم تعد صالحة للعمل.

ساد السفينة جوٌ من اليأس والفوضى - لكننا رحنا نبذل جهودنا لتخفيف الأحمال، فأخذنا نلقي في البحر كل ما تصل إليه أيدينا، وقطعنا الصاريين الباقيين. أتممنا هذه المهمة لكننا لم نتمكن من القيام بأي عمل لإصلاح المضخات، وأخذ تدفق المياه يزداد.

عند مغيب الشمس خفت حدة الاعصار وهدأت معها ثورة البحر، وهكذا احتفظنا ببعض الأمل في أن ننقذ أنفسنا بواسطة القوارب. حوالي الثامنة مساء هبت الريح وبددت الغيوم فأطلّ القمر بتمامه - وكأنه قطعة من الحظ السعيد ساعدت في رفع معنوياتنا.

بعد جهد وعناء نجحنا في أن نسحب القارب الطويل من جانب السفينة وحشرنا فيه جميع البحّارة وغالبية الركاب. تحركت هذه الدفعة بسرعة، وبعد عذاب ومشقات كثيرة وصلت سالمة إلى أوكراكوك في اليوم الثالث بعد الحادث.

بقي في السفينة أربعة عشر راكباً مع القبطان، بعد أن قرروا إستعمال قارب النجاة الصغير الموجود في المؤخرة. أنزلنا القارب بدون صعوبة، ومن العجيب أنه حين لمس وجه الماء لم ينقلب، إذ كان فيه عندما عام، القبطان وزوجته، السيد وياط وجماعته، ضابط مكسيكي وزوجته مع أطفالها الأربع وأنا بالإضافة إلى خادم زنجي.

طبعاً لم يكن في القارب أية فسحة تتسع لأي شيء سوى قليل من الأدوات الضرورية جداً وبعض الأجهزة والثياب المحزومة على ظهورنا. لم يفكر أحد مجرد تفكير بأن ينقذ أي شيء آخر. وكم كانت دهشة الجميع بالغة حين وقف السيد وياط بعد أن ابتعدنا بضعة أمتار عن السفينة، وطلب بكل سذاجة من القبطان أن يعيد القارب إلى السفينة لاستحضار صندوقه المستطيل.

- «أجلس يا سيد وياط» أجاب القبطان «ستهلكنا إن لم تجلس بهدوء؛ لقد بلغ الماء حافة القارب».

«الصندوق!» صرخ السيد وياط وهو ما يزال واقفاً - لا يمكنك يا كابتن هاردي، يجب أن لا ترفض طلبي. سيكون ثقله شيئاً بسيطاً - لا شيء - مجرد لا شيء. بحق الأم التي حملتك - بحق السماء - بحق أمل نجاتك، أرجوك أن نعود للصندوق!»

بدا القبطان لبرهة وجيزة وكأنه تأثر من كلمات الفنان، لكنه إستعاد ملامح الجد وقال:

«إنك مجنون يا سيد وياط. لا أقدر أن أستمع إليك. أجلس، أقول أجلس وإلا ستغرق القارب بنا. قف، أمسكوه - أقبضوا عليه! - إنه على وشك أن يقفز إلى الماء! هيا، لقد توقعت ذلك رمى بنفسه!».

وفيما كان القبطان يقول هذا، قفز السيد وياط إلى الماء فعلاً، وبما أننا كنّا ما نزال قريبين

من مكان الحطام، تمكَّن بعد جهد فوق حد البشر، من أن يمسك بحبل، يتدلَّى من السلاسل الأمامية للسفينة. بعد قليل أصبح فوق السفينة واندفع إلى الداخل باتجاه الغرف.

في هذه الأثناء كانت المياه قد دفعتنا بعيداً عن السفينة وأصبحنا تحت رحمة البحر المخيف، الذي كان ما يزال يهدر. حاولنا جهدنا أن نعود إلى الوراء لكن قاربنا الصغير كان كالريشة في مهب العاصفة. واتضح لنا بلمح البصر أن مصير الفنان السيء الحظ أصبح معروفاً.

وبينما كانت المسافة التي تفصلنا عن السفينة تتزايد رأينا الرجل المجنون (إذ كنا قد اعتبرناه مجنوناً لا أكثر) يظهر على السطح ويجر بقوة لا يملكها بشري صندوقه المستطيل أولاً ثم حول نفسه عدة مرات، واندفع به إلى البحر الذي ابتلعهما كلياً بسرعة فجائية وإلى الأبد.

مكثنا برهة، أيدينا على المجاذيف وأعيننا مسمَّرة في مكان الفاجعة. وبقينا في صمت استمر مدة ساعة، صمت مثقل بالحزن. أخيراً تجرأت أن أتفوه بشيء فقلت:

«هل لاحظت يا حضرة الكابتن كيف غرقا فجأة؟ ألم يكن ذلك شيئاً غريباً؟ لقد خامرني بعض الأمل في نجاته عندما شاهدته يربط نفسه إلى الصندوق ويرمي بنفسه في الماء».

«لقد غرقا دون ريب» قال القبطان «كما يغرق الرصاص. على كل لن يلبثا طويلاً حتى يعوما ـ لكن ليس قبل أن يذوب الملح».

«الملح»! صرخت مندهشاً.

«هش» قال القبطان، مشيراً إلى أختي المرحوم وزوجته. «ستتكلم عن هذا في وقت آخر».

قاسينا كثيراً لكننا أخيراً نجونا. فقد حالفنا الحظ، كما حالف رفاقنا في القارب الذي سبقنا. وحين نزلنا إلى البر كانت حالتنا أقرب إلى حالة الموتى منها إلى الأحياء. بعد أربعة أيام بين الأهوال نزلنا على الشاطىء المقابل لجزيرة رواندك. بقينا هناك أسبوعاً، وتسنَّى لنا أخيراً أن نستأنف رحيلنا إلى نيويورك.

بعد حوالي الشهر من غرق الباخرة «الاستقلال» التقيت الكابتن هاردي صدفة في برودواي. وتطرّق حديثُنا طبعاً إلى تلك المأساة، وإلى المصير المؤلم الذي لاقاه المسكين وياط. عندها عرفت التفاصيل التالية:

كان الفنان قد حجز أمكنة لنفسه وزوجته ولأختيه والخادمة. وكانت زوجته تماماً كما كان يحكي عنها. سيدة رائعة الجمال عالية الإدراك مثقفة. في صباح الرابع عشر من حزيران (اليوم الذي زرت فيه السفينة) مرضت السيدة فجأة وماتت. فجُنَّ الزوج المسكين من فرط الحزن. لكن الظروف لم تسمح له بأن يؤخر سفره إلى نيويورك، وكان من الضروري أن يحمل جثمان زوجته الحبيبة إلى أمها. والمعروف أنه يصعب على الركاب تقبل مثل هذا الأمر. إذ لو عرفوا

بذلك لكان أكثرهم فضَّل مغادرة السفينة على السفر برفقة جثة.

في هذا المأزق رأى الكابتن هاردي أن يشحن الجثمان على أنه متاع عادي. وذلك بعد أن يحفظ جيداً وتوضع معه مقادير كبيرة من الملح في صندوق متناسب الحجم. لم يكن قد شاع بعد خبر موت السيدة. وبما أنه كان معروفاً أن السيد وياط قد حجز مكاناً لزوجته فقد أصبح من الضروري أن يشغل شخصٌ ما مكانها. واستتب الرأي على أن تقوم بهذا الدور خادمة السيدة المتوفاة. ولذا فالغرفة الأضافية التي حجزت منذ البداية باسم الخادمة، بقيت محجوزة وفي هذه الغرفة كانت تنام الزوجة غير الحقيقية. وأثناء النهار كانت تقوم قدر ما تمكنها مواهبها بتمثيل دور السيدة، بعد أن تأكدوا من أن أحداً من المسافرين لا يعرفها.

كان خطأي ناجماً عن فضول بالغ، ولا مبالاة، ومزاج سريع التأثر. لكنني في الأيام الأخيرة لم أعد أستطيع النوم ملء عيني مطلقاً. كان طيف وجه يتبعني باستمرار أينما سرت. وستبقى ضحكة هستيرية تقرع أذني إلى الأبد.

جزيرة الجنّية

يقول مارمونتيل في قصصه الأخلاقية «إنَّ الموسيقى هي وحدها بين الفنون تستمتع بنفسها؛ الفنون الأخرى تحتاج إلى شهود». وهو هنا يمزج بين لذة الإصغاء إلى ألحانٍ عذبةٍ والقدرة على إبداعها. لكن الموسيقى تعجز عن توليد متعة كاملة إن لم يكن هناك شخصٌ ثان لكي يقدّر تنفيذها. ثم إنَّ القدرة على توليد تأثيرات نستلذّ بها مليّاً في الوحدة ليست وقفاً عليها؛ إنها مشتركة بين المواهب الأخرى. الفكرة التي لم يستطع القاصّ أن يدركها بوضوح أو التي جعلها في تعبيره ضحيَّة الحب الوطني للقَّصّ المختصر، هي بدون شك الفكرة الأكثر توكيداً بأن الموسيقى الرفيعة هي التي نشعر بها أكثر من غيرها في وحدتنا. هذا الرأي سرعان ما يقبله هؤلاء الذين يحبون القيثارة حبّاً بالقيثارة وفوائدها الروحية. لكن هناك لذة هي دائماً في متناول الإنسانية الفانية ـ ربما كانت الوحيدة ـ، والتي تعود حتى أكثر من الموسيقى إلى الشعور اللاحق بالوحدة. أقصد أن أتحدث عن السعادة التي نحسّ بها عندما نتأمل مشهداً من مشاهد الطبيعة. والواقع أن الإنسان الذي يريد أن يتأمل سواجهةً مجد الله على الأرض، لا بدَّ له من أن يتأمل هذا المجد في الوحدة. الحضور، بالنسبة لي على الأقل، ليس حضور الحياة الإنسانية فحسب، بل أيضاً حضور الحياة بجميع أشكالها الأخرى ـ هو عارٌ بالنسبة للطبيعة: إنه في حرب مع جنّي المشهد.

إنني حقاً أحب تأمل الوديان المظلمة، والصخور الدكناء، والمياه التي تبتسم بصمت، والغابات التي تتنهَّد في نعاسٍ قلقٍ، والجبال المتكبرة الحذرة الناظرة من فوق. ـ أحب تأمل هذه الأشياء من أجل ما هي: الأعضاء الضخمة لكلٍّ واسع، حيّ وحساس، ـ كلٍّ ذي شكل (شكل الكرة) هو أكثر الأشكال كمالاً ووضوحاً؛ حيث ترافق دربه الكواكب الأخرى؛ وحيث القمر خادمه الوديع؛ والشمس سيدته الوسيطة؛ وحيث الأبدية حياته، وفكر الله فكره؛ وحيث غبطته معرفة؛ وحيث تضيع أقداره فيما لا حدود له.

تدلنا مجاهرنا وأبحاثُنا أن الفضاء، وبالتالي، الحجم شيء كثير الأهمية في نظر الله القدير. الدوائر التي تتحرك فيها الكواكب هي الأكثر صلاحاً للتطور، دون صراع، ـ تطوّر أكبر عدد ممكن من الأجسام. ولقد اختيرت أشكال هذه الأجسام خصيصاً لكي تحتوي تحت مساحة معينة، أكبر كمية ممكنة من المادة؛ والمساحات نفسها جاهزة بشكل يتيح استقبال سكان أكثر عدداً مما يمكن أن تستقبلهم لو جهزت بشكل مغاير. وبما أن الفضاء لا نهائي، فلا يمكن أن نستخرج أية حجة ضدَّ الفكرة القائلة بأن للحجم قيمة في نظر الله؛ إذ قد لا تملأ هذا الفضاء اللانهائي إلا مادة لا نهائية. وحيث أننا نكتشف دوائر في دوائر دائماً بلا نهاية ـ تتحرك مع ذلك حول مركز واحد بعيد بلا نهاية، والذي هو الألوهة، ـ أفلا نستطيع أن نفترض، بالمقارنة وبالطريقة نفسها، الحياةَ في الحياة، والأصغر في الأكبر، والكلّ في الروح الإلّهي؟ الحق أننا نكون حمقى وأغبياء في تصورنا أن الإنسان، في مصائره الزمنية أو المقبلة، هو أكثر أهمية في الكون من هذا التراب الفسيح في الوادي الذي يزرعه ويزدريه والذي يرفض الإقرار أن له روحاً بحجة سطحية هي أنه لا يرى هذه الروح تمارس وظيفتها.

هذه الأفكار وما يشبهها لوَّنت دائماً تأملاتي بين الجبال والغابات، قرب الأنهار والبحر بلون لم يفت الأشخاص العاديين أن يسمّوه وهمياً. كانت نزهاتي الشاردة وسط مشاهد من هذا النوع عديدة، ولا مثيل لها، ومنزوية غالباً؛ وكان الاهنمام الذي يدفعني للشرود خلال أكثر من وادٍ عميقٍ ومظلم، أو تأمل سماء العديد من البحيرات الصافية، اهتماماً تغنيه بقوة فكرة أنني كنت أشرد وحيداً وأتأمل وحيداً. من هو الفرنسي الثرثار الذي يقول، مشيراً إلى كتاب زيمرمان المشهور: «الوحدة شيء جميل، لكن لا بدَّ من شخص يقول لكم إن الوحدة شيء جميل؟» هذا كهجاء، في غاية الإتقان؛ لكن هذه الضرورة في لا بدَّ! شيء لا وجود له.

وفي رحلةٍ قمت بها إلى إحدى المناطق النائية، ـ وهي عبارة عن جبال معقَّدة متداخلة مع جبالٍ أخرى، ومنعرجات أنهرٍ كئيبة، وبحيرات دكناء راكدة ـ رأيت جدولاً صغيراً يحيط بجزيرة. وصلت إلى هناك بغتة في شهر حزيران، شهر الأوراق، واستلقيت على الأرض، تحت أغصان شجرة عابقة بالأريج لا عهد لي بها، بحيث أنني غفوت وأنا أتأمل هذه اللوحة. فقد شعرت أنني لن أقدر على رؤيتها جيداً إلا بهذه الطريقة، ـ لكثرة ما تتصف بخصائص الرؤيا.

كانت ترتفع من الجهات كلها ـ باستثناء الغرب حيث كانت الشمس تشرف على المغيب ـ أسوار الغابة الخضراء. كان الجدول الصغير الذي ينعطف بسرعة ويختفي هكذا فجأة عن النظر، يبدو عاجزاً عن الإفلات من سجنه؛ لكنه كان يبدو من جهة الشرق مغموراً باخضرار الأشجار القوي؛ ـ وكان يسقط في الجهة المعاكسة (هكذا كان يبدو لي، كما كنت نائماً وعيناي إلى السماء) في الوادي، دون وسيطٍ ولا ضجة، شلالٌ رائعٌ، بلون الأرجوان والذهب، تقذفه الينابيع الغربية في السماء.

قريباً من مركز المنظر الذي كان نظري الرائي يعانقه، كانت تجلس على حدود الجدول،

جزيرة صغيرة دائرية، فاتنة الإخضـــرار.

كان الشاطىء وصورته من التمازج البديع.

بحيث بدا المنظر كله معلّقاً في الهواء.

وكان الماء الشفاف يمثل دور المرآة حتى أنه كان من المستحيل تقريباً أن نخمّن في أية نقطة من المنحدر الزمرّدي يبدأ حقله البلّوري.

كـان وضعي يتيح لي أن أرى بنـظرة واحدة ودفعـة واحدة طـرفي الجزيـرة، من الشرق والغرب؛ وقد لاحظتُ فيهما اختلافاً واضحاً. كان طرفها الغربي حرماً مشعًّاً من جمال الحدائق، يلتهب ويحمرّ تحت أهداب الشمس المائلة ويبتسم منتشياً بأزهاره كلها. كان العشب قصيـراً، ليّناً، عطرياً، تلوّنه أزهار البرواق، والأشجـار ناعمـة زاهية، مستقيمـة، ـ متلألئـة، لطيفـة، رشيقـة، ـ شرقيـة بشكلها وأوراقهـا، ذات قشر أملس، لمّاع وذي ألـوانٍ عديـدة. كأنمـا كان إحساس عميق بالحياة والفرح يتدفق في كل مكان؛ ومع أن السماء لم تكن تنفخ أية نسمة، فقد كان كل شيء يبدو متحركاً بآلاف الفراشات التي كانت تبدو، بهروبها الناعم وطيرانها السكران، أزهار خزامى مجنّحة.

أما الجهة الشرقية فكانت مغمورةً بظلٍّ أسود كثيف. هنـا، كانت الكـآبة القـاتمة، لكن المليئة بالهدوء، تلفّ كل شيء. كانت الأشجار سـوداء اللون، حزينـة بشكلها وهيئتهـا ـ تعلو كأشباحٍ من الرماد، موحيةً بالهموم والموتِ المبكر. وكان العشب حانياً كالصفصـاف وكأنـه في حِداد. وكانت ترتفع هنا، تلالٌ صغيرة، منخفضة، غير طويلة، تبدو كالقبور، مع أنها ليست قبوراً، وإن كانت أزهار العبو ثران والسذاب تتسلق فوقها وحواليها. وكان ظل الشجر يسقط ثقيلاً على الماء وكأنما يغوص فيه ناقلاً الظلمات إلى أعماقه. كان يُخيل إليَّ أن كل ظـلٍّ ينفصل آسفـاً، بقدر مـا تنخفض الشمس، وتنخفض دائماً ـ ينفصـل عن الجذع الـذي لفَّه ويختـطفـه الجدول في أحشائه، بينما تولد ظلالٌ أخرى في كل لحظة لتأخذ مكان الظلال التي غرقت وماتت.

هاجتني هذه الفكرة فضعتُ حالاً في تخيـلاتي. كنت أقول في نفسي: إذا صَـحَّ أنَّ هناك جزيرة سُحرت، فإن هذه الجزيـرة مسحورة، لا شـك. إنها ملتقى بعض الجنّيات الجميـلات اللواتي نجـونَ من إبادة جنسهنّ. هـل هذه القبـور الخضراء قبـورهنّ؟ هـل يُسلمن أرواحهنّ الناعمة على غرار البشر؟ أو بالأحرى أليس موتهنَّ نوعاً من الفناء الكئيب؟ هـل يُعدن إلى الله وجودهنَّ رويداً رويـداً، وهنَّ يستنفذنَ ببطءٍ روحهنّ حتى المـوت، كهذه الأشجـار التي تُسلم ظلالَها واحداً بعد الآخر؟ ما تمثله الشجرة التي تتلاشى بالنسبة للماء الذي يبتلعُ ظلها ويُصبح أكثر ظلاماً بالفريسة التي التهمها، أفلا يصح على الجنّية بالنسبة للموت الذي يطويها؟».

وبينما كنت أحلمُ هكذا، وعيناي نصف مطبقتين، والشمس تهبط سريعاً صوب المغيب، والريح تركض حول الجزيرة، حاملةً قشوراً كبيرة، مضيئة، بيضاء مسلوخةً من جذوع الجمّيز

ـ تراءى لي أن شبح إحدى هذه الجنّيات التي حلمت بها، يتقدَّم، طالعاً من القسم الغربي المضيء في الجزيرة، ويجري بطيئاً نحو الظلمات. كان الشبح واقفاً في قارب صغيرٍ هشٍ يحركه بشبح مجداف. وعندما كان لا يزال تحت أشعة الشمس الأخيرة، كان يبدو فرحاً، ـ لكن الحزن أفسد ملامحه حين مرَّ في منطقة الظل. ثم دار بطيئاً حول الجزيرة، وعاد إلى منطقة الضوء.

تابعت، حالماً: «الدورة التي أكملتها الآن الجنّية هي دورة سنة قصيرةٍ من حياتها. لقد اجتازت شتاءها وصيفها، واقتربت سنةً من الموت، ورأيت جيداً، وهي تدخل في الظلام، كيف كان ظلها يُفلت منها ويبتلعه الماء الداكن لتزيد عتمته عتمة».

ومن جديدٍ ظهر القارب الصغير، مع الجنّية؛ لكن كان في هيئتها الآن مزيدٌ من الهمّ والهواجس، وقليلٌ من الفرح. كانت تجدّف من منطقة الضوء نحو الظلام ـ الذي كان يتكاثف كل لحظة ـ ومن جديدٍ، أفلت ظلها منها، وسقط في الآبنوس السائل وابتلعته الظلمات. ودارت مراتٍ عديدة حول الجزيرة، بينما كانت الشمس تتهاوى إلى الغروب ـ وفي كل مرةٍ تبرز فيها من الضوء، يزداد حزنها، وتصبح أكثر وَهَناً وإرهاقاً، وتغمُضُ ملامحها؛ وفي كل مرة تدخل منطقة الظلام، كان يُفلت منها شبحٌ أكثر سواداً يبتلعه ظلٌّ أكثر سواداً. لكن أخيراً، حينما غابت الشمس، أصبحت الجنّية طيفاً خالصاً ودخلت مع قاربها في منطقة النهر الآبنوسي، ولا أستطيع القول إنها خرجت أو ستخرج منها، لأن الظلمات خيمت على كل شيء، ولم أعد أرى شكل الجنّية الساحر.

القلب الذي كشف السر

صحيح! - إنني عصبيٌّ جداً، عصبيٌّ بشكل مرعب - كنت هكذا دائماً؛ لكن لماذا تزعمون أنّني مجنون؟ لقد شحذَ المرض حواسي، - لكن لم يهدّمها - لم يفلّ من حدَّتها. صارت حاسَّة سمعي أكثر إرهافاً من حواسي الأخرى. سمعت أشياء السماء والأرض كلّها. سمعت أشياء كثيرة من الجحيم. كيف أكون، إذن، مجنوناً؟ انتبهوا؛ ولاحظوا بأية دقة - بأيّ هدوء أستطيع أن أروي لكم الحكاية كلها.

يستحيل عليَّ أن أقول كيف خطرت لي الفكرة أوّلاً؛ لكن، منذ أن خطرت، لم تفارقني نهاراً وليلاً. لم يكن لها هدف. لم يكن جموحها بلا سبب. كنت أحبّ ذلك الشيخ البسيط. لم يؤذني قط. لم يوجّه لي أيَّة إهانة. لم يكن يهمّني ذَهَبُهُ بأي حال من الأحوال. أظنّ أنها عينه! بلى عينه. كانت إحدى عينيه تُشبه عينَ العُقاب - عين زرقاء كامدة، وعليها غشاوة. كان دمي يجمد كلّما نظرت إلى هذه العين: وهكذا ببطء - وبالتدريج - صممت أن أقضي على حياة هذا الشيخ وأتخلّص بهذه الوسيلة من عينه إلى الأبد.

الآن هذه هي العقدة! تظنّونني مجنوناً. المجانين لا يفقهون شيئاً. لكن، لو أنّكم رأيتموني! لو أنكم رأيتم بأية حكمة تصرَّفت! بأي احتراز - بأي تبصر - بأيَّة مداهنةٍ بدأت العمل!

لم أكن يوماً عزيزاً على الشيخ كما كنت طوال الأسبوع الذي سبق مقتله. وفي كلّ ليلة حوالي منتصف الليل كنت أدير مزلاج بابه وافتحه - أوه، بهدوء تامّ؛ وحينذاك عندما أكون قد فتحته بما يسمح لرأسي بالعبور، أدخل مصباحاً معتماً، محكم الأغلاق، بحيث لا يتسرَّب منه أيّ شعاع؛ ثم أدخل رأسي، أوه! كنتم ستضحكون لو رأيتم بأيَّة مهارة ادخل رأسي! كنت أحركه ببطء - بمنتهى البطء - كي لا أفسد على الشيخ رقاده. كانت تلزمني ساعة كاملة لكي

أدخل رأسي كله من خلال فتحة الباب، قبل أن أتمكن من رؤيته نائماً في سريره. ها! هل للمجنون مثل هذه الفطنة؟ - وحينذاك عندما يكون رأسي قد دخل إلى الغرفة، كنت أفتح المصباح بحذر! لكن، أي حذر، أي حذر! لأنَّ مفصَّلة بابه كانت تصرف. كنت أفتحها بحيث تسقط شبكة دقيقة جداً من الضوء على عين العقاب. وهذا ما فعلته مدى سبع ليال طويلة - تماماً في منتصف كل ليلة - غير أنني كنت دائماً أجد العين مطبقة؛ وهكذا كان مستحيلاً عليَّ أن أكمل المهمّة؛ إذ لم يكن الشيخ هو الذي يغيظني، بل عينه الشريرة. وفي كل صباح، عندما يجيء النهار، كنت أدخل غرفته بشجاعة وأتحدَّث إليه بجرأة، أناديه باسمه بلهجة ودية، سائلاً إيَّاه كيف أمضى ليله. لو ظنَّ أنني كنت أراقبه في منتصف كل ليلة، أثناء نومه، لكان شيخاً بعيد النظر.

في الليلة الثامنة كنت أشدّ احترازاً من قبل في فتح الباب. كان عقرب الساعة ينبض أسرع ممّا تنبض يدي. لم أشعر قط قبل هذه الليلة بكل اتساع مواهبي - وعلمي - كدت لا أضبط شعوري بالظفر. أتصوَّر، أنني هناك، أفتح الباب رويداً رويداً، وأنه لم يكن يحلم حتى بما أفعله، ولا بأفكاري المبيّتة! ثم أطلقت لهذا التصوُّر ضحكة صغيرة؛ ولعلَّه سمعني، إذ إنَّه تحرَّك فجأة في سريره، كما لو أنه يستيقظ. لعلَّكم الآن تظنّون أنني تراجعت؛ - أبداً. كانت غرفته تظل سوداء كالزفت، ما دام هذا الظلام كثيفاً - لأنَّ المصاريع كانت مغلقة بعناية، خوفاً من اللصوص - وإذ عرفت أنه لم يكن يستطيع أن يرى فتحة الباب، تابعت دفعه شيئاً فشيئاً.

أدخلت رأسي، وكنت على وشك أن أفتح المصباح، حينما انزلق باهمي على قفل التنك، ونهض الشيخ في سريره صارخاً: «من هناك»؟

وقفت جامداً ولم أتفوه بشيء. لم أحرّك عضلةً طيلة ساعة كاملة، ولم أشعر طيلة هذه الفترة أنه عاد للنوم. كان ما يزال في جلسته يصغي تماماً كما فعلت طيلة ليال كاملة، أصغي إلى ساعات الموت في الجدار.

وفجأة إذا بي أسمع أنيناً ضعيفاً، وتبيَّنت أن هذا أنين رعب مميت. لم يكن أنين ألم أو حزن - أوه! كلا - كان صوتاً مخنوقاً يرتفع من أعماق روح مثقلة بالذُّعر. كنت أعرف هذا الصوت جيداً. كثيراً ما تصاعد من أعماقي أنا، في ليال عديدة، في منتصف الليل بالضبط، والعالم كله ينام - تصاعد نابشاً بصداه الرهيب الأهوال التي كانت تختلج في داخلي. أقول كنت أعرفه جيداً. كنت أعرف أي شيء يعانيه الشيخ، وكنت أشفق عليه على الرغم من أنني كنت أضحك في سري. كنت أعرف أنه بقي متيقظاً، منذ الصوت البسيط الأول عندما تحرَّك في سريره. كانت مخاوفه تتزايد باستمرار. حاول أن يقتنع أنها كانت بدون سبب، لكنه فشل. كان يقول في نفسه: «لا شيء غير الريح في المدخنة، لا شيء غير فأرة تعبر فوق السطح الخشبي»؛ - أو «إنه جدجدٌ صرخ ولا شيء غيره». بلى لقد اجتهد أن يتحصن بفرضياته؛ إلا أن هذا كله كان عبثاً، كان كلّ شيء عبثاً. لأن الموت الذي كان يقترب، عبر أمامه بظله الأسود الكبير، ولفَّ ضحيته.

كان الأثر المأتمي للظل غير الملحوظ هو الـذي جعله يشعر ـ وإن كـان لا يرى ولا يسمـع شيئاً ـ جعله يشعر بوجود رأسي في الغرفة.

حينما طال انتظاري وصبري دون أن أشعر أنه عاد إلى النوم، قررت أن أزيد فتح المصباح قليلاً، لكن بأقل مقدار ممكن. فتحته إذن ـ خفيةً، خفيةً بحيث تعجزون عن تصوّر ذلك ـ إلى أن نفذ أخيراً من الشق شعاع وحيد واهن، كخيط العنكبوت، وسقط على عين العقاب.

كانت مفتوحة ـ مفتوحة جيداً. دخلت مذعوراً حالما لمحتها. رأيتها بوضوح كامل ـ زرقاء كامدة تتغطى بغطاء شنيع جمّد اللبّ في عظامي؛ غير أنني لم أستطع أن أرى غير ذلك من وجه الشيخ أو شخصه، لأنني وجهت الشعاع غريزياً، فوق المكان الكريه بالضبط.

والآن، أما قلت لكم أن ما كنتم تحسبونه جنوناً ليس إلاّ إفراطاً في الحسـاسية؟ ـ الآن، أقول لكم، طرق أذنيّ صوت اصمّ، مخنوق متواتر يشبه الصوت الـذي تحدثـه ساعـة ملفوفـة بالقطن. هذا الصوت عرفته جيداً. كان نبض قلب الشيخ. لقد زاد في رعبي كما تزيـد دقات الطبل شجاعة الجندي.

غير أنني تمالكت نفسي أيضاً، وبقيت دون حراك. حبست أنفاسي تقريباً. كان المصباح ثابتاً في يدي. كنت أجتهد أن أبقي الشعاع باتجـاه العين. وفي الـوقت ذاته كـان نبض القلب الجهنمي يخفق بقوة متزايدة. كان يتسـارع شيئاً فشيئـاً، ويتعالى في كـل لحظة. لا بـدَّ أن ذعر الشيخ كان في ذروته. قلت إن هذا الخفقان كان يزداد شدة في كل دقيقة! ـ هل تتابعونني جيداً؟ قلت لكم إنني كنت عصبياً، وأنا عصبي في الـواقع. والآن، في هـول الليل، وسط السكـون المريع في هذا البيت القديم، يملأ هذا الصوت الغريب روحي برعب لا يقاوم. تمـالكت أيضاً نفسي بضع دقائق وبقيت هادئاً. غير أن الخفقان كان يشتدّ، يشتد باستمـرار! كنت أعتقد أن القلب سينفجر. وها هي حسرة جديدة تستولي علي: ـ يستطيع الجار أن يسمع الصوت! كانت ساعة الشيخ قد جاءت! بزعقة هائلة فتحت المصباح فجأة ودخلت إلى الغرفة. لم تصدر عنه إلا صرخة ـ صرخة واحـدة. في لحظة واحـدة القيته عـلى الأرض، ورميت فوقـه السريـر بأثقـاله الساحقة كلها. إذّاك ابتسمت مبتهجاً، وأنا أرى مهمتي تتكامل بسرعـة. غير أن القلب خفق بصوت ضعيف خلال بضع دقائق. ومع ذلك لم أتضايق، لأنه لم يكن يسمع عبر الجـدار. ثم توقف. مات الشيخ. رفعت السرير وتفحصت جسمه. بلى، كان جثة، جثة هامدة. وضعت يدي على قلبه وأبقيتها عدة دقائق. لا نبض هناك. كان جثة هامدة ولن تعذبني عينه بعد الآن.

إذا كنتم تصـرّون على إعتبـاري مجنونـاً، فإن هـذا الإعتقاد سيـزول عندمـا أصف لكم الاحتياطات الحكيمـة التي قمت بها لإخفـاء الجثة. كـان الليل يتقـدم، فعملت بنشاط، لكن بصمت. قطعت الرأس ثم الذراعين ثم الساقين.

إنتزعت ثلاث خشبات من أرض الغرفة، دفنت هذه القطع وأعدت الخشبات إلى مكانها

ببراعة ومهارة لا تفسحان مجالاً لأي عين حتى عيني أنا، أن تشتبه بأي شيء. لم يكن هناك أي شيء للغسل ـ لا لطخة، لا بقعة من الدم. فطنت جيداً لهذا. وعاءٌ صغيرٌ امتص كـل شيء ـ ها! ها!

حينما أنهيت هذه الأعمال كلها، كانت الساعة تقارب الرابعة ـ وكان الظلام ما يزال مخيفاً كما في منتصف الليل. وبينما كانت الرابعة تدقّ، كان الباب يقرع من الشارع. نزلت لأفتح غير مكترث ـ إذ ماذا أخـاف الآن؟ دخل ثـلاثة رجـال وقدّمـوا أنفسهم بمنتهى اللطف كضباط في الشرطة. كان أحد الجيران قد سمع صرخة خلال الليل ولّدت لديه الشك بوقوع حادث سيء: ونقل الخبر إلى مركز الشرطة، وهؤلاء السادة الضباط كانوا مرسلين لتفقّد المكان.

ابتسمت ـ إذ ماذا يدعوني للخوف؟رحّبت بهؤلاء السادة ـ قلت إن الصراخ صدر عني وأنا أحلم. وأضفت أن الشيخ المسكين مسافر. طفت بزائريَّ في البيت كله. قلت لهم أن يفتشوا، أن يفتشوا جيداً! أخيراً أخذتهم إلى غرفته. أريتهم خزائنه في حرزٍ حريز، كاملة غير منقوصة. وفي نشوة إطمئناني، جلبت كراسي إلى الغرفة، ورجوتهم أن يرتاحـوا من تعبهم، بينما وضعت كرسي أنا، بجنون الانتصار الكامل، فوق المكان ذاته حيث أخفيت جثة القتيل.

كان الضباط مقتنعين. أقنعهم تصرفي. كنت أشعر بالرّاحة على نحوٍ غـريب. جلسوا، تحدثوا عن أشياء عادية كنت أجيبهم عليها بسرور. غير أنني شعرت بعد قليل من الوقت، أنني شحبت، وتمنيت أن يذهبوا. كان رأسي يؤلمني. وكان يخيـل إليّ أن أذنيّ تدويـان، لكنهم ظلوا جالسين، يتابعون حديثهم. أصبح الدويّ أكثر وضوحاً؛ استمر وإزداد وضوحه كذلك؛أكثرت من الكلام لكي أتخلص من هذا الشعور؛ لكن الدوي إتضح وصار حاسماً ـ إكتشفت في النهاية أنَّ الصوت لم يكن في أذنيّ.

لا شك أن إصفراري ازداد آنذاك كثيراً. غير أنني كنت ما أزال أثرثر بمزيد من السـرعة وبصوت مرتفع. كان الدويّ يعلو باستمرار ـ وماذا كنت قـادراً أن أفعل؟ كـان صوتـاً أصمّ، مخنوقاً متواتراً ـ يشبه الصوت الذي تحدثـه ساعـة ملفوفـة بالقـطن. تنفّست بصعوبـة ـ لم يكن الضباط قد سمعوا شيئاً بعد. تكلمت بسرعة أكثر ـ بمزيد من الحماس؛ لكن الصوت كان يشتدّ دون انقطـاع ـ نهضت، جادلت في تـرّهات كثيـرة بصوت عـالٍ جداً وحـركات عنيفـة. لكن الصوت كان يعلو، يعلو باستمرار ـ لماذا لم يكونوا يريدون أن يذهبوا؟ سرت في أرض الغرفة. هنا، وهناك، بتباطؤ وخطوات كبيرة كأنما أغضبتني ملاحظات هؤلاء الذين كانوا يجادلونني ـ غير أنّ الصوت كان يتزايد بإنتظام . يا ربّ! ماذا كنت قادراً أن أفعل؟ كنت أرغي ـ أهذر ـ أشتم! كنت أهزّ الكرسي الذي كنت أجلس عليه ،وأجعله يصرّ فوق أرض الغرفة، لكن الصوت كان يسيطر دائماً، ويقوى بلا نهاية. كان يصير أقوى ـ أقوى ـ دائماً أقوى! والرجال ما يزالون يتابعون حديثهم، يمزحون ويضحكون. هل كان ممكناً أنهم لا يسمعون؟ أيها الرب القـدير! ـ كـلا ،

كلا! كانوا يسمعون ـ كانوا يشكّون! ـ كانوا يعرفون ـ كانوا يتسلّون برعبي! ـ اعتقدت ذلك، وما أزال أعتقده. لكن، أيّ شيء كان أهون من هذا العذاب. كان باستطاعتي أن أتحمّل كل شيء ما عدا ذلك الهذيان. ما عدت أستطيع أن أتحمّل المـزيد من تلك الابتسـامات المـاكرة. شعرت أنني يجب أن أصرخ أو أمـوت! ـ والآن أيضاً هـل تسمعونـه؟ ـ أصغوا! إنـه أعلى! ـ أعلى! ـ دائماً أعلى! ـ دائماً أعلى!

وصرخت:

«ـ ايهـا الخبثاء لا تـطيلوا كتمانكم أكـثر من ذلك! سـأعترف بـالقضية! ـ إنـزعوا هـذه الخشبات! إنه هنا! إنه هنا! ـ إنه نبض قلبه المرعب».

موريلا

كنت أحس بالنسبة إلى صديقتي موريلاّ بعاطفة عميقة لكنها فريدة. منذ أن تعرّفت عليها صدفة، وقد مرّت بضع سنواتٍ على ذلك، توهّجت نفسي بنارٍ لم تعرفها من قبل؛ ـ لكنها لم تكن نار إيروس، وصار إقتناعي المتزايد بأنني لن أستطيع تحديد مزاياها غير العادية، أو أضبط قوتّها المتغيّرة، عذاباً روحياً أليماً. غير أننا انسجمنا وجمعنا القدر في رابطة الزواج. لم أكن أظهر أي تعلقٍ بها، ولم أتحدث عن الحبّ. كانت رغم ذلك تهرب من النّاس وتتعلق بي وحدي فتجعلني سعيداً. ومن السعادة أن نُدهش؛ ـ ثم أليس الحلم سعادة كذلك؟

كانت موريلاّ على ثقافةٍ واسعة. لم تكن مواهبُها عادية، وكانت طاقتها الروحية هائلة. أدركت ذلك وأصبحت مريدها في مناسباتٍ عديدة. وسرعانَ ما اتضح لي أن موريلاّ، لدراستها في بريسبورغ، كانت تعرض أمامي عدداً كبيراً من هذه الكتب الروحية المعتبرة بشكلٍ عام زبدَ الأدب الألماني الأول. كانت هذه الكتب، لأسباب أجهلها، موضوع دراستها الدائمة المفضلة؛ ـ ولئن أصبحت مع الزمن موضوع دراستي أنا أيضاً، فذلك عائدٌ إلى تأثير القدوة والعادة.

لم يكن لعقلي في هذه الأشياءكلها، إن لم أكن مخطئاً، أي فعل. ولم تكن قناعاتي مبنيةً على المثل الأعلى بأيّ شكل، ولم يكن أحد يستطيع أن يكتشف، إن لم أكن مخدوعاً، أيّ أثرٍ للروحانية سواء في أفكاري وأعمالي. وإذ تيقنت من هذا استسلمت لاتجاه زوجتي ودخلت رابطَ الجأش في متاه دراساتها. وحينما كنت أغوص في الصفحات الملعونة وأشعر بالفكر الرجيم يتأجج في داخلي، كانت موريلاّ تأتي، وتضع يدها الباردة على يدي وتجمع من رماد فلسفةٍ ميتة بضع كلماتٍ غريبة مهيبة كانت تنحفر، بمعناها الغريب، في ذاكرتي. إذاك، كنت أستلقي إلى جانبها، طوال ساعات، حالماً، وأغيب في موسيقى صوتها، ـ حتى يسري الرعب أخيراً في هذا

الصوت؛ ويسقط الظل فوق روحي، وأصفرُّ وأرتعدُ من هذه الألحان التي هي من غير الأرض. وهكذا كانت المتعة تتلاشى بغتةً في الذعر، ويصبح مثال الجمال مثلاً للقبح.

من غير المفيد أن أرسم الميزة الدقيقة للمشكلات، النابعة من الكتب التي أشرت إليها، والتي كانت دائماً تقريباً الموضوع الوحيد للحديث بين موريلا وبيني. سيفهمها بسهولة الأشخاص الذين تثقفوا بما تمكن تسميته الأخلاق اللاهوتية، أما غير المثقفين فلن يفهموا منها إلاّ القليل في أي حال. كانت النزعة الغريبة لتأليه الكون عند فيخته، وفكرة التقمص عند الفيثاغوريين، وفوق هذا كله، عقيدة الوحدانية كما أوضحها شيلنغ ـ كانت هذه بشكلٍ عام موضوع النقاش الذي كان يضفي مزيداً من السحر على شخصية موريلا الخيالية. أظنّ أن لوك قال بحق إن قوام هذه الوحدانية الشخصية هو في إستمرار الكائن العقلي. وبما أننا نفهم الشخص جوهراً مفكراً، مُنح العقلَ، وبما أن هناك وعياً يرافق الفكر دائماً، فإن هذا الوعي هو الذي يجعلنا نكونُ ما نسميه ذواتنا، ـ ويميزنا هكذا عن غيرنا من الكائنات المفكرة، ويمنحنا وحدتنا الشخصية. لكن مبدأ الفردية كان بالنسبة لي مشكلة من أكثر المشاكل أهمية، ليس بسبب طبيعة نتائجه المقلقة والمشوشة فحسب، بل أيضاً بسبب الطريقة الغريبة المنفعلة التي كانت موريلا تتكلم فيها عن ذلك المبدأ.

في الواقع كان سرُّ طبيعة زوجتي قد بدأ يضغط عليّ كالسحر. لم أعد أستطيع تحمل ملامسة أصابعها الشاحبة، أو النبرة العميقة لكلامها الموسيقي ولا بريق عينيها الكئيبتين. وكانت تعرف هذا كله، دون أن تلومني؛ كانت تبدو بصيرة بضعفي أو جنوني وتسمي ذلك وهي تبتسم: القدر. كما كانت تبدو عارفة بأسباب ضعف صداقتي المتزايد، تلك الأسباب التي كنت أجهلها تماماً؛ غير أنها لم تكن تقدم لي أيّ إيضاح أو أية إشارة إلى طبيعة هذه الأسباب. إلا أن موريلا لم تكن سوى امرأة، وكانت تذوي يوماً بعد يوم. في النهاية ظهرت على خدها بقعة ارجوانية لم تغب أبداً. وبرزت العروق الزرقاء في جبينها الشاحب. وكنت أحياناً أذوب شفقة، لكن بعد لحظة، كان يفاجئني بريق عينيها المثقلتين بالأفكار، وإذّاك كانت روحي تأسى وتعاني مثل دوار شخص غاصت عيناه في هاوية رهيبة لا قرار لها.

هل أقول إنني كنت أتطلع بلهفة حادة ضارية إلى لحظة موت موريلا؟ هكذا كان الأمر؛ لكن الروح الهشة تشبثت بمأواها الصلصالي، خلال أيام عديدة، بل أسابيع عديدة وشهور عديدة مملّة، حتى أن أعصابي العذبة انتصرت في النهاية على عقلي وصرت مذعوراً من هذه التمهلات كلها ولعنت بقلب شيطاني الأيام والساعات والدقائق المرة التي كانت تبدو أنها تتطاول وتتطاول دون إنقطاع، بقدر ما كانت حياتها النبيلة تتوارى كالظلال في إحتضار النهار.

لكن موريلا نادتني إلى سريرها ذات مساء خريفيّ بدا فيه الهواء جامداً في الفضاء. كان ثمّة غطاء من الضباب على الأرض كلها ووهج حارٌّ فوق المياه، وكان من ينظر إلى مباهج تشرين في أوراق الغابة يحسب أن قوس قزحٍ جميلاً قد سقط من السماء.

قالت حينما اقتربت:

- ها هو يوم الأيام، أجمل الأيام للحياة أو للموت. هذا يوم جميل لأبناء الأرض والحياة - آه إنه لأكثر جمالاً كذلك لبنات السماء والموت!

قبلت جبينها وتابعت:

- سأموت، مع ذلك سأحيا.

- موريلاّ!

- لم تأت مطلقاً الأيام التي سُمحَ لك فيها أن تحبّني؛ - لكن هذه التي كرهتها في الحياة، سوف تعبدها في الموت.

- موريلاّ!

- أكرر أنني سأموت. لكن في أحشائي شهادة لهذه العاطفة - آه، يا لها من عاطفة زهيدة! - التي شعرت بها نحوي أنا، موريلاّ. وحينما ستذهب روحي سيعيش الطفل، - طفلك، طفلي أنا، موريلاّ. لكن أيامك ستكون أياماً مليئةً بالكآبة، - الكآبة التي هي أكثر الإنفعالات بقاءً، كما هو الشربين أطول الأشجار بقاءً؛ ذلك أنَّ ساعات سعادتك قد انقضت، والفرح لا يجتنى مرتين في العمر، كما تقطف أزهار (بيستوم) مرتين في السنة الواحدة. لن تلعب بعد مع الزمن لعبة الإنسان في مرفأ تيوس؛ ويصير الريحان والدالية شيئين مجهولين لك، وتحمل معك كفنك أنّى رحلت في الأرض.

لكنها أدارت وجهها نحو الوسادة وسرت رعشة خفيفة في أعضائها وماتت ولم أعد أسمع صوتها.

مع ذلك فإنَّ أبنتها التي وضعتها وهي تموت والتي لم تتنفس قبل أن تلاشت أنفاس أمها، هذه الطفلة عاشت كما تنبأت أمها. وكبرت بشكل غريب، قامة وذكاء، وأصبحت الشبه الكامل لتلك التي غابت. أحببتها أعنف الحب الذي لا أعتقد أنني قادر على الشعور به نحو أي كائن فوق الأرض.

ولم يمرّ وقت طويل حتى اكفهرت سماء هذه المحبة الصافية، وغطتها غيوم الكآبة والرعب والحسرة. قلت إن الطفلة كبرت بشكل غريب قامة وذكاءً. الحق إن سرعة نموها الجسدي كانت غريبة، - لكن الأفكار الصاخبة التي احتشدت فيّ وأنا أراقب نمو هذا الكائن العقلي، كانت رهيبة، أواه، رهيبة. هل كان يعقل أن تأتي أفكاري على غير هذه الصورة، وأنا أكتشف يومياً في تصورات الطفلة مواهب المرأة الراشدة؟ - حين كانت أمثولات الخبرة تخرج من شفاه الطفولة؟ حينما كنت أرى في كل لحظة حكمة النضج وأهواءه تنبجس من هذه العين السوداء الدائمة التأمل؟ أقول حينما صدم هذا كله حواسي المرعوبة، - حينما استحال على روحي أن تخفيه وقتاً أطول - وعلى قواي المرتعشة أن تدفع هذا اليقين - فهل بقي لي مجال للإندهاش لأن

شكوكاً مخيفة ومقلقة انزلقت في فكري، أو لأن أفكـاراً ترتبط بـالقصص الغريبـة والنظريـات الأخّاذة لموريلاّ الدفينة انتزعت من فصول العالم كائناً ألزمني القدر بتقديسه؟. وسهرت في عزلتي الشديدة، بقلق مميت على كل ما كان يتعلق بالمخلوقة الحبيبة. وبينما كانت السنوات تمـر، وأنا أتأمل يوماً بعد يوم، وجهها الوديع الناطق، وأدرس أشكالها الناضجة، كنت أكتشف في كل مرّة نقاطاً جديدة من التشابه بين الطفلة وأمها، بين الكئيبة والميتة. وكانت هذه الظلال من التشـابه تتكاثف لحظة بعد لحظة بإمتلاء أكثر ووضوح أكبر، وبلبلة أعظم، ورعب هائل في مظهرها. أن تشبه ابتسامتها ابتسامة أمها، ذلك ما أستطيع تحمّله، لكن أن يكون هذا الشبه كاملاً فشيء كان يملؤني بـالرعب؛ ـ أن تشبـه عينـاهـا عيني مـوريـلاّ كنت أستـطيـع أن أتحمله، لكنهـما كـانتـا تنفذان غالباً في أعماق روحي مثقلتين بنفس المعاني التي كانت تحملها نظرات موريـلا. وكنت أجد في خطوط جبينها العالي وفي خواتم شعرها الحريري وأصابعها الشاحبة التي كانت تغوص فيه عادة، وفي نبرة كلامها الموسيقية الحزينة، وفوق هذا كله ـ أوه ـ فوق هذا كله، ـ في عبارات الميتة وكلماتها، على شفتي الحبيبة، الحية، كنت أجد غذاء لفكر هائل ملتهم، لدودة لا تريد أن تموت.

هكـذا مرت عشر سنـوات من حياتهـا، وظلت ابنتي بـدون اسم عـلى الأرض. كـانت «طفلتي» و«حبي» النداءات التي تمليها عادياً العاطفة الأبوية؛ وكانت عزلة حياتها الصارمة تحول دون أي اتصال آخر. كان اسم موريلاّ قدمات معها. لم أتحدث قط مع البنت عن امها، فقد كان ذلك مستحيلاً عليّ. والحق أن هذه الأخيرة لم تتلقّ خلال فترة حياتها القصيرة أي انطباعٍ عن العالم الخارجي باستثناء الانطباعات التي أمكن أن تتوفر لها في حدود عزلتها الضيقة.

في النهاية بدا لذهني في حالته المنفعلة المتهيجة ان مراسم العمـاد خاتمـة سعيدة لكـل ما أحاق بمصيري من الرعب. ترددت في إختيار الاسم. وتزاحمت على شفتي حشود الأسماء القديمة والحديثة، من بلادي، والبلدان الغريبـة، مع عـدد كبير من الألقـاب العذبـة للنبل والسعـادة والخير.

ما الذي أوحى إليّ إذن بأن أثير ذكرى الميتة الـدفينة؟ أي شيـطان دفعني لأهمس بذلـك الصوت الذي تكفي مجرد ذكراه لتدفع تيار الدم من صدغي إلى قلبي؟ أية روح شريرة تكلمت من أغوار روحي، حين، في تلك الـردهات المعتمـة وفي سكون الليـل همست في أذني الرجـل المقدس مقاطع اسم «موريلاّ»؟ من غير الشيـطان جعل مـلامح طفلتي تتشنّج وصبغها بـألوان الموت. حين سمعت ذلك الصوت الذي يكاد لا يُسمع، أدارت عينيها الصافيتين من الأرض نحو السماء وأجابت وهي تسقط فوق الرخام الأسود لضريح العائلة: **ها أنا**.

لقد سقطت تلكما الكلمتان البسيطتان في أذني بوضوح، سقطتا بوضوح وهدوء باردين، ثم نفذتا إلى دماغي كالرصاص المذوّب. السنوات، السنـوات الطويلة، يمكنهـا أن تمر، لكن ذكرى تلك اللحظة، ـ أواه! أبداً! الزهور والكرمة لم تكونا بالنسبة لي شيئاً مجهولاً؛ لكن أشجار

السرو والشوكران بقيت تظللني ليلاً نهاراً. فقدت كل إحساس بالزمان والأمكنة، وتوارت نجوم قدري من صفحة السماء، وغدت الأرض، مظلمة تمر بي وجوهها كالظلال المترنحة، ولم أكن أجد بينها غير وجه واحد، موريلاّ! رياح السماء لم تكن تهمس لي إلا بصوت واحد، وأمواج البحر كانت تتمتم بلا إنقطاع: «موريلاّ!»؛ لكن موريلاّ ماتت، حملتها بيدي الاثنتين إلى القبر، ثم ضحكت بمرارة وأنا أضع الثانية في الضريح حين لم أجد فيه أثراً لموريلاّ الأولى.

الصمت

قال الشيطان وهو يضع يده فوق رأسي:

- «أصغ إليّ. البقعة التي أتحدث عنها بقعة كئيبة في ليبيا، على ضفاف نهر زائير. وهناك لا راحة ولا صمت.

لمياه النهر لونُ الزعفرانِ وهي مياهٌ وخيمة لا تجري صوب البحر لكنها تخفق أبدياً تحت الشمس الحمراء، في حركة تشنجية صاخبة. وفي كل ناحية حول هذا النهر ذي المجرى الموحل، تمتد صحراء شاحبة من أزهار النيلوفر الضخم. كلّ زهرةٍ تحن إلى أختها في هذه الوحدة؛ وكلها تمد صوب السماء أعناقها الطويلة كالأشباح، وتهز رؤوسها الأبدية. ويتصاعد منها هدير مبهم أشبه بهدير سيلٍ تحت الأرض. وتحنّ كل زهرة إلى أختها.

لكنْ هناك حدودٌ لمملكتها، وهذه الحدود غابة عالية، دكناء، مرعبة؛ حيث الأشجار الصغيرة في حركة دائمة كالأمواج حول جزر هبريد. ومع ذلك، لا ريح في السماء. وتتأرجح الأشجار البدائية الكبيرة من ناحية لأخرى في دويّ قوي. ومن رؤوسها العالية يتساقط ندىً لا ينتهي، قطرةً فقطرة. وحول جذوعها تلتف أزهار غريبة سامة في سباتٍ مضطرب، وتتهاوى الغيوم الرمادية على رؤوسها بحفيف رنان متجهة دائماً نحو الغرب إلى أن ترتمي كشلال وراء سور الأفق الملتهب. ومع ذلك لا ريح في السماء. ولا هدوء على ضفاف نهر زائير ولا صمت.

كان ذلك في الليل، وكانت تمطر؛ وحين كانت تمطر كان ما يتساقط مطراً، لكنه حين يصل إلى الأرض، يصير دماً. وكنت في المستنقع أجلس بين أزهار النيلوفر الكبيرة والمطر يسقط فوق رأسي، وكل زهرة نيلوفر تحن إلى أختها في جلال وحدتها الحزينة.

وفجأة نهض القمر من وراء النسيج الناعم لضباب حزين، وكان بلون القرمز، ووقعت عيناي على صخرةٍ كبيرة رمادية قرب ضفة النهر كان يضيئها القمر. كانت صخرة رمادية،

مشؤومة، عالية ـ وكانت رمادية. نُقِشت عليها حروف ما؛ وتقدمت عبر مستنقع النيلوفر، إلى أن أصبحت قرب الضفة، كي أقرأ الحروف المحفورة. لكنني لم أستطع أن أفك رموزها. وكنت عائداً إلى المستنقع حينما شعّ القمر بحمرة أكثر شدة، فالتفت وتطلعت من جديد إلى الصخرة والحروف؛ ـ وكانت هذه الحروف: الـ حـ ز ن.

نظرت إلى فوق، فرأيت رجلاً على قمة الصخرة؛ أختبأت بين النيلوفر كي أراقب حركاته. كان ذا هيئة كبيرة مهيبة، يلتف من كتفيه حتى قدميه بحلة روما القديمة. وكانت حدود شخصه غير واضحة، ـ إلا أن قسمات وجهه كانت قسمات إلهية تتلألأ رغم عباءة الليل والضباب والندى والقمر. وكانت جبهته عالية وغارقة في التأمل؛ وعينه فريسة الهواجس، قرأت في تقاطيع خديه أساطير الكآبة والتعب والسأم من الإنسانية، وتوقاً كبيراً إلى الوحدة.

جلس الرجل على الصخرة وأسند رأسه إلى يده وأخذ يطوف بعينيه فيما حوله. ـ رأى الشجرات الصغيرة التي لا يهدأ قلقها والأشجار الكبيرة البدائية، وفي الأعلى، رأى السماء المليئة بالحفيف، والقمر القرمزي. وكنت مختبئا بين النيلوفر أراقب حركاته. كان الرجل يرتجف في الوحدة والليل يتقدم، ومع هذا بقي جالساً على الصخرة.

وحوّل الرجل عينيه عن السماء واتجه بهما إلى نهر زائير الحزين، وإلى المياه الصفراء العابسة وإلى النيلوفر الشاحب. وكان يصغي إلى تنهدات النيلوفر وهمسه. وكنت في مخبأي، أترصّد حركاته وهو يرتجف في الوحدة، والليل يتقدم، ومع هذا ظل جالساً على الصخرة.

حينذاك أوغلت في أطراف المستنقع البعيدة، ومشيت فوق غابة النيلوفر اللين، وناديتُ أفراس الماء التي تسكن أعماق المستنقع. وسمعت الأفراس ندائي وجاءت مع البهيموثات إلى الصخرة وزمجرت بصوتٍ عال ومرعب تحت القمر. كنت ما أزال مختبئاً أراقب حركات الرجل. وكان يرتجف في الوحدة والليل يتقدم ـ غير أنه، مع ذلك، بقي جالساً على الصخرة.

حينذاك لعنت عناصر بلية الضوضاء، فتراكمت في الجو عاصفة مخيفة، ولم تعد هناك أية نسمة في أي مكان. وأصبحت السماء زرقاء سوداء من عنف العاصفة، ـ من المطر الذي يضرب رأس الرجل، ـ وفاضت امواج النهر، وأزبد النهر المعذب، ـ وأخذ النيلوفر يصرخ في سريره، وتبعثرت الغابة في الريح، وهدر الرعد، ولمع البرق، ومادت الصخرة. وكنت ما أزال مختبئاً في الوحدة ـ والليل يتقدم؛ ومع ذلك بقي الرجل جالساً على الصخرة.

حينذاك ازداد هياجي ولعنتُ لعنةَ صمتِ النهر، والنيلوفر، والريح، والغابة والسماء، والرعد، وتنهدات النيلوفر. وصعقتها اللعنة جميعاً وصارت خرساء. وتوقف القمر عن السير بعناء في طريقه في الفضاء، ـ وتلاشى الرعد، ـ وتولت الغيوم جامدة، ـ وعادت المياه إلى مجاريها وهدأت فيها، ـ وتوقفت الأشجار عن التمايل، ـ ولم يعد النيلوفر يتنهد، ـ ولم يعد يتصاعد من جموعه أدنى همس أو صوت في الصحراء الواسعة التي لا تحد. ونظرت إلى حروف الصخرة

وكانت قد تغيرت؛ فأصبحت تشكل كلمة: صمت.

وسقطت عيناي على وجه الرجل «وكان شاحباً من الرعب. وسرعان ما رفع رأسه عن يده، ونهض على الصخرة، واصغى. لكن لم يكن هنالك صوت في هذه الصحراء الواسعة التي لا تحدّ، وكانت الحروف المنقوشة على الصخرة: الصمت. وارتعد الرجل، وتلفّت، وهرب بعيداً، بعيداً، بسرعة حتى لم أعد أراه.

ـ إذن، هناك عدد كبير من الحكايات الجميلة في كتب الملوك ـ في كتب الملوك الحزينة المجلدة بالحديد. أقول هنالك حكايات رائعة عن السماء والأرض والبحر القوي، ـ والجن الذين ملكوا على البحر والأرض والسماء العالية. ثمة أيضاً كثير من الحكمة في الكلمات التي لفظتها العرّافات؛ وأشياء مقدسة، مقدسة سمعتها فيما مضى الأوراق التي كانت تهتز حول هيكل دودونا؛ لكنني كما اعتبر أن الله حيّ، أعتبر أن هذه الأسطورة التي قصّها عليّ الشيطان حين جلس قربي في ظلام القبر، هي أكثر الأساطير عجباً! وحين انهى الشيطان اسطورته، غاص في أعماق القبر، واستغرق في الضحك. وما استطعت أن أضحك معه، ولعنني لأنني لم أقدر على الضحك. وخرج الوشقُ من القبر الذي يسكن فيه إلى الأبد، ونام عند قدمي الشيطان وهو يحدق في عينيه.

وليم ويلسون

إسمحوا لي، مؤقتاً، أن أدعو نفسي وليم ويلسون. لا يجوز لهذه الصفحة العذراء المفتوحة أمامي أن تتلوّث باسمي الحقيقي الذي كان موضوع احتقار ورعب ومقت بالنسبة لعائلتي. ألم تنشُر الرياحُ الثائرةُ جسدَ الذي لا مثيل له في أقصى أقاليم الأرض؟ آه! أيُّها المنفيّ الأكثر خذلاناً بين المنفيين قاطبة! ألم تغب عن هذا العالم وأمجاده وزهوره وأحلامه الذهبية إلى الأبد؟ أما علقتَ غيمةً كثيفة، كئيبة، أبدية لا حد لها، بين آمالك والسماء؟

لا أريد، وإن كنت أستطيع، أن أسجن اليوم في هذه الصفحات ذكرى سنواتي الأخيرة بشقائها الذي لا يوصف، وجرائمها التي لا تُغتفر. هذه الفترة الأخيرة من حياتي جرّت معها بشكل غير منتظر، عاراً كبيراً، كل همّي الآن أن أحدّد مصدره. الناس عادة يصيرون أشراراً على درجات. أما أنا فقد نزعت عني كلّ فضيلة في دقيقة واحدة، ودفعةً واحدة كالمعطف. انتقلت بخطوة عملاق من فساد عاديّ إلى أنكر الفواحش. إسمحوا لي أن أحدّثكم بإسهاب عن القدر العارض الغريب الذي سبّب هذه اللعنة. الموت يتقدم، والظلّ الذي يسبقه ألقى في روعي السكينة. أريد أن أؤكد لأشباهي انني كنت؛ بمعنى ما، عبداً لظروفٍ تتحدّى كل رقابة إنسانية. كنت أرغب أن يكتشفوا بالنسبة لي، في التفاصيل التي كان ينبغي أن أقدّمها لهم، واحةً صغيرة من القَدَرِ في صحراء التّيه. كنت أريد أن يوافقوا أن الإنسان، على الرغم من أن هذا العالم مرّ في تجارب عظيمة، لم يُمتَحن بهذا الشكل من قبلُ إطلاقاً ـ وأنه بالتأكيد لم يسقط هذا السقوط. أليس إذن بسبب من ذلك أنه لم يعرف الآلام نفسَها أبداً؟ أما عشتُ، حقاً، في حلم؟ ألا أموت ضحية الرعب والغموض في أغرب الرؤى البشرية؟

إنني أتحدّرُ من سلالةٍ تميّزت دائماً بمزاجٍ سريع التخيّل سهل الإثارة. وبرهنت طفولتي أنني وارثٌ ممتاز لطباع عائلتي. كنت كلما تقدمت في السن برزت هذه الطباع بشكل أقوى؛ حتى

صارت ـ لأسباب عديدة ـ مصدر قلق خطير بالنسبة لي. صرت عنيداً، منقطعاً إلى أكثر الأهواء وحشية؛ صرت فريسة لأكثر الشهوات جموحاً. ولم يكن أبواي السّاذجان يستطيعان عمل شيء ذي بال، لإيقاف الميول السيئة التي تميزت بها، لأنهما كانا يرزحان تحت ضعف وراثي من النوع ذاته، والمحاولات الضعيفة الغبية التي قاما بها أخفقت كلها وانقلبت بالنسبة لي نصراً كاملاً منذ تلك اللحظة. أصبح صوتي قانوناً عائلياً؛ وتُركتُ لأهوائي، في سنٍّ مبكرة يندر أن يُترَكَ الأولاد في مثلها، وأصبحت سيِّدَ أعمالي كلها ـ بإستثناء اسمي.

إنطباعاتي الأولى عن حياتي المدرسية مرتبطةٌ ببيت واسع غريب من الطراز الإليزابيثي، في قريةٍ انكليزية متجهمّـة، مزيّنـة بأشجـار ضخمة وعجـراء، ذات بيوت مغـرقة في القـدم. في الواقع، كانت هذه القـرية القـديمة مكـاناً يشبـه الحلم وكأنه بُني كي يسحرَ الفكر. حتى في هذه اللحظة أتخيّل أنني أستعيد الرعشة الرطبة لشوارعهـا الظليلة، واتنشّق عبـير غابـاتها، وأختلج بنشوة لا توصف لرنّة الناقوس العميقة الصمّاء، وهي تمزق كل ساعة بصوتها المفاجيء الموحش، هدوء الجوّ الرمادي الذي كان يغرق فيه وينام برج الأجراس القوطي المتآكل.

ربما تزداد لذتي بمقدار مـا يتاح لي الإسهـاب في الحديث عن هـذه الذكـريات المـدرسية الصغيرة وتخيّلاتهـا. ستسمحون لي أنـا الغريق في التعـاسة ـ أن أبحث عن تعـزية ولـو عابـرة وقصيرة، في هذه التفاصيل البسيطة الضائعة. لأنها مهما كـانت في الواقـع مبتذلـة ومضحكة، تكتسب في خيالي أهميةً زائدة، بسبب إقترانها الحميم بالأمكنة والوقت الذي تبدت فيه أولى نُذُرِ القدر الغامضة التي غمرتني بظلّها منذ ذلك الحين. إسمحوا لي إذن أن أتذكّر.

قلت إن البيت كان قديماً غريباً، كان واسعاً يحيط به جدارٌ قوي مرتفع من القرميد المغطّى بطبقةمن الملاط والزجاج المكسور. كان هذا السّـور الحريّ بـالسّجن يشكل حـدودنا؛ لم تكن عيوننا تتعدّاه إلا ثلاث مرّات في الأسبوع ـ مرّة السبت، بعد الظهر، برفقة معلمين اثنين، حيث يُسمحُ لنا بالخروج والنّزهة في الحقول المجاورة؛ ومرّتين، الأحد، حين نمضي بنظام، كجوقـة العرض، لحضور القـدّاس الاحتفالي صبـاحاً ومسـاءً في كنيسة القـرية الـوحيدة. كـان رئيس مدرستنا راعيَ هذه الكنيسة. يا للشعور العميق المليء بالدهشة والارتباك الذي كان يساورني حين أنظر إليه من مقعدنـا البعيد عن المـذبح وهـو يرتقي إليـه بمهابـة وبطء! أكان ممكنـاً لهذا الشّخص الوقور، بوجهه الوديع الخجول وردائه الكهنوتي، ذي الرونق البهي وشعـره المستعار المجعّد، المسترسل، الجميل أن يكون نفس الشخص العبوس ذي الثياب الملوثة بالتبغ والذي ينفّذ بعصاه، قوانين المدرسة الصّارمة؟ آه يا للتناقض الفظيع الذي تنفي شناعته كل تأليف!

في زاوية جدار ضخم كان ينهض باب أكثر ضخامة أيضاً، محكم الإغلاق مُجهزٌ بالمغاليق، رُكِّبَتْ عليه شبكة من الحديد المسنّن. يا لمشاعر الخوف العميقة التي كان يوحي بها! لم يكن يفتح أبداً إلاّ لتلك المرّات الثلاث التي ذكرتها، لدى الخروج والرجوع. كنّا نرى في كلّ طقطقة من مفصلاته القوية فيضاً من السر ـ عالماً كاملاً من الملاحظات الرّائعة، أو التأملات الأكثر روعة.

كان الحوش الواسع غير منتظم الشكل ومقسّماً إلى عدّة أقسام، تشكّل ثلاثة أو أربعةٌ منها ساحة الراحة أثناء الفرص. أذكر بوضوح أنه لم يكن فيها شجر ولا مقاعد ولا ما يشبه ذلك. كان موقعها وراء البناء طبعاً. أمام واجهة المدرسة كانت تمتد فسحة صغيرة مغروسة بشجيرات البقس وشجيرات من نوع آخر؛ غير أننّا لم نكن نسير في هذه الزاوية المقدسة إلّا في مناسبات نادرة، كدخول المدرسة للمرة الأولى، أو مغادرتها للمرّة الأخيرة . أو ربّما ـ إذا دعانا صديق أو قريب، نجتازها بفرح إلى البيت في عطل الميلاد والصيّف.

ذلك البناء! ـ كم كان يبدو تحفة قديمة! ـ بالنّسبة لي كان قصراً حقيقيّاً مليئاً بالسّحر! في الواقع لم تكن لخفاياه نهاية ـ ولا لأقسامه التي لا تُفهم. كان من الصعب أن يعرف أحدنا بالتأكيد، في أي طابق يكون ـ في الأول أو في الثاني. إذ كان بين الغرفة والأخرى ثلاث أو أربع درجات للصّعود أو للنزول. وكانت الأقسام الجانبية الكثيرة المعقّدة تلتف وتدور على نفسها، بحيث أنّ أدقّ أفكارنا عن البناء بمجموعه لم تكن تختلف كثيراً عن الأفكار التي نواجه من خلالها اللّانهاية. لم أقدر مرّة واحدة طوال سنوات إقامتي الخمس أن أحدّد بدقةٍ المكان الذي كان مخصصاً لنومنا، أنا وثمانية عشر أو عشرين طالباً آخرين.

كانت قاعة المطالعة أوسع قاعات البناء ـ وحتى أوسع قاعات العالم كلّه؛ أو على الأقل، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من رؤيتها هكذا. قاعة طويلة جداً، وضيّقة جداً ومنخفضة بشكل خانق، ذات نوافذ مضلّعة وسقفٍ من السنديان. في زاوية منعزلة شكلت مصدر الرعب طوال ساعات المطالعة، كان يقوم مربّعٌ مساحته من ثمان إلى عشر أقدام يمثل منبر رئيسنا، الدكتور المحترم برانْسبي. وكان في زاويتين ثانيتين موضعان مشابهان، أقلّ مهابة بالطبع، غير أنهما كذلك مصدران للرعب القوي؛ أحدهما منبر أستاذ الآداب ـ والثاني لاستاذ اللغة الانكليزية والرياضيات. كانت المقاعد والأدراج العديدة مبعثرة في القاعة، مثقلة بالكتب التي لوّثتها الأصابع، تتصالب في فوضى لا نهاية لها ـ سوداء قديمة، عفى عليها الزمن، وما تزال ظاهرة فوقها آثار حروفٍ أولى لبعض الأسماء وأسماء بكاملها وأشكال قبيحة وعدد آخر من آثار السكاكين التي فقدت شكلها الأصلي. وكان في أحد طرفي القاعة دلوٌ كبير مليء بالماء، وفي الطرف الآخر ساعة ذات ضخامة مدهشة.

أمضيت خمس سنوات من حياتي سجيناً وراء الجدران الضخمة لهذه المدرسة الجليلة، لكن دون ضجر أو قرف. دماغ الطفولة الخصب لا يتطلّب عالماً خارجياً من الحوادث كي يلهو ويتسلّ. كانت رتابة المدرسة، الكئيبة في الظاهر تغدق على خيالنا مثيرات أكثر عنفاً وحرارة من جميع المثيرات التي ألهبت بها الشهوة شبابي، أو التي استمدتها رجولتي من الجرأة على الجريمة. لكن ينبغي الاعتراف أن تطوري العقلي في تلك المرحلة كان مبلبلاً وغير مألوف في قسم كبير منه. إن أحداث الطفولة بصورة عامة لا تترك إنطباعاً واضحاً في الإنسان الذي بلغ سنّ النضج. كل ما فيها ظلّ رماديّ، ذكرى واهنة ومضطربة، ومزيج مشوّش من الأفراح الواهية

والمتاعب الوهمية. لم يكن الأمر هكذا بالنسبة لي. لا بدّ أن أكون في طفولتي قد عشت كل ما لا يزال منقوشاً على ذاكرتي بخطوط بارزة وعميقة وباقية كخطوط النقود القرطاجية، لا بد أن أكون قد عشت هذا بكل طاقة الرجل.

هناك في الواقع - واقع العالم المرئي أمور قليلة للتذكّر! النهوض في الصباح، نظام النوم، دروس المذاكرة، الإستظهارات، العطل الأسبوعية والرحلات، باحة الفرصة ومشاجراتها، وتسلياتها، وألاعيبها - هذا كله كان يتضمن في ذاته، بفضل سحرٍ نفسي خفيّ، فيضاً من الأحاسيس وعالماً غنياً بالحوادث، وكوناً من الانفعالات المتنوعة والإثارات الزاخرة بالجموح والنشوة - Oh! le bon temps, que ce siècle de fer![1].

في الواقع سرعان ما ميزتني طبيعتي الحادّة الحماسية، المتغطرسة بين رفقائي وجعلتني شيئاً فشيئاً أتفوق على جميع الذين لم يكونوا أكبر مني، بسهولة تامة - بإستثناء شخصٍ واحد، كان تلميذاً يحمل اسمي نفسه، اسميَ العائلي، واسمي في العمادة دون أية قرابة؛ وهذه صدفة قلما تلفت النظر بحد ذاتها - لأنَّ اسمي، على الرغم من نبالة أصلي، كان مبتذلاً وكان يبدو ملكاً مشتركاً للناس بسبب كثرة التداول. وهكذا تسميّت في القصة باسم وليم ويلسون - وهو اسم مختلق لكنه غير بعيد كثيراً عن الحقيقة. كان سميّي وحده، بين هؤلاء الذين يؤلفون، بلغة المدرسة، صفنّا، يجرؤ أن ينافسني في الدروس - في اللعب ومشاكسات الفرصة - ويرفض الثقة العمياء بأقوالي والخضوع الكامل لإرادتي - ويناوىء تسلّطي في كل مناسبة. إذا كان على الأرض تسلّط هائل ودون تحفظ، فهو تسلطُ ولدٍ عبقري على نفوس رفقائه الأقلّ حيوية منه.

كان تمرّد ويلسون بالنسبة لي مصدر ارتباك كبير؛ لكن على الرغم من تبجّحي الذي كنت أجعل منه واجباً لمعاملته علنياً، هو وادّعاءاته، فقد كنت أشعر أنني ضمنياً أخافه، ولا أقدر أن أمنع نفسي من اعتبار المساواة التي كان يتمسّك بها إزائي، برهاناً على تفوّق حقيقي - وكنت من جهتي أبذل جهداً دائماً كي لا يسيطر عليّ. كنت في الحقيقة أشعر وحدي بهذا التفوّق، أو بالأحرى هذا التساوي؛ لأن أحداً من رفقائنا، لعمىً لا يفسّر، لم يكن يظن فيه حتى مجرّد ظن. الحق أنّ منافسته، ومقاومته، وخصوصاً تدخّله الوقح لمشاكسة مخططاتي كلها، لم تكن ظاهرة بقدر ما هي كامنة. كان ينقصه، كما يبدو، الطموح الذي كان يدفعني للسيطرة، كما كانت تنقصه الحيويّة الجامحة التي أهّلتْني لذلك. كان يبدو وكأنه في هذه المنافسة لا يهدف إلاّ إلى معاكستي، مدفوعاً برغبة جامحة لكي يحيّرني ويقهرني؛ على الرغم من أنني كنت ألاحظ في بعض الحالات، بانفعال تشوبه الدهشة والمهانة والغضب، أنّه كان يمزج إهاناته ووقاحته ومعاكساته ببعض مظاهر المودّة التي ليست في محلّها، والتي تغيظ إلى أبعد الحدود. لم أكن قادراً على فهم سلوك غريب كهذا إلا بإفتراضه نتيجة أدّعاء الحماية والرعاية بشكل مبتذل.

---

(١) بالفرنسية في النص الأصلي. أوه! يا للزمن الجميل، زمن العصر الحديدي!

لعلّ هذه الصفة الأخيرة في سلوك ويلسن، بالإضافة إلى اسمنا المشترك، ودخولنا معاً بالصدفة إلى المدرسة، هي التي أشاعت بين زملائنا في الصفوف العليا أننا كنا أخوين. لم يكن هؤلاء عادة يستخبرون بكثير من الدّقة عن شؤون الطلاّب الأصغر منهم سناً. قلت إنّ ويلسن لم يكن يمت بأية صلة إلى عائلتي، حتى في أقصى درجات القرابة. غير أنّنا لو كنا أخوين لكنّا توأمين بكل تأكيد؛ إذ بعد أن تركت بيت الدكتور برانسبي علمتُ صدفةً أن سميّي مولود في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٨١٣ ـ وهذه أيضاً صدفة غريبة، لأنني ولدت في هذا التاريخ بالضبط.

قد يبدو غريباً أنني لم أكره ويلسون مطلقاً، على الرغم من القلق المستمرّ الذي كانت تسببّه لي منافسته ومعاكساته التي لا تحتمل. كنّا نتخاصم كل يوم تقرَيباً، وحين كان ظاهريّاً يقدم لي في هذا الخصام غار النصر، كان يجتهد أن يجعلني أشعر بشكل ما أنّه هو الذي فاز به، غير أن شعور الزهو من جهتي وشعور الجدارة الحقيقية من جهته، كانا يبقياننا في حدود اللّيّاقة الصارمة، بينما كانت نقاط التشابه في أخلاقنا تكفي لكي توقظ فيّ الشعور الذي يؤثر على وضع كل منا دون أن يتحوّل إلى صداقة. في الواقع، يصعب عليّ أن أحدّد، أو حتى أن أصف مشاعري الحقيقية تجاهه؛ كانت خليطاً متبايناً ومن كل نوع ـ كراهية حادة لم تصر بعد حقداً، إكراماً وإحتراماً أكثر من الخوف، وفضولاً قلقاً هائلاً. من غير المفيد، بالنسبة للأخلاقي أن أضيف أنّ ويلسن وأنا قلّما كنّا نفترق.

كان شذوذُ علاقاتنا والتباسُها هما دون شك اللذان أفرغا كل هجماتي ضدّه ـ وكانت واضحة أو مستترة وعديدة ـ في قالب من السخرية والمزاح (ألا يسبّب المزاح جراحاً بليغة؟) وليس في قالب العداوة الجدية القاطعة. غير أنّ جهودي في هذا الموضوع لم تكن تفوز بالنجاح التام، حتى عندما كانت مخططاتي قد دبّرت ببراعة؛ ذلك أنه كان في أخلاق سميي كثيرٌ من هذه الصرامة المفعمة بالتحفّظ والهدوء التي تتلذّذ بوخز سخرياته الخاصة، ولا تهرب أو تتخلّص ممّا يبعث على السخرية. لم أكن أجد في شخصيته منفذاً للانتقاد إلاّ من خلال وضعه الجسماني، وذلك بسبب نقص في بنيته؛ ولعلّ أي خصم آخر كان يتغاضى عن هذه الناحية لو كان أقلّ تشبّثاً بأهدافه مني ـ كان خصمي يشكو من ضعف في جهازه الصوتي يمنعه من رفع صوته فلا يتجاوز درجة الوشوشة المنخفضة. ولم يكن يفوتني أن آخذ من هذا النقص كل التفوّق الزهيد الذي كنت قادراً عليه.

كان ويلسون يتأثر بأساليب عديدة، إذ كان على نوع من الخبث الذي نغصّني إلى حد كبير. بأية فراسة إستطاع منذ البداية أن يكشف أنّ أبسط الأشياء يمكن أن تغيظني. هذه مسألة لم أستطع قط أن أحلّها غير أنه منذ إكتشافه هذا، مارس هذا التعذيب بعناد. كنت دائم الشعور بالإشمئزاز من اسم عائلتي غير اللائق، ومن اسمي المبتذل إن لم أقل السوقي تماماً. هذه الحروف كانت سمّاً في أذنيّ؛ وحينما ظهر، نهار وصولي بالذات، وليم ويلسون آخر في المدرسة، حقدت عليه لأنه يحمل هذا الاسم، وقرفت منه قرفاً مضاعفاً لأن غريباً كان يحمله ـ وسيكون

وحود هذا الغريب سبباً في أن أسمعه يلفظ مرتين ـ سيكون حاضراً معي دائماً، وستمتزج غالباً شؤونه مع شؤوني في مجرى الأمور العاديّ في المدرسة، بسبب هذه الصدفة الكريهة.

صار شعور الغضب الذي ولّدته هذه المصادفة يزداد حدة كلما أظهرت الظروف أي شبه نفسي أو جسدي بين خصمي وبيني. لم أكن قد إكتشفت بعد، هذا الشبه العجيب جداً في عمرينا، إنما كنت أرى أن لنا القامة نفسها، وأدرك التشابه الغريب في مظهرينا وملامحنا وقسماتنا لذلك كنت أشتعل غَضبَاً بسبب ما يتهامسون به حول قرابتنا، وشاع في الصفوف العليا. وبكلمة واحدة، لم يكن بوسع أي شيء أن يغيظني جدّياً (مهما حاولت إخفاء ذلك) أكثر من الإشارة إلى أي تشابه بيننا، سواء ما اتصل بالعقلية أو بالمظهر أو الولادة؛ غير أنه لم يكن لديّ أي سبب للاعتقاد أن هذا التشابه (بإستثناء القرابة) كان في يوم ما موضوع تعليق أو ملاحظة من قبل رفقائنا في الصفّ. أن يكون هو لاحظه بمختلف مظاهره وبمثل انتباهي فذلك كان واضحاً؛ أما أن يكون استطاع أن يكشف في مثل هذه المصادفات منجماً غنيّاً بالتناقضات فهذا لا أستطيع أن أنسبه إلا لفطنته غير العادية.

كان حين يردّ عليَّ يقلدني تقليداً كاملاً ـ في الكلام والحركات ـ فيلعب دوره بصورة مدهشة. كان من السهل جداً تقليد لباسي وتلبّس مشيتي وسلوكي العام دونما صعوبة؛ ولم يَفُتْه صوتي نفسه على الرغم من النقص في بنيته. طبيعيٌّ أنه لم يكن يرفع صوته غير أن المفتاح كان واحداً، وأخذ صوته يصير رغم انخفاضه الصَّدى الكامل لصوتي.

لن أحاول أن أقول إلى أي حد كانت هذه الصورة الغريبة تعذّبني، (لأنني لا أستطيع أن أقلّد) ولم يكن لديَّ إلا عزاء واحد ـ هو أن التقليد، كما بدا لي، لم يلاحظه أي شخص آخر غيري، وبقي عليَّ فقط أن أتحمل ابتسامات سمي ذات السخرية الغامضة الغريبة. كان يبدو مغتبطاً للتأثير الذي يحدثه في نفسي، ويبتهج للألم الذي يلحقه بي. مع هذا كان يزدري ما يمكن أن يلقاه من الإعجاب بسبب انتصار براعته. كيف لم يتكهن رفقاؤنا بنواياه ويشاركوه فرحه الساخر إذ يرونها تتحقق؟ كان ذلك خلال شهور عديدة من القلق، لغزاً لا يُحلّ بالنسبة لي. لعل تقليده إياي تدريجياً جعله أقلَّ وضوحاً. أو لعلني مدينٌ بطمأنينتي لمهارة الناقل الكاملة. لأنه كان يحتقر التقليد الحرفي ـ أو كل ما يقدر الخامل أن يراه في اللوحة ـ ولا يعطي في تقليده إلا روح الأصل الكاملة، مما أثار إعجابي الأكبر، وترك لي حزناً شخصياً بالغاً.

تكلمت سابقاً عن الأسلوب الجارح للحماية التي أظهرها إزائي، وعن تدخله المتكرر الفضولي في شؤوني. هذا التدخل الذي كان يكتسي طابع النصيحة المقيتة، تلك النصيحة التي لم تكن تعطى بصراحة، بل كانت إيحاءً وتلميحاً. كنت أتلقاها بنفور يزداد شدة مع تزايد سنيّ. مع ذلك أريد أن أكون منصفاً بالنسبة له فأعترف أنّني لا أذكر في تلك الفترة البعيدة حالة واحدة اتصفت فيها نصائحه بالخطأ أو الجنون، وهي صفات طبيعية في مثل سنه التي تنقصها الخبرة والنضج،

وأن حسّه الأخلاقي، إن لم أقل مواهبه وفطنته الدنيوية، أكثر رهافة من حسي، وأنني كنت أجدني اليوم رجلاً أفضل وأسعد لو لم أرفض دائماً النصائح الكامنة في تلك الوشوشات المبطنة، التي لم تكن توحي لي حينذاك إلاّ حقداً متفجراً من القلب واحتقاراً مُرّاً.

هكذا صرت، بمرور الزمن، متطرفاً في ثورتي ضد رقابته المقيتة، وإزداد كرهي لما كنت أعتبره منه غطرسة لا تُحتمل. قلت إن مشاعري نحوه في السنوات الأولى من رفقتنا تحوّلت بسهولة إلى نوع من الصداقة. لكن خلال الأشهر الأخيرة من إقامتي في المدرسة تحولت مشاعري إلى الحقد الحقيقي بالرغم من أن لجاجة أساليبه المعتادة كانت قد تضاءلت كثيراً. وأعتقد أنه أدرك حقدي، ومنذ ذلك الحين تجنبني، أو تظاهر بأنه تجنّبني.

حوالي هذا التاريخ بالذات إذا صدقتني ذاكرتي، جرى بيننا جدال حادٌّ أفقده تحفظه المعتاد. أخذ يتكلم ويتحرك بشكل غريب عن طبيعته تقريباً، فاكتشفت، أو تخيّلت أنني اكتشفت في نبرته، في مظهره، في ملامحه العامّة، شيئاً أجفلني بادىء الأمر، ثم شوّقني كثيراً إذ أعاد لفكري رؤى غامضة من طفولتي ـ ذكريات غريبة، مشوّشة، مزدحمة، آتية من زمن بعيد، حيث لم تكن ذاكرتي قد ولدت بعد. لن أعرف أن أحدد الإحساس الذي كان يقبض عليّ إلا بقولي انه كان من الصعب التخلّص من فكرة مؤداها أنني عرفت هذا الكائن الماثل أمامي، سابقاً في فترة قديمة جداً، في ماضٍ موغل في القدم. مع ذلك تلاشى هذا الوهم بالسرعة نفسها التي ولد فيها؛ ولا أذكره إلا لكي أحدد تاريخ الحديث الأخير الذي جرى لي مع سميّي الوحيد.

كان البيت القديم الواسع يحتوي في أقسامه العديدة على غرف كبيرة يتّصل بعضها بالبعض الآخر وتستخدم كمهاجع لأكبر عدد من التلاميذ. لكن كان فيه (وهذا طبيعي في مبنى بمثل هذا التخطيط السيء) عددٌ كبير من الزوايا والخلوات ـ أحالتها براعة الدكتور برانسبي الاقتصادية إلى مهاجع أخرى. لكنها لم تكن تتسع، باعتبارها حجرات بالغة الصغر، إلاّ لفرد واحد. كان ويلسن يشغل إحدى هذه الحجرات.

إغتنمت فرصة نوم الجميع ذات ليلة في أواخر سنتي المدرسية الخامسة، مباشرة بعد الجدال الذي تحدثت عنه، فنهضت من سريري؛ أخذت بيدي مصباحاً، وتسللت خلال متاهة من الممرات الضيقة، من غرفة نومي إلى غرفة نوم خصمي. كنت قد دبرت له لعبة خبيثة، إحدى المداعبات التي فشلت فيها كلياً حتى ذلك الوقت. خطر لي منذ ذلك الحين، أن أضع مخطّطي قيد التنفيذ، وقررت أن أجعله يشعر بكل قوة الخبث التي كنت مليئاً بها. بلغت حجرته، دخلت بهدوء، تاركاً المصباح عند الباب بعد أن وضعت فوقه ما يخفي نوره. تقدمت خطوة، وأصغيت إلى أنفاسه الهادئة. وإذ تأكدت من أنه ينام نوماً عميقاً، عدت إلى الباب؛ تناولت مصباحي ودنوت ثانية من السرير. كانت الستائر مسدلة؛ فتحتها بهدوء وببطء لأبدأ تنفيذ المخطط؛ لكن ضوءاً قوياً سقط على وجهه، فتوقفت عيناي عند ملامحه. نظرت؛ وعلى

الفور أخترق كياني كله خدرٌ وإحساس بالخمود. خفق قلبي، ارتجّت ركبتاي وسيطر على روحي كلها رعبٌ لا يطاق ولا يُفسَّر. تنهدت بتشنّج ـ قربت المصباح من وجهه. هل كانت ـ هل كانت هذه بالفعل قسمات ويلسون؟ كنت أرى جيداً أنها قسماته، غير أنني كنت أرتجف كالمحموم، وأنا أتخيّل أنها لم تكن قسماته. ماذا كان فيها ممّا استطاع أن يشوشني إلى هذا الحد؟ وبينما كنت أتأمله، كان دماغي يدور بتأثير الف فكرة لا رابطة بينها. لم يكن يبدو لي هكذا ـ كلا، بالتأكيد لم يكن يبدو لي في ساعات اليقظة كما هو الآن. الاسم ذاته! الملامح ذاتها! دخول المدرسة في اليوم ذاته! ثم تقليده مشيتي وصوتي ولباسي وحركاتي ـ هذا التقليد الشرس الذي لا يُفسَّر. هل كان في حدود الممكن الإنساني أن ما أراه الآن هو مجرّد نتيجة لهذه العادة من التقليد الساخر؟ أطفأت مصباحي، خائفاً مرتجفاً؛ خرجت من الغرفة بصمت، وغادرت سور المدرسة القديمة كي لا أعود إليها هذه المرّة أبداً.

بعد بضعة شهور أمضيتها في بيتنا بكسل خالص، وجدتني طالباً في كلية إيتون. هذه الفترة القصيرة كانت كافية لتضعف ذكرى حوادث مدرسة برانسبي، أو على الأقلّ لكي تحدث تغيّراً ملحوظاً في طبيعة المشاعر التي كانت توحيها لي هذه الذكرى. الواقع أن الجانب الفاجع من المأساة ـ لم يعد موجوداً. كنت أجد الآن بعض بواعث الشك في شهادة حواسي، ونادراً ما كنت أتذكّر تلك المغامرة دون أن أُدهش إلى أي حد يمكن أن تصل سرعة التصديق البشري، ودون أن أبتسم لقوة التخيّل العجيبة التي ورثتها من عائلتي. إذن لم تكن حياتي في ايتون من النوع الذي يضعف هذه الشكوك. إن دوّامة الهوَس التي غرقت فيها مباشرة ودون تأمّل، جرفت كل شيء بإستثناء زبد ساعاتي الماضية، ودفعةً واحدة امتصّت كل انطباع قوي وَجديّ، ولم تترك لذاكرتي إلا طيش حياتي السابقة.

مع ذلك، لا أقصد أن أرسم هنا مجرى إختلالي التعس ـ الاختلال الذي كان يتحدى كل قانون ويتملّص من كل رقابة. ثلاثَ سنواتٍ من الحماقة أنفقت، لم أَجْنِ منها إلا عادات متأصلة في الشرّ، وإزدياداً غير منتظم في نمويّ الجسدي. ذات يوم، بعد أسبوع كامل من اللهو المُنْهك، دعوت جمعاً من أكثر التلاميذ دعارة إلى حفلة سُكر سريّة في غرفتي. إجتمعنا في ساعة متأخرة من الليل، إذ كنا قد رتبنا حفلتنا بشكل تمتد معه حتى الفجر. كانت الخمر تتدفّق بحريّة، ولم تَفُتْنا متع أخرى لعلّها أكثر خطراً بحيث أن هذياننا وتعتّهنا بلغا الذروة حينما كان الفجر يطل باهتاً من الشرق. كان السُّكر قد هيّجني للغاية، فرحت أصرُّ على أن أشرب نخباً يخالف الحشمة إلى حدّ غريب، حين أضاع انتباهي الباب الذي فتح فجأةً وبسرعة، وصوت الخادم المباغت. قال لي إنّ شخصاً يبدو عليه أن مستعجلٌ جداً يطلب التحدث إليّ في الرواق.

وإذ كانت الخمر قد أهاجتني بشكل غريب، فقد سببت لي تلك المفاجأة اللذة أكثر مما باغتتني. خرجت مترنحاً، وبعد بضع خطوات صرت في رواق البيت. لم يكن في هذه الردهة المنخفضة الضيقة أي مصباح، ولم تكن تتلقى أي نور غير نور الفجر الضعيف الذي كان ينساب

من خلال النافذة المقوسة. لمحت وأنا أضع قدمي على العتبة، شكل شاب بقامتي تقريباً، يرتدي سترة بيضاء من الكشمير مفصلة حسب الزي الجديد، كالسترة التي كنت أرتديها تلك اللحظة. أتاح لي الضوء الخافت أن أرى ذلك كله لكن قسمات الوجه لم أكن بعد قد ميّزتها. ما كدت أطل حتى أسرع نحوي وهمس في أذني وهو يمسك ذراعي بحركة قلقة آمرة هاتين الكلمتين:

- وليم ولسن!

فصحوت من السُكْر في ثانية.

كان في مسلكه الغريب، في الإرتجاف العصبي لإصبعه التي أبقاها مرفوعة بين الضوء وعينيّ، شيء ملأني بالدهشة الكاملة؛ لكن ليس هذا هو الشيء الذي أثارني بعنف. أثارني التضخيم والتفخيم في التوبيخ المستمر في هذا الكلام الغريب، الخافت، المُنغّم؛ أثارني أكثر من أي شيء لهجة بعض هذه المقاطع البسيطة، الأليفة، المهموسة سراً، ومفتاحها الصوتي، هذه المقاطع التي جاءت مع آلاف الذكريات المتراكمة عن الأيام الماضية تسقط على نفسي سقوط عمود كهربائي. لكن الغريب توارى قبل أن أسترد وعيي.

مهما يكن الأثر الحاد الذي تركته هذه الحادثة في خيالي المشوش، فإن هذا الأثر سرعان ما تلاشى. خلال بضعة أسابيع استسلمت إلى الإستقصاء الدقيق أحياناً، وأحياناً ثانية بقيت مغموراً بغيمة من التأمل المَرَضي. لم أحاول أن أخفي عن نفسي هوية الشخص الغريب الذي كان يتدخل في شؤوني بهذا العناد ويرهقني بنصائحه غير المرغوبة. لكن من كان، من كان ويلسن هذا؟ - ومن اين كان قادماً؟ - وماذا كانت غايته؟ ما استطعت أن أطمئن إلى أي من هذه التساؤلات؛ - قدرّت فقط، أن حادثاً مفاجئاً في عائلته جعله يترك مدرسة الدكتور برانسبي بعد ظهر اليوم الذي شهد هربي منها. لكن بعد وقت قليل لم أعد أحلم به واستحوذ سفري إلى أكسفورد على انتباهي كله. هناك أتاح لي تباهي عائلتي بالإسراف أن أعيش في بذخ واستسلم على هواي، للترف العزيز عليّ - هكذا عدت حالاً أنافس في التبذير، الورثاء المتغطرسين لأغنى نبلاء بريطانيا.

وإذ تشجعت على الخلاعة بواسطة هذه الوسائل انطلقت طبيعتي بحماس مزدوج. وفي جنون عربداتي المهووسة دست بقدميّ عوائق الحشمة المبتذلة كلها. لكن من العبث أن أتوقف لأسرد تفاصيل هوسي. يكفي القول إنني تفوقت على هيرودس في اللهو. ابتكرت أنواعاً جديدة من الجنون فأضفت ملحقاً كبيراً إلى لائحة الفجور الطويلة، ذلك الفجور الذي كان يسود آنذاك في أكثر جامعات أوروبا خلاعة.

سيبدو من الصعب الاعتقاد بأنني كنت حتى ذلك الحد دون مستوى الرجل الشريف، أو أنني كنت اجتهد كي أتعود على أدنى حيل المقامر المدمن، إذ أصبحت من المدمنين على هذه المهنة الحقيرة، التي كنت أمارسها عادة كوسيلة لزيادة عائداتي الضخمة في الأصل على حساب رفقائي

البسطاء. مع ذلك كان هذا هو الواقع. وقد كان السبب الرئيسي، إن لم يكن الوحيد للتغاضي عني، هو إفراطي في التهجم على مشاعر الشرف والوقار. إذن لم يكن أي من رفقائي الفاسدين يرغب في أن يناقض أوضح شهادة لحواسه، كأن يرتاب بسلوك وليم ويلسون الفرح، المخلص، الكريم ـ أنبل وأسخى تلميذ في اكسفورد ـ هذا الذي لم يكن طيشه (كما يقول المتطفلون) إلا طيش شباب وخيال جامح ـ والذي لم تكن اخطاؤه إلا أهواءً لا تحاكى ـ أسوأ القبائح، لكن مع إسراف جميل خالي البال.

كنت قد عشت سنتين بهذا الشكل الفرح عندما جاء إلى الجامعة شاب حديث النعمة ـ اسمه غلينديننغ ـ غنيّ مثل هيرودس آتيكوس، كما يقول المثل الشائع، ولم يكلفه غناه أي عناء. اكتشفت بسرعة أنه ضعيف التفكير، وطبيعي أنني انتقيته كفريسة ممتازة لمخططاتي. أغريته كثيراً باللعب، واجتهدت بلباقة اللاعب العادية أن أتركه يربح مبالغ طائلة، كي أجذبه بشكل أقوى إلى شباكي. أخيراً بعد أن مهّدت لمخططي جيداً، التقيت به (بنية مبيتة للفراغ منه) في بيت أحد رفقائنا (السيد بريستون) الذي كان رفيقاً مشتركاً لنا نحن الاثنين. لكن عليَّ أن أنصفه، وأعترف بأنه لم يكن أشخاص، وحرصت كل الحرص على أن يأتي اللعب عَرَضياً وألا يتم إلا بناء على إقتراحٍ من الأبله الذي كنت أنوي تهديمه. سأوجز تفصيل هذا الحادث القذر فأقول أني لم أهمل أياً من الحيل الدنيئة إلا نفذتها بابتذال، حتى أنه من العجيب أن يكون هناك أشخاص أغبياء إلى درجة أن يصيروا ضحاياها.

كان قد مضى على السهرة وقت طويل حينما رتّبت أن يبقى غلينديننغ خصمي الوحيد. كانت اللعبة لعبتي المفضلة ـ كان الآخرون قد تركوا أوراقهم وتحلقوا حولنا، وقد أثارت فضولهم المبالغ الضخمة التي نقامر عليها. كان صديقنا الحديث النعمة، هذا الذي أخطأت بدفعه إلى الإفراط في الشراب في بداية السهرة، يخلط الورق، يوزعه ويلعب بعصبية غريبة دفعتني للظن بأن سكره كان بدافع ما، لم يوضحه تماماً. وبعد قليل من الوقت أصبح مديناً لي بمبلغ كبير، وإذ جرع كأساً طافحة من الخمر، فعل ما توقعته ببرودة ـ اقترح أن نضاعف المبلغ الذي كان في الأصل ضخماً بشكل جنوني. أخيراً قبلت بعد تصنع بارع للمقاومة، وبعد أن دفعه رفضي المتكرر للتفوه بكلمات فظّة أظهرت قبولي بمظهر الإذعان المرغم. كانت النتيجة كما كان مهيّأً لها؛ سقطت الفريسة بكاملها في شباكي، وفي أقل من ساعة أصبح مديناً لي بأربعة أضعاف الدين الأول. كانت ملامحه منذ قليل قد فقدت اللون المشرق الذي سبّبته الخمر، لكنني لاحظت بدهشة أن ملامحه في تلك اللحظة بدأت تصفر إصفراراً مخيفاً حقاً. أقول بدهشة، لأن المعلومات التي سمعتها عن غلينديننغ صورته لي غنيّاً إلى حد كبير، بحيث ان المبالغ التي خسرها على ضخامتها لا تستطيع ـ كما افترضت ـ أن تقلقه حقيقة وأن تحزنه إلى هذا الحد العنيف. الفكرة التي خطرت لي، هي انه كان دائخاً من الخمرة التي شربها. ولكي أنقذ أخلاقي

في أعين الرفقاء وليس بدافع التجرد، أخذت ألح بلهجة جازمة لإيقاف اللعب بعد أن افهمتني بضع عبارات ترددت بالقرب مني بين الحاضرين، وصراخ غلينديننغ الذي يدل على اليأس الكامل، اني قد هيأت خرابه التام في ظروف جعلته موضع شفقة الجميع.

من الصعب أن أصف مسلكي في تلك المناسبة. كانت حالة هذا الأبله المحزنة قد أضفت على الجميع جواً من الضيق والكآبة؛ وساد صمت عميق لبضع دقائق كنت أشعر خلالها رغماً عني أن خديّ ينملان تحت وخز النظرات المحرقة من الازدراء والتوبيخ التي يصوبها أقل الحضور قساوة. وأعترف أن قلبي إستراح وقتياً من وطأة قلق لا يحتمل بفضل التدخل المفاجىء الخارق الذي تلا. فتح مصراعا الباب دفعة واحدة، بعنف شديد جامح، حتى أن الشموع كلها أنطفأت كما لو أن سحراً أطفأها. غير أن الضوء الميت أتاح لي أن ألمح غريباً يدخل الغرفة - رجلاً بقامتي تقريباً ويلبس معطفاً ضيّقاً، إلا أن الظلام في هذه اللحظة كان شاملاً وكنّا لا نكاد نحسُّ أنه بيننا. وقبل أن يهدأ روع أي منا من الدهشة البالغة التي ولّدها هذا العنف، سمعنا صوت هذا الدخيل يقول بصوتٍ منخفض جداً لكنه واضح، صوتٍ لا يُنسى، صوتٍ اخترق لب عظامي:

- أيها السّادة لا أحاول أن أعتذر عن مسلكي، لأنني بسلوكي هذا أُكمل واجباً. أنتم ولا شك لا تعرفون حقيقة أخلاق الشخص الذي ربح هذه الليلة مبلغاً ضخماً من اللورد غلينديننغ. سأقترح عليكم إذن وسيلة سريعة وحاسمة لكي أوفّر لكم هذه المعلومات الهامة. أرجو أن تفتشوا بطانة كمّه الأيسر وبعض العلب الصّغيرة التي ستعثرون عليها في الجيوب الواسعة لسترته المطرّزة.

كان الصمت عميقاً وهو يتكلم، حتى لَيُسمع سقوط الإبرة على السجادة. حينما أنهى حديثه ذهب لتوّه بالمفاجأة نفسها التي دخل فيها. هل أقدر، هل يمكن لي أن أصف أحاسيسي؟ هل ينبغي القول إنني أحسست بجميع الأهوال التي يشعر بها رجلٌ حكم عليه بالهلاك الأبدي. كان وقتي لا يتّسع بالتأكيد للتأمّل. أطبقت علي بضع سواعد بخشونة، ثم أشعل الضوء فوراً. تلا ذلك تفتيش دقيق. ثم عثروا في بطانة كمّي وفي جيوب سترتي على كل ما توقّعه ذلك الدّخيل.

لم تعذبني عاصفة السّخط قدر ما عذبني صمت الاحتقار والهدوء السّاخر اللذين تبعا ذلك الاكتشاف. وقال مضيفنا وهو ينحني ليلتقط من عند قدميه معطفاً رائعاً مبطّناً بفراء ثمين:

- هذا لك يا سيّد ويلسن (حينما تركت غرفتي كان الطقس بارداً، فلبست فوق ثيابي الصباحية معطفاً خلعته حين وصلت إلى مكان اللّعب) وأضاف وهو ينظر إلى ثنايا المعطف بابتسامة مرّة: أظن من غير المفيد البحث هنا عن براهين جديدة على احتيالك فلدينا ما يكفي. آمل أن تدرك الضرورة في مغادرة اكسفورد والخروج فوراً من بيتي.

كان مرجحاً وقد أُهنت هكذا وامتهنت كالوحل، أن أرد على هذه اللغة المهينة، بعنف شخصي مباشر، لو لم يؤخذ انتباهي كله في تلك اللحظة بحادثة من أغرب الحوادث. كان للمعطف الذي جلبته معي فراءٌ فخم - ولا ضرورة للقول إنه كان نادراً وثميناً إلى درجة الجنون. كان مفصلاً بشكل غريب ابتكرته أنا؛ لأنني كنت صعب الإرضاء في هذه التوافه، وكنت أذهب في الإفراط في الأناقة حتى حدود العبث. وحين ناولني السيد بريستون المعطف الذي التقطه عن الأرض، قرب باب الغرفة، لاحظت بدهشة قريبة من الرعب أنني كنت أحمل معطفي على ذراعي، إذ كنت قد حملته دون انتباه ولا شك، وأن المعطف الذي يقدمه لي، كان تقليداً كاملاً ودقيقاً لمعطفي، حتى في أدق تفاصيله. كان الشخصالغريب الذي كشف أمري بهذه الطريقة الفاجعة يلبس كما أذكر جيداً معطفاً، بينما لم يجلب أي شخص من الحضور معطفه باستثنائي أنا. حافظت على شيء من حضور البديهة، فأخذت المعطف الذي قدمه لي بريستون، ووضعته على معطفي دون أن ينتبه أحد. وفي الصَّباح قبل بزوغ الفجر أسرعت هارباً من أكسفورد في حسرة حقيقية من العار والرعب.

كنت أهرب عبثاً. ومصيري الملعون يطاردني، منتصراً مبرهناً لي أن قدرته الغامضة لم تكن حتى ذلك الوقت إلاَّ بداية. فلم أكد أضع قدميّ في باريس حتى تعرَّضت لمحنة جديدة من تدخل ويلسن المقيت في شؤوني، مرت السنوات، وما ظفرت براحة. يا لي من شقّي! بأيَّة مجاملة مزعجة، بأيّ حنانٍ كحنان الشبح تدخَّل في روما بيني وبين طموحي! وفي فيينا، وفي برلين! - وفي موسكو! أين لا أجد ذكرى أليمة تدفعني لأصب عليه اللعنة من أعماق قلبي؟ هربت أخيراً مصعوقاً من الذّعر، أمام طغيانه الخفيّ، كأنني أهرب من الطاعون، وهربت إلى آخر العالم. هربت عبثاً.

دائماً، دائماً كنت أسأل روحي سرّاً، وأكرر أسئلتي «من هو؟ - من أين جاء؟ - وماذا يقصد؟» لكنني لم أكن أحظى بجواب. كنت أحلل بدقة أشكال رقابته الوقحة وطريقتها وخصائصها المميَّزة. وحتى هنا لم أكن أعثر على ما يمكن أن يدعم أي تخمين. لكن مما يلفت النظر أنه لم يكن يتدخَّل في كثير من الأحيان إلاَّ ليفسد مخططات أو يُفشِّل أعمالاً ما كانت لتؤدي، لو نجحت، إلا إلى خيبة مريرة. هذا في الواقع، تبرير عقيم لسلطة آمرة طاغية بهذا الشكل! وهو تعويض تافه عن الحقوق الطبيعية في حرية الإرادة التي تُنكر بمثل هذا العناد وهذه الوقاحة!

كنت أيضاً ألاحظ أن جلادي الذي يمارس تقليد ملابسي بدقة ومهارة، يتصرف بعد تدخلاته على نحو غريب. لم يكن يفسح لي المجال كي أرى وجهه. واضح أن مثل هذا السرّ يبدو في منتهى التصنّع والحماقة. هل كان يُعقل أن لا أرى فيه الشخص الذي كان ينصحني في إيتون - الذي هدَّم شرفي في أكسفورد - الذي وقف ضد طموحي في بـ ريس، وعاكس رغبتي الثأرية في برلين، وحبّي العنيف في نابولي، وقاوم في مصر ما كان يسمّيه خطأ شُحّاً في المال - ألا

أرى في هذا الشخص، عدوي الكبير، وشيطاني وليم ويلسن، الذي عرفته في سنوات دراستي - السميّ، الرفيق، الخصم - الخصم المقيت المرهوب في مدرسة برانسبي؟ مستحيل! لكن دعوني أصل إلى المشهد الرهيب الأخير من المأساة.

كنت حتى ذلك الوقت خاضعاً جباناً أمام سلطانه الآمر. كانت عاطفة الاحترام العميق الذي تعودت أن أقابل به الأخلاق الرفيعة، ثم الوقار المهيب، والوجود في كل مكان والجبروت الظاهريين في ولسن، بالإضافة إلى ما لا أعرف من الإحساس بالرعب الذي كانت توحيه لي بعض صفاته ومزاياه الأخرى، كان هذا كله قد خلق في نفسي الشعور بالضعف الكلي والعجز، ودفعني إلى انقياد مطلق وإن كان مليئاً بالمرارة والاشمئزاز، لتسلّطه عليّ. إلا أنني في المرحلة الأخيرة كنت قد استسلمت للخمر، وكان تأثيرها المتزايد على مزاجي الوراثي يجعلني شيئاً فشيئاً لا أطيق أية رقابة. وبدأت أتذمّر - أتردد - أقاوم. هل كان خيالي وحده هو الذي صوَّر لي أن عناد جلادي سيخفّ أمام صلابتي؟ هذا ممكن، غير أنني كنت قد بدأت أشعر بدبيب أمل متوهّج، ورحت في سري أغذي عزمي المظلم اليائس على التخلّص من هذه العبوديّة.

كان ذلك في روما أثناء كرنفال عام - ١٨؛ كنت أحضر حفلة تنكرّية في قصر الدوق دي بروغيلو من نابولي. كنت قد أفرطت في شرب الخمر أكثر من عادتي، وكان الجوّ الخانق في القاعات المزدحمة يثقل عليّ بشكل لا يحتمل، مع ذلك لم تزد الصعوبة التي واجهتها، في شقّ طريقي خلال الزحام، حالتي النفسية شيئاً. ذلك أنّني كنت أبحث بقلق (لن أقول بأية نيّة سيئة) عن زوجة دي بروغيلو الهرم المهووس - أبحث عن زوجته الشابة، المرحة، الجميلة. كانت قد همست لي بسرّ الثياب التي سترتديها، بثقة متهورة؛ وكنت أسرع، وقد لمحتها بعيداً، كي أصل إليها. أحسست في هذه اللحظة بيد تسقط على كتفي بهدوء - ثم ذلك الهمس الذي لا يُنسى، ذلك الهمس العميق الملعون، في أذني!

استدرت بغتةً، وقد تملكني غضبٌ مسعور، نحو من شوَّشني هكذا، وأمسكته بعنف من صدرته. كان يرتدي كما كنت أتوقع، لباساً يشبه لباسي تماماً: معطفاً إسبانيّاً من المخمل الأزرق، ويلتفّ بحزام قرمزي علّق به سيف طويل، ويغطي وجهه بكامله قناع من الحرير الأسود. صرخت بصوت أبحته سورة الغضب وكان كل مقطع أتفوّه به أشبه بوقود النار لغضبي:

- أيها الخبيث! أيها الدجّال! أيها اللعين - لن تقتفي أثري بعد - لن تلاحقني حتى الموت! اتبعني أو أصرعك في مكانك! ورحت أجره مرغماً وأشق طريقي في قاعة الرقص باتجاه غرفة صغيرة مجاورة.

فتحت الباب ودفعته بعيداً عني. فترنح واتكأ على الحائط؛ أغلقت الباب وأنا أصب عليه اللعنات، وامرته أن يمتشق سيفه. تردد لحظة، ثم جرد سيفه بصمت وتنهدٍ خفيف واتخذ وضع

الاحتراس. لم تكن المعركة بالتأكيد طويلة. كنت ثائراً تعج في داخلي أغرب الانفعالات الوحشية من كل نوع، وكنت أشعر أن في ذراعي الواحدة طاقة جمع غفير. حاصرته بقوة، بضع ثوانٍ، وإذ أصبح تحت رحمتي المطلقة، غرزت سيفي في صدره بضراوة عدة مرات ودون انقطاع.

في هذه اللحظة لمس أحدهم قفل الباب. أسرعت أستدرك هجوماً مفاجئاً، واستدرت مباشرة نحو خصمي المحتضر. لكن أية لغة بشرية تقدر أن تعبر عن الذهول، عن الذعر اللذين تملكاني حينما رأت عيناي هذا المشهد. كانت اللحظة التي استدرت فيها كافية لكي تحدث في الظاهر تغيراً مادياً في ترتيب الطرف الآخر من الغرفة.

كانت مرآة واسعة تنتصب (أو هكذا بدا لي في تشوشي) حيث لم أرَ من قبل أي أثرٍ لذلك. وكنت وأنا أتقدم مذعوراً صوب المرآة، أرى صورتي فيها، لكن بوجه شاحب، وملطخ بالدم، تتقدم لملاقاتي بخطى واهنة مترنحة.

هكذا بدا لي الأمر، كما قلت، لكن الواقع كان عكس ذلك. كان خصمي ـ كان ولسن هو الذي يقف أمامي محتضراً. كان قناعه ومعطفه يرقدان على الخشب حيث رماهما. ما من خيط في ثيابه ـ ما من خطٍ في شكله المتميّز الغريب ـ إلا وكان خيطاً في ثيابي أنا، وخطاً في شكلي أنا ـ كان الشبه كاملاً!

كان ذلك هو ولسن، لكن ولسن الذي لم يعد يهمس كلماته الآن! مع أنني كنت أستطيع الاعتقاد أنني كنت أنا نفسي أتكلم حينما قال لي:

«لقد انتصرتَ، وخسرتُ أنا. لكن من الآن فصاعداً أنت أيضاً ميت ـ ميت في العالم، في السماء وفي الرجاء! كنتَ موجوداً فيَّ ـ فانظر في موتي، انظر من خلال هذه الصورة التي هي صورتك كيف قضيت نهائياً على نفسك بنفسك».

الحيوان الغريب

في فترة انتشار الكوليرا المشؤوم في نيويورك، قبلت دعوة من أحد الأقرباء لتمضية حوالي أسبوعين معه في بيته الصيفي المنعـزل على ضفـاف الهدسن. كـان لدينـا هناك مختلف وسـائل التسلية العادية التي يمارسها المصطافون؛ وكم كانت أيامُنا تغدو جميلةً وممتعة بنزهاتنا في الغابات، وبالرسم ورياضة التجديف والصَّيد والسباحة والموسيقي والكتب، لو أننا لم نكن نتلقى كل يومٍ الأنباء المرعبة عمَّا كان يجري في المدينة الآهلة. لم يمض يومٌ دون أن نسمع بموت شخصٍ نعرفه. والواقع أنَّنا كنا ننتظر، بسبب تزايد الوفيات، خبراً كـل يومٍ عن مـوت أصدقـائنا. وصـرنا، بالتالي، نرتعد لرؤية حامل الأخبار وهو يتقدم نحونا. حتى الهواء نفسه الآتي من الجنوب كـان يبدو لنا مثقلاً بالموت. هذه الفكرة المميتة امتلكت روحي في الواقع، فلم أكن أستطيع أن أتكلم أو أهتم أو أحلم بشيءٍ آخر. كان لمضيفي مزاجٌ أقل هيجاناً، وكان يجهد في تهدئةً همومي. إن نباهته الفلسفية العميقة لم تتأثر في أية لحظة بأشياء خيالية. كان يشعر حقاً بوقائع الرعب إلا أنه لم يكن يخاف أوهامَها.

ولطالما تخلّلت جهوده لتخليصي من حالـة الكآبـة غير الـطبيعيَّة التي غـرقت فيها، كتبٌ عثرت عليها في مكتبته. كانت من نوع الكتب التي تتيح ظهور الميول الوراثية لخرافات التطيّر، وهي ميولٌ دفينة في أعماقي. قرأت هذه الكتب خفيةً عنـه، وهكذا كنتُ كثيـراً ما أرتبك في إيضاح الانطباعات المرهقة التي كانت ترتسم في ذهني.

الموضوع الذي كان يهمني خصوصاً هو الاعتقاد الشعبي بالإشارات التي تسبق الأحداث وتنبىء بها ـ وهو اعتقاد كنت في هذه المرحلة من حياتي مستعداً للدفاع عنه ـ وكثيراً ما دخلنا في مناقشاتٍ طويلةٍ وحيَّة حـول هذا المـوضوع ـ حيث ينكـر هو إنكـاراً مطلقـاً قوام الإيمـان بهذه الأشياء، وأزعم أنا أن إحساساً شعبياً ينشأ بعفوية مطلقة ـ أعني دون أثرٍ ظاهر للإيحاء ـ يتضمَّن في ذاته عناصر يقينية لحقيقةٍ ما وينبغي أن يُبحث بكثير من الاحترام.

وقد حَدَث، بعد وصولي بقليلٍ إلى هذا المصيف، أن كنت أنا نفسي بطَل مغامرةٍ لا تُفسر، كان فيها ما يُقلق جدًّا حتى أنني أعذر إذا رأيت فيها أمارة شؤم. ارتعبت منها وفي الوقت نفسه دُهشت واضطربتُ حتى لقد مرت عليها عدة أيامٍ دون أن أستطيع اتخاذ القرار بإطلاع صديقي على تفاصيلها.

كنت، في أواخر نهارٍ قائظٍ، اقرأ جالساً أمام نافذةٍ تطل، عبر شواطىء النهر، على تلّةٍ بعيدةٍ كان سفحُها الذي يواجهني قد تعرى، بسبب ما يُسمَّى انزلاق التربة، من أكثر أشجارها. وكانت أفكاري تشرد منذ وقت غير قليل بين الكتاب الذي أقرؤه وحزن المدينة المجاورة وخرابها. وحين رفعت عيني رأيت سفح الرابية العاري ولمحت شيئاً ـ مسخاً غريب الخلقة يهبط بسرعةٍ كبيرة من الذروة إلى الأسفل ثم يغيب أخيراً في الغابة الكثيفة. حين رأيته لم أصدق عيني، ومرت دقائق عديدة دون أن أنجح بإقناع نفسي أنني لستُ مجنوناً ولست في حلم.

إذا نظرت إلى حجم المسخ، بالنسبة إلى قُطر الأشجار الكبيرة التي مرَّ قربها، وهي أشجار ضخمة نادرة نجت من هول الانهيار، أستنتج أنَّه أكبرُ من أية سفينة نقل عرفتُها، وأقول سفينة نقل لأن شكل المسخ يوحي بها. كان شدق هذا الحيوان في طرف خرطومٍ يتراوح طوله بين الستين والسبعين قدماً، وكان ضخماً كجسم فيل عادي. وكانت تبدو، قرب قاعدة هذا الخرطوم، كتلةٌ هائلة من الوَبر الأسود المتشابك، ويلمع خارج هذا الوبر، جانبياً وإلى الأسفل، نابان يشبهان بشكلهما نابي الخنزير، لكنهما أطول منهما بكثير. ويمتدّ إلى الأمام، في تواز مع الخرطوم، قضيبٌ هائلٌ يتراوح طوله بين الثلاثين والأربعين قدماً، ويبدو كأنه بلّورٌ خالص موشوري الشكل؛ وكان يعكس، بشكلٍ نادر الروعة، أشعة الشمس الغاربة. أما شكل الخرطوم في نهايته السفلى فيشبه شكل الزاوية. وكان لهذا الحيوان الغريب أربعة أجنحة ـ طول كل جناح مئة ياردة تقريباً ـ وينطبق اثنان منها على الجناحين الآخرين، وتبدو جميعها مُغطاة بحراشف معدنية، يتراوح قطر كل حرشفٍ بين عشر أقدام واثنتي عشرة قدماً. لاحظتُ أنَّ الأجنحة كانت مربوطة بسلسلة قوية. لكن أغرب ما يميّز هذا الحيوان المرعب، هي صورة رأس ميّتٍ كانت تغطي صدره كله تقريباً وكانت مرسومة بوضوحٍ تامّ وبلونٍ أبيض يتلألأ فوق جسمه الداكن، كما لو أنَّ فناناً رسمها. وبينما كنت أتأمل هذا الحيوان الرهيب، وخصوصاً هذه الصورة على صدره، بمزيجٍ من الرعب والحسرة ـ بإحساس الشقاء المعلق فوق رأسي والذي استحال عليَّ قهره بأيّ جهدٍ عقليّ، رأيت الفكّين الكبيرين في نهاية الخرطوم ينفتحان فجأة ويخرج منهما صوت محزنٌ وفاجع وقع على أعصابي وقوع النعي، وبينما كان المسخ يتوارى في أسفل الرابية، سقطت مُغمىً عليَّ.

حين صحوتُ، كان هدفي الأول هو أن أخبر صديقي بما رأيت وسمعت، وأكاد أعجز أن أفسّر شعور التقزّز الذي منعني في النهاية من إخباره. وذات مساء، بعد الحادثة بثلاثة أو أربعة أيام، كنا نجلس معاً في الغرفة التي رأيت المسخ منها ـ وكنت أجلس على مقعدي السابق نفسه،

أما هو فكان مستلقياً على أريكةٍ مجاورة. وقد دفعني تداعي الأفكار الذي ولّده المكان والزمان كي أخبره بالحادثة. وأصغى إليَّ حتى النهاية ـ ضحك من كل قلبه في البداية ـ ثم اتخذ وضعاً رصيناً بشكلٍ فريد، وكأن اختلالي العقلي لم يعد موضعاً لأي شكّ. في اللحظة نفسها، لمحتُ المسخ من جديد وبوضوح ـ فلفتّ إليه انتباهه حالاً، بصرخة حزن بالغ. ونظر بسرعة لكنه أكد أنه لم يشاهد شيئاً؛ مع أنني رأيت المسخ رأيَ العين وهو يهبط سفح الرابية الأجرد.

بعد هذا امتلأتُ بالذعر والهمّ اللذين لا نهاية لهما، ذلك أنني صرت اعتبر هذه الظاهرة إما أنها أمارةٌ تشير إلى موتي وإما أنها، وهذا أسوأ، علامةٌ لجنوني. تراجعت بانفعال شديد إلى الوراء وتركت وجهي، لبضع دقائق، يسقط بين يدي. وحين اكتشفتُ عينيّ، كانت الظاهرة قد اختفت.

غير أن مضيفي كان قد استعاد هدوءه المعتاد وراح يسألني بشكلٍ دقيق عن خلقة الحيوان الذي رأيته. وحينما أرضيته كلياً، من هذه الناحية، تنفس بعمق، كما لو أنه تخلص من عبء لا يطاق واستمرّ في الحديث، بهدوء ظهر لي أليماً وقاسياً، عن قضايا فلسفية مختلفة كانت حتى هذه اللحظة موضوع نقاشنا. أذكر أنه ألح خصوصاً على الفكرة القائلة إنَّ مصدر الخطأ الأساسي، في جميع الأبحاث الإنسانية، كامن في الميل إلى التقليل أو الإكثار من أهمية موضوع ما، لمجرد النقص في تقدير البعد الذي يفصله عنا. فقد قال إننا لكي نقدر مثلاً التأثير الذي يمارسه على الإنسانية انتشار المبادىء الديموقراطية، فإن بعد المرحلة التي يمكن أن يكتمل فيها هذا الانتشار لا يجوز أن يفقد مكانه بين معطيات المشكلة. لكن هل تستطيع أن تُسمي لي كاتباً واحداً في موضوع الحكومة، رأى بحث المشكلة من هذه الزاوية مفيداً؟

هنا توقف عن الكلام لحظة، وخطا بضع خطوات في المكتبة ثم تناول كتاباً عاماً في التاريخ الطبيعي. وبعد أن سألني أن نتبادل مكانينا لكي يستطيع الرؤية بوضوح يساعده على القراءة، استطرد كلامه وهو يفتح الكتاب، فقال:

ـ ما كنت أستطيع أن أوضح لك ما هو هذا الحيوان الغريب، لو لم تصفه لي هذا الوصف البالغ الدقة. دعني أولاً اقرأ عليك وصفاً لحيوان من نوع السفنكس، من عائلة الحيوانات التي لا تخرج إلا وقت الغروب، ومن حَرْشفيّاتِ الأجنحة، وجنس الحشرات. وهذا هو الوصف:

«أربعة أجنحة غشائية مغطّاة بحراشف صغيرة ملونة بما يشبه المعدن، فمٌ يشكل خرطوماً مطوياً، بسبب امتداد الفك الذي توجد على جوانبه بدايات أعضاء اللمس ذات المظهر الدَّبق؛ الجناحات السفليان متصلان بالآخرين بوبرٍ صلب؛ قرنان بشكل قضيبين موشوريين، بطن محدّب. وقد أثار أحياناً السفنكس ـ رأس الميت شعور الخوف عند الناس البسطاء بسبب الصراخ الحزين الذي يصدر عنه، وبسبب الرمز الفاجع الذي يحمله على صدره».

ثم أغلق الكتاب وانحنى على النافذة وقد اتخذ على الكرسي الوضع الذي كنت أتخذه تماماً حينما رأيت الحيوان الغريب. وسرعان ما صرخ قائلاً:

ـ آه، ها هو! إنه يهبط منحدر التلة، وأوافق أن هذا الحيوان ذو هيئة تدعو للعَجب. إلا أنه ليس كبيراً ولا بعيداً بالشكل الذي كنت تتصوره؛ إذ الواقع هو أنه، وهو يتقدم الآن على امتداد هذا الخيط الذي مدَّه على مدى النافذة أحد العناكب، ليس أطول من حوالي الجزء السادس عشر من أجزاء بوصة واحدة، ولا يبتعد أكثر من ذلك أيضاً عن حَدَقة عيني.

إليونورا

إنني سليل عائلةٍ اشتُهرت بالخيال القويّ والعواطف اللاّهبة. سمّاني الناس مجنوناً؛ غير أنّ العلم لم يكشف لنا بعد فيما إذا كان الجنون ذروة الذّكاء، أم لا ـ وفيما إذا كان كلّ ما يُسمّى مجداً، وكل ما يسمّــى عمقاً ليسا آتيين من مرضٍ فكريٍّ، من حالةٍ روحيةٍ تتمجد وتنمو على حساب الذهن العام. هؤلاء الذين يحلَمون وهم أيقاظٌ يعـرفون أشيـاء كثيرة تفلت من هؤلاء الـذين لا يحلمون إلاّ وهم نيـام. إنّهم يلتقـطون، في رؤاهم المغيّمـة، الهـارب الأبـديّ، وإذ يستيقظون، يرتعشون لتنبههم أنهم كانوا للحظةٍ على ضفّة السرّ العـظيم. إنهم يدركـون جزءاً فجزءاً، شيئاً ما من معرفة الخير، وأكثر أيضاً من علم الشر. وهم، بلا دفةٍ ولا بوصلة، يخترقون الأوقيانوس الواسع للضياء الذي لا يُوصف.

نقول إذن إنني مجنون. أعترف على الأقل أن هناك وضعين متميزين في وجودي الروحيّ: وضعَ عقلٍ نيرٍ دون أدنى ملابسة، ويتوافق مـع تذكـر الحوادث التي تشكـل المرحلة الأولى من حياتي؛ ووضعَ شـكٍ وظلماتٍ يتّصـل بالحـاضر وذكرى مـا يشكل المـرحلة الكبيرة الثـانية من وجودي. صدقوا، إذن، ما سـأقولـه عن المرحلة الأولى؛ ولا تثقـوا بما أستـطيع أن أرويـه من المرحلة اللاّحقة إلا بقدر ما يبدو لكم صحيحاً؛ وإن شئتم، شكّوا فيه بكامله؛ وإذا لم تستطيعوا أن تشكوا، فاعرفوا جيداً جيداً كيف تكونون «أوديب» هذا اللّغز!

المرأة التي كنت أحبها في صِباي،والتي أرسم الآن عنها بأمـانة ووضـوحٍ هذه الـذكرى، كانت البنت الوحيـدة للأخت الـوحيدة لأمي التي مـاتت منذ مـدةٍ طويلة. إنها بنت خـالتي؛ واسمهــا إليونورا. سكنّا معاً دائماً، تحت شمس استوائيةٍ، في وادي «الغازون ـ ديابـري». لم تصل إليه قدمٌ دون دليلٍ قط؛ ذلك أنه كان يمتد بعيـداً عبر سلسلة من الجبـال الضخمة التي تنهض بشموخ، حاجبة نور الشمس عن أكثر خباياها هدوءاً. لم يكن هناك أي أثر لأية درب،

وكان علينا، كي نصل إلى مخبئنا السعيد، أن ندفع أوراق آلاف الأشجار ونقضي على زهو آلاف الأزهار العابقة. هكذا كنا نعيش وحيدين تماماً، لا نعرف شيئاً من العالم إلاّ هذا الوادي، ـ أنا وبنت خالتي وأمّها.

كان نهرٌ عميقٌ ضيّقٌ ينحدر من أعالي المناطق المعتمة الواقعة وراء الجبال، في الطرف الأعلى من مكاننا المغلق ـ كان ينحدرُ أكثر بريقاً من كل شيء بإستثناء عيني إليونورا، ويتلوى هنا وهناك في منعرجات كثيرة، ويجري أخيراً في مضيق مظلم عبر جبال أشد ظلاماً أيضاً من الجبال التي خرج منها. كنا نسميه نهر الصّمت؛ فقد كان يبدو أنّ له وهو يجري تأثيراً مهدئاً. لم يكن ينبعث من مجراه اي صوت، وكان يسير بهدوء في مختلف الاتجاهات حتى ان حبات الرمل التي تشبه اللآلىء والتي كنا نحب أن نتأملها في قرارته، لم تكن تتحرك إطلاقاً، بل كانت ترتاح في سعادة ثابتة ـ كل حبة في مكانها القديم الأولي الذي يتلألأ ببريق خالد.

كانت ضفة النهر وضفاف الجداول الصغيرة الكثيرة البديعة التي ترفده من عدة جهات، والفسحة التي تمتد من الضفة حتى الأعماق الشفافة، وأجزاء هذا الوادي وسطحه جميعاً، بدءاً من النهر حتى الجبال المحيطة ـ كان هـذا كله مفروشـاً بعشب أخضر، ناعم، كثيف، قصير، متساوٍ تماماً، عابق بأريج الونيلة، لكنه منقّشٌ على مداه كله بالحوذان الأصفر والأقحوان الأبيض والبنفسج الأرجواني والبرواق الأحمر كالياقوت، بحيث أن جماله البديع كان يتحدث إلى قلوبنا، بلهجات تتفجر بالحب ومجد الإلّه.

وكانت ترتفع هنا وهناك، وسط هذا العشب، باقاتٍ باقات، أشبه بإنفجارات الأحلام، أشجارٌ سحرية لم تكن جذوعها الكبيرة الرفيعة مستقيمة، بل كانت مائلة بلطافة باتجاه الضوء الذي كان يزور الوادي ظهراً. كان قشرُها مبقعاً بلون قوي يتردد بين الفضي والآبنوسي، وكان مصقولاً وناعماً أكثر من أي شيء اخر ما عدا خدي إليونورا؛ بحيث أنه كان يمكن اعتبارُها، في الإخضرار الزاهي لأوراقها العريضة التي تتدلى من أعاليها في خيوط طويلة متأرجحة وتتلاعب مع الريح اللينة، أفاعي سورية ضخمة تمجد أميرتها الشمس.

شردنا، إليونورا وأنا، يداً بيد، خلال خمسة عشر عاماً، في هذا الوادي، قبل أن يدخل الحب قلبينا. وذات مساء، في تمام بلوغها الخامسة عشـرة من العمر، وبلوغي العشـرين، كنا نجلس، وقد ضمنا عناق متبادل، تحت الشجر الأفعواني، نتـأمل صورتينا في مياه نهر الصمت. لم نتفوه بأية كلمة طوال ذلك اليوم الجميل، وحتى في الصباح، كانت كلماتنا قليلة ومضطربة. كنا قد أخرجنا الإله إيروس من هذه الموجة، وبدأنا نشعر أنه أشعل فينا من جديد روح أسلافنا المتأججة. لقد انقضّت العواطف التي ميّزت سُلالتنا طوال عصور بكاملها، بكل قوتها وأهوائها التي شهرتها أيضاً، ونفخت الغبطة الجنونية على وادي الغازون ـ ديابرتي. ودبّ التغيّر في الأشياء كلها. طلعت من الشجر أزهار غريبة، متلألئة، منقشة لم يطلع مثلها من قبل. وصارت خضرة

الأرض أكثر كثافة؛ أخذت زهرات الأقحوان الأبيض تغيب الواحدة إثـر الأخرى لتنبثق محلهـا زهرات من البرواق بحمرة الياقوت. وتفجرت الحياة في كل ناحية من دروبنا؛ ذلك أن طـائر الغوّاص الكبير الذي لم نكن بعد نعرفه وجميع العصافير البهيجة ذات الألوان المتوهّجة، فرشت أمامنا ريشها القرمزي، وملأت الأسماك الفضية والذهبية النهـر الذي أخـذ يطلع من أعمـاقه رويداً رويداً صوتاً أصبح في السياق لحناً مهدهداً، أكـثر ألوهيـة من لحن قيثارة إيـول، وأكثر عذوبة من كل شيء ما عدا صوت إليونورا. إذاك أيضاً، ظهرت غيمة طالما ترصدناها في مناطق هيسبيروس، ترشح بألوان الذهب والياقوت، ونزلت ـ بعد أن استقرت فوقنا ـ نزلت يوماً بعد يـوم، وإقتربت شيئـاً فشيئاً، حتى لامست أطـرافها رؤوس الجبـال، فصيّرت ظـلامهـا بهـاء، وأطبقت علينا، كأنها أطبقت إلى الأبد، في سجن ساحر من الروعة والعظمة.

كان جمال إليونورا جمالاً ملائكياً؛ كانت بالفعل فتـاة لا تعرف التصنـع، بريئـة كالحيـاة القصيرة التي عاشتها بين الورد. لم تكن أية حيلة تُخفي حرارة الحب الذي يحرك قلبها، وكانت تتحراه معي في مكنون الخفايا، بينما كنا نشرد معاً في وادي الغازون ـ ديابري ونسهب في الحديث عن التغيرات العظيمة التي ظهرت فيه من عهد قريب.

وبعد أن حدثتني باكية، في أحد الأيام، عن التغير الأخير القاسي الذي ينتظر الإنسانيـة البائسة، لم تعد تفكر، منذ تلك اللحظة، إلا في هذا الموضوع الأليم، فتمزجه بأحاديثنا كلها، وتمزجه حتى بأغاني شاعر شيراز.

رأت أنَّ إصبع الموت كانت على صدرها، وأنَّها، كالظل، لم تنضج هذا النضج الكامل الجمال إلا لكي تموت؛ لكن أهوال القبر بالنسة لها كانت كلها كامنة في فكرةٍ وحيدةٍ كشفت لي عنها، ذات مساء لحظة الغروب، على ضفة نهر الصمت. كان يؤلمها التفكير انني بعد أن أدفنها في وادي الغازون ـ ديابري، سأنسى هذه الخلوات السعيدة وأحوّل حبّي، الذي هو الآن وقف مهيّم عليها، نحو فتاة ثانية من العالم الخـارجي المبتذل. وكنت، بـين وقتٍ وآخر، ارتمي عـلى قدمي إليونورا وأعرض عليها عهداً، لها وللسماء، بأنني لن أحاول الزواج بفتاة من الأرض، ولن أخون، في أي حال، ذكراها الغالية أو ذكرى حبها الحارّ. وأشهدتُ الله القويَّ ناظم الكون على ذلك. واللعنة التي توسلت إليهما، الله وهي، لإنزالها عليّ إن خنت عهدي هذا، ملأى بعقابٍ رهيبٍ لا أقدر أن أعبّر عنه. حين سمعت إليونورا كلماتي هذه لمعت عينـاها البـرّاقتان بـبـريقٍ أشدّ؛ وتنهدت كما لو أنها أزاحت عن صدرها عبئاً قاتلاً؛ وارتجفت وبكت بمرارة؛ لكنها قبلت عهدي (إذ هل كانت إلا طفلة؟) وعهدي هذا ليّنَ لها سرير الموت. وبعد أيامٍ قليلة، قالت لي، وهي تموت بوداعة، إنها ستسهرُ، لما فعلته في سبيل هدوء روحها، عليّ بهـذه الروح ذاتها بعد موتها؛ وأنها ستأتي، إذا سُمحَ لها، وتتجلّى لي طوال ساعات الليل، وأنها، إذا كان هذا الأمـر يتجاوز إمتيازات الأرواح في الجنة، ستجيء إليّ أطيافاً أطيافاً تتنفس فوقي في نسـائم المساء أو تملأ الهواء الذي أتنشقه بالعطر الطالع من مجامر الملائكة. ومع هذه الكلمات، فاضت روحها

البريئة راسمة هكذا نهاية المرحلة الأولى من حياتي.

تكلمت بأمانة حتى الآن. غير أنني حين أعبر هذا الحد في طريق الزمن، الذي أقامه موت حبيبتي، وأسير في المرحلة الثانية من حياتي، أشعر أن غيمة تتراكم فوق ذهني، وأشك أنا نفسي بقوة ذاكرتي. لكن أتركوني أكمل. - تتابعت السنوات بطيئة، الواحدة إثر الأخرى، وتابعت سُكناي في وادي الغازون - ديابري. لكن تغيّراً آخر تمّ في كل شيء. الأزهارُ غاضت في جذوع الشجر ولم تعد تظهر. وألوانُ البساط الأخضر تلاشت؛ وبادت زهرات البرواق الياقوتية، واحدة إثر واحدة. وطلعت مكانها البنفسجات الداكنة الشبيهة بعينيها اللتين كانتا تنشجان بأعياءٍ وتطفحان دائماً بدمعٍ كالأنداء. وابتعدت الحياة عن دروبنا؛ ذلك أن طائر الغواص الكبير لم يعد يفرش ريشه القرمزي أمامنا، بل يطير حزيناً من الوادي إلى الجبال مع مختلف العصافير الزاهية ذات الألوان المتوهجة التي كانت تجيء في موكبه أوان مجيئه. واختفت الأسماك الفضية والمذهبة هاربة عبر المضيق ولم تعد تزيّن النهر الرائق. وهذه الموسيقى المنعشة التي كانت أكثر عذوبة من قيثارة إيول وكل شيءٍ آخر ما عدا صوت إليونورا، ماتت رويداً رويداً في سقسقات كانت تتلاشى تدريجياً، إلى أن غرق النهر أخيراً في أبّهة صمته الأوليّ العميق. ثم ارتفعت الغيمة الضخمة وسقطت ثانية، وهي تترك ذرى الجبال لظلماتها القديمة، في مناطق هيسبيروس، ونقلت بعيداً عن وادي الغازون - ديابّري المشهدَ اللانهائيّ لأرجوانها وبهائها.

لم تنس إليونورا، مع ذلك، وعدَها؛ إذ إنني كنت أسمع تأرجح المجامر الملائكية قربي؛ وكان يتموّج دائماً دائماً ملء الوادي أريج العطر السماويّ؛ وفي ساعات الوحدة، وقلبي ينبض بتثاقلٍ، كانت الرياح التي تغمر جبهتي تصل إليّ مثقلة بتنهداتٍ عذبة؛ وكانت غالباً تمتمات غامضة تملأ فضاء الليل، ومرّةً، - آه! مرة فقط، أيقظتني من نومي، الشبيه بالموت، شفتان أثيريتان مطبقتان على شفتيّ.

غير أن فراغ قلبي لم يمتلىء، مع هذا كله. كنت اتوق بحرارةٍ إلى الحب الذي ملأه سابقاً حتى الفيض. ومع الوقت صار الوادي المليء بذكريات إليونورا، سبباً للحزن فتركته إلى الأبد في سبيل حطام الدنيا وزخارفها.

وجدتُني في مدينة غريبة كان كل شيءٍ فيها مصنوعاً ليمحو من ذاكرتي الأحلام الناعمة التي طالما حلمتها في وادي الغازون - ديابري. بهرج القصور وصليل الأسلحة الجنونيّ، وجمال النساء الأخّاذ - هذا كله كان يذهل دماغي ويُسكره. لكن روحي كانت حتى هذه اللحظة ما تزال امينة لمواثيقها، وكانت إليونورا ما تزال ترسل إليّ، طوال ساعات الليل، إشارات عن وجودها. وفجأة توقفت هذه الأطياف والإشارات عن الظهور؛ وأسود في عيني العالم، وبقيتُ في ذعرٍ من الأفكار الملتهبة التي كانت تسيطر عليّ، والإغراءات الرهيبة التي كانت تُحدق بي؛ فقد جاءت من البعيد، البعيد، من منطقة مجهولة إلى قصر الملك الذي كنت أخدم عنده، فتاةٌ تسلّطَ جمالها بسرعة على قلبي المارق، وسجدت عند قدميها، بكل ما في الحب من ضراعة ولهفة. أي

شيء كان حبي لفتاة الوادي، حين يُقارن باللوعة، والهذيان والانخطاف والعبادة التي سكبتُ فيها كلها روحيَ كالدمع على قدمي إرمنغارد الأثيرية! ـ آه كم كانت مضيئة إرمنغارد الملائكية! وهذه الفكرة لم تترك مكاناً في نفسي لأيّة امرأة ثانية. آه ـ آه ـ كم كانت إلهية إرمنغارد الساحرة! وحينما كنت أغوصُ في أعماق عينيها المليئتين بالذكرى، لم أكن أحلم إلا بها ـ وبها.

تزوجتها؛ ـ ولم أخشَ اللعنة التي كنتُ استنزلتُها ولم يُصبني أذاها. ومرةً، مرة واحدة، في هدوء الليل، عبرت التنهدات العذبة التي هجرتني، حَرَم نافذتي ووصلتْ إلي صوتاً ناعماً أليفاً قال لي:

«أرقد بسلام! ذلك أن روح الحب هي السلطان الذي يدبر ويحكم، ثم إنك، بعد أن قبلتَ في قلبك المهيم هذه التي اسمُها إرمنغارد، حُللتَ ـ لأسباب تُكشف لك في السماء، مما تعهدت به ونذرته لإليونورا».

الموعد

يا لك من رجل غامض سيء الطالع. تائهٌ في بريق خيالك، ساقِطٌ في لهيب فتوتك! أراك من جديد، روحياً! مرة ثانية ينهض شكلك أمامي! ليس، أوه ـ ليس كما أنت في الوادي البارد وفي الظلام، بل كما كان واجباً أن تكون، ممضياً حياتك في التأمل الرائع في هذه المدينة ـ مدينة الرؤى المضطربة، مدينتك التي هي إليزيه البحر، المدينة التي تعشقها النجوم، والتي تتحدى نوافذ القصور البيضاء، بشعور عميق مر، أسرار مياهها الصامتة. بلى، أكرر كما كان واجباً عليك أن تكون. هناك، لا شك، عوالم أخرى غير هذا العالم، وأفكارٌ ثانية غير أفكار الجمهور، وتأملاتٌ غير تأملات السفسطائي. من يضع، إذن، سلوكك موضع الشك؟ من يلومك على أوقاتك الرائية، أو يقول عن اهتماماتك بأنها أفسدت حياتك، وهي التي لم تكن غير فيض من طاقتك الخالدة؟

كان ذلك في البندقية، تحت القنطرة المفتوحة التي تسمى البونتي دي سوسبيري، حيث قابلت للمرة الثالثة أو الرابعة الشخص الذي أعنيه. ولا أذكر إلا بغموض ظروف هذا اللقاء. مع ذلك، أتذكر ـ آه! كيف أنساه؟ ـ منتصف الليل العميق، جسر التنهدات، جمال المرأة وشيطان الشعر الذي كان يعبر القنال الضيق!

كان ذلك ليلاً مظلماً بنوع خاص. كانت الساعة الكبيرة في الساحة قد دقت الخامسة مساء بتوقيت إيطاليا. كانت ساحة الكامبانيل مقفرة ترقد بهدوء، والأضواء في قصر دوكال القديم تتلاشى سريعاً. كنت عائداً من البيازّاتا، في القنال الكبير. لكن بينما كان الجندول الذي يحملني يمرّ قبالة مخرج قنال سانت مارك، انفجر بغتة صوت نسائيٌ صادرٌ من أعماقه، في الليل بصرخة وحشية واحدة مجنوناً، مديداً؛ وإذ فاجأني الصراخ، نهضتُ، بينما سائق الجندول كان يبحث عن المجذاف الوحيد الذي أفلت من يده فضاع في الظلام الأسود، ولم يعثر عليه. وهكذا تُركنا

لمجرى القنال الذي يلتقي، في هذا المكان من القنال الكبير، بالقنال الصغير. كنا ننزلق ببطء، أشبه بكندور ضخم أسود الريش، نحو جسر التنهدات، حينما توهجت مئات المشاعل في النوافذ وعلى امتداد سلالم قصر دوكال، وجعلت فجأة من الظلام العميق نهاراً داكناً غريباً.

كان طفلٌ، أفلتَ من يدي أمه، قد سقط من نافذة في أعلى العمارة الكبيرة، في القنال الكبير الضيق، وانطبقت المياه الهادئة على ضحيتها؛ ومع أن جندولي الخاص كان الوحيد الظاهر، فإن سبّاحين بارعين كانوا يبحثون عبثاً فوق سطح الماء عن الكنز الذي لم يكن بمقدورهم ويا للأسف أن يعثروا عليه إلا في الهاوية. كانت تقف عند مدخل القصر وعلى بعد عدة درجات من الماء امرأة لا يستطيع أي شخص رآها آنذاك أن ينساها مطلقاً بعد ذلك، هي المركيزة أفروديت، معشوقة البندقية كلها، أكثر الفرحات فرحاً؛ الأجمل بين الجميلات، لكن الزوجة الشابة لمنتوني العجوز الماكر، وأم هذا الطفل الجميل، طفلها الأول الوحيد الذي كان في تلك اللحظة يفكر عميقاً، تحت المياه المظلمة، بمرارة وحسرة، بعناقاتها العذبة ويستنفد حياته الصغيرة مكافحاً من أجل أن يلفظ اسمها.

كانت تقف وحيدة. قدماها الصغيرتان، العاريتان البيضاوان كالفضّة، تتلألآن في المرآة الرخامية السوداء تحتها. شعرها يتشابك وسط نهرٍ من الجواهر حول رأسها الكلاسيكي، في حلقات تشبه السوسن؛ وكان غطاء ناصع البياض أشبه بالبخار، يغطي وحده تقريباً تقاطيع جسمها الدقيقة، لكن هواء منتصف الليل هذا، في أواسط الصيّف، كان حارّاً، كثيفاً وهادئاً؛ ولم تكن أية حركةٍ من هذا الشكل الشبيه بالتمثال تحرّك حتى ثنايا هذا الرداء البخاريّ الذي يتدلى حولها كالرخام الكثيف. والغريب، في ذلك، أنّ عينيها البراقتين لم تكونا حانيتين على هذا القبر الذي دفن فيه أعظم آمالها، لكنهما كانتا محدقتين في اتجاهٍ معاكسٍ تماماً. إن سجن الجمهورية القديم هو، كما أظن، أضخم الأبنية في البندقية كلها؛ لكن كيف كان باستطاعة هذه المرأة أن تحدّق فيه، على هذا النحو، بينما كان يختنق، إلى جوارها، طفلُها الوحيد؟ من لا يتذكّر أنَّ العين في ساعة كهذه تكثّر، كالمرآة المحطّمة، صورة حزنها وتلمح الشقاء القريب من بعيدٍ وفي أكثر الأماكن.

كان منتوني نفسه، على بعد درجات قليلة من المركيزة، واقفاً في ثياب السهرة، أشبه بالساتير. يضرب من وقتٍ لآخر على القيثار ويبدو ضجراً حتى الموت حينما يلقي الأوامر لاكتشاف الطفل. كنت من الذهول والدهشة بحيث أنني عجزت عن تغيير وضعي المستقيم الذي اتخذته وأنا أسمع الصراخ للمرة الأولى. ورأى فيّ الحشد المضطرب شبحاً سيء الطالع وأنا أسير، شاحب الوجه يابسَ الأعضاء، في هذا الجندول المأتمي.

فشلت المحاولات كلها. والكثيرون ممن ظهروا أكثر نشاطاً من غيرهم في البحث تراخوا واستسلموا لكآبة عابسة. وبدا لهم أن الأمل قليل في إنقاذ الطفل (وما كان أقلّه بالنسبة للأم!)؛ لكن سرعان ما خرج شكلٌ إنسانيٌ من داخل النفق المظلم الذي يشكل جزءاً من السجن

الجمهوري القديم، وبعد أن توقف لحظة على ضفة هذا المنحدر المدوّم، غاص في القنال. وبعد لحظةٍ كان الرجل يقف مع الطفل الذي ما يزال حياً يتنهد وهو يحتضنه، على البلاط الرخامي قرب المركيزة. وحينما سقط حول قدميه، معطفه الذي أثقلته رطوبة الماء كشف للنظارة الذين فاجأتهم الدهشة، عن جمال شابٍ كان اسمه آنذاك يترك دوياً في الجزء الأكبر من أوروبا.

لم يتلفظ منقذ الطفل بأية كلمة. والمركيزة! سوف تستقبل طفلها، تعانقه وتحتضنه، تتمسك بصورتها الصغيرة وتغمرها بقبلاتها. لكن، واأسفاه! فقد تناولت الطفل ذراعان أخريان، وأخذتاه بعيداً، في القصر، بعيداً عن عينيها. والمركيزة! كانت شفتاها، شفتاها الجميلاتان ترتجفان، وكانت الدموع تتجمع في عينيها العذبتين الصافيتين. بلى، كانت الدموع تتجمع في عينيها، وها هي، ترتجف بكيانها كله، ويتحرك التمثال. شحوب الوجه الرخامي، بروز الصدر الرخامي، نقاوة القدمين الرخاميتين ـ هذا كله يبدو الآن وهو يحمر فجأةً في تيار من الدم العفويّ، وها هو الارتعاش يهز الشكل الناعم، كما يهز نسيم نابولي الرقيق الزنابق الفضية الرائعة، بين العشب.

لماذا احمرّ وجه السيدة؟ ليس من جواب على هذا التساؤل إلا في كونها، وقد خرجت بسرعة أمّ ملهوفة من خدرها الخاص، نسيت ان تسجن قدميها الناعمتين في خُفيّهما، ونسيت كلياً أن تلقي على كتفيها هذا الغطاء الموشى الذي تستحقانه. ما هو السبب الآخر الممكن لاحمرارها؟ للنظرة الغريبة في عينيها الضارعتين؟ الهيجان غير المعتاد في هذا الصدر الخفّاق؟ للضغط المتشنج من هذه اليد المرتجفة، هذه اليد التي ارتمت عرضاً، بينما كان منتوني يدخل إلى القصر، فوق يد الغريب؟ ما هو سبب النبرة المنخفضة، النبرة المنخفضة بشكلٍ فريد في كلماتها التي لا معنى لها، والتي لفظتها على عجل وهي تودعه؟ «لقد انتصرت»، ـ قالت له، أو ربما خدعني صوت الماء، ـ «لقد انتصرت، بعد شروق الشمس بساعة، سنلتقي، آمين».

كان الضجيج قد هدأ، وانطفأت الأنوار داخل القصر، والغريب، الذي بدأت أتعرف عليه، واقف على الرخام وحده. كان يرتجف بشكل يصعب فهمه، ويطوف بعينيه حوله بحثاً عن جندول. لم أكن أستطيع أن أفعل أقلّ من أن أعرض عليه استخدام جندولي؛ فَقَبلَ هذا اللطف. وسرعان ما أخذ ونحن نسير في اتجاه مسكنه، يسيطر على أعصابه، ويتحدث عن تعارفنا القديم العرَضي بعبارات ظاهرة المودة.

هناك موضوعاتٌ أحب ان أكون دقيقاً في الحديث عنها. شخصية الغريب ـ واعذروني لتسميتي بهذا الاسم شخصاً كان لا يزال غريباً بالنسبة للناس كلهم ـ شخصية الغريب هي بين هذه الموضوعات. كانت قامته دون الحدّ الوسطي أكثر مما هي فوق هذا الحدّ، وإن كانت هناك لحظات من الانفعال الكثيف تطول خلالها بالفعل وتكذّب هذا التأكيد. كان تناسق شكله الخفيف بل الهشّ يوحي بهذه الحيوية السريعة التي أبداها عند جسر التنهدات، أكثر مما يوحي بهذه القوة الهرقلية التي عرفت عنه في مناسبات كان الخطر فيها أقوى. كانت له، بفمه وذقنه

الإلهيين، وعينيه الفريدتين الوحشيتين المليئتين، الصافيتين، اللتين كان لونهما يتموج بين الكستنائي الصافي والأسود الكهربائي البراق الكثيف، وفيض الشعر الأسود المجعّد فوق جبهة بطولٍ غير عادي، تتلألأ، بين الحين والآخر، بالضوء والعاج - كانت له بهذا كله قسمات كلاسيكية لم أرَ في مثل تناسقها، اللهم إلا قسمات الامبراطور كومودوس الرخامية. كان وجهه، مع ذلك، وجه شخص رآه الناس كلهم في مرحلة من حياتهم، ولم يروه ثانية، بعد ذلك. لم يكن فيه تعبير خاص، لم يكن فيه تعبير محدد وغالب يعلق بالذاكرة؛ وجه يُرى وينسى بلحظة، لكن يُنسى برغبة غامضة ودائمة في تذكره. ليس لأن الانفعال الخاطف يعجز في لحظة ما أن يلقي صورته الخاصة المتميزة على مرآة هذا الوجه، بل لأن المرآة أو شبيه المرآة لا تحفظ الانفعال، بعد زواله.

حين تركته، عشية المغامرة، ألح عليّ، كأنما يدعوني لحادثٍ مستعجل، كي أراه صباح الاثنين. لهذا لم يكد النهار يطلع حتى كنت في دارته، وهي إحدى الأبنية ذات الأبهة العالية الجامحة التي ترتفع فوق مياه القنال الكبير، إلى جوار الريالتو. صعدت سلّماً عريضاً دائرياً مصنوعاً من الفسيفساء ودخلت إلى غرفة يشعّ بهاؤها الذي لا يُضاهى، عبر الباب المفتوح من ثُريا لا نظير لها مما أعماني وأذهلني.

كنت أعرف أن الرجل غني. وقد ترددت، وأنا أجول ببصري حوالي، بالاقتناع أنّ غنى أي إنسان في أوروبا كان يمكنه أن يوفر هذه الروعة الملكية التي تتوهج وتضيء.

ومع أن الشمس كانت طالعة، كما قلت، فإن الحجرة كانت ما تزال في إشراقها المضيء. قدرتُ استناداً إلى هذه الظروف وإلى ملامح التّعب في وجه صديقي، أنّه لم ينم طيلة الليل السابق. كان المخطط الواضح في هندسة الغرفة ونقوشها هو أن تذهل وتدهش. نادراً ما انتبهت إلى الديكور، إلى ما يُسمى، تكنيكياً، التناسق، أو إلى الطابع المحلي. كانت العين تشرد من شيء إلى شيء آخر ولا تهدأ عند واحد معيّن، أو عند اللوحات الغريبة للمصورين اليونانيين، أو عند قطع النحت في أزهى عهود إيطاليا، أو عند التماثيل الفرعونية الضخمة. ستائر جميلة تتأرجح في أجزاء الغرفة كلها في تموّج الموسيقى الهادئة الحزينة. الغرفة مثقلة بعطور ممتزجة، يصارع الواحد الآخر، وتعلو من مجامر غريبة غير معهودة، كانت تبدو بالفعل زاخرة بحيوية رهيبة بينما كان لهيبها الملون يتلوّى في الأعلى والأسفل وحولها. كانت أشعة الشمس تنهمر على جميع ما في الغرفة، من خلال النوافذ المغلقة كلها بلوح زجاجي قرمزي وتختلط أشعة هذا البهاء الطبيعي، المنعكسة هنا وهناك في مئات الاتجاهات بواسطة الستائر التي كانت تنبسط من أفاريز أشبه بشلالات من الفضة الذائبة، تختلط بالضوء الصنعي وتغمر بكتلتها الهادئة سجادة ذهبية فخمة تشيلية الصنع تبدو كصفحة سائلٍ نقي. كان قبالتي سديمٌ - جمالٌ مجنون. وتملكني حسٌّ بالعظمة الحالمة وغير المترابطة وبقيت واقفاً في الباب دون أن أعثر على كلمة.

ـ ها! ها! ها! ـ ها! ها! ها!، ـ ضحك صاحب البيت وهو يشير لي بالجلوس، بينما كنت أدخل إلى الغرفة، واستلقى بطوله على الأريكة. وإذ أدرك أنه لم يكن بإمكاني أن آلف مباشرة هذا النوع من الاستقبال الفريد، قال:

ـ «أرى أن شقتي أدهشتك؛ أدهشتك تماثيلي ولوحاتي وطرافة ذوقي في الهندسة والطنافس! إنك في نشوة كاملة ـ أليس كذلك؟ من أُبّهتي؟ لكن اعذرني يا سيدي العزيز (هنا تغيَّرت لهجته واكتست طابع المودة) ـ اعذرني لضحكي غير الوديّ. كنت تبدو مذهولاً تماماً. أضف إلى ذلك أن هناك أشياء مضحكة جداً بحيث أنه ينبغي على الإنسان أن يضحك منها، أو يموت. ولا بدَّ أن يكون موت الإنسان وهو يضحك أحد أشكال الموت العظيمة. تذكر أن السيد توماس مور ـ وكان رجلاً وقوراً ـ مات وهو يضحك. ثم هناك لائحة طويلة من الأشخاص في «المستحيلات» لرافيسيوس تيكستور، انتهوا هذه النهاية البديعة».

وتابع حالماً:

ـ «هل تعرف أيضاً أنَّ في سبارطة التي تسمَّى الآن باليوشوري، في سبارطة غربي القلعة وسط سديمٍ من الأنقاض لا يكاد يُرى، عموداً لا تزال تُقرأ عليه حروفٌ تُظهر أنه كان فيها الآف المعابد والمذابح المكرسة لآلاف الآلهة المختلفين. وكم هو بالغ الغرابة أن يكون مذبح الضحك بقي وحده دون المذابح الأخرى!».

واستأنف كلامه وقد غيَّر صوته وطريقة كلامه بشكل فريد، فقال: ـ «لكن ليس من حقي في الحالة الحاضرة أن أكون فرحاً على حسابك ـ فقد كان طبيعياً أن تُفاجأ. إن أوروبا لا تستطيع أن تنتج شقة جميلة كشقتي الملكية الصغيرة هذه. إنَّ داراتي الأخرى لا تُشبهها من أية ناحية، فهي نوع من هوس الموضة. وهذه أفضل من الموضة، أليس كذلك؟ أنت تقريباً، باستثنائي أنا وخادمي، الشخص الوحيد الذي قُبل في سرّ هذا الحرم الملكي، منذ أن رُتب بهذا الشكل الذي تراه».

انحنيت جواباً، ذلك أن القوة المرهقة للروعة والعطر والموسيقى، بالإضافة إلى الغرابة غير المنتظرة في خطابه وحركاته، كانتا تمنعانني من التعبير بالكلام عن تقديري لما كنت أستطيع أن أحسبه ثناء.

واستأنف كلامه وهو ينهض متكئاً على ذراعي، هائماً، بقوله:

ـ «هنا لوحات اليونانيين حتى سيماتشي، ومن سيماتشي حتى الوقت الحاضر. الكثير بينها انتقي، كما تلاحظ، دون كبير اعتبار للرأي النيّر؛ هذه اللوحات، مع ذلك، زينة تلائم غرفة كهذه. هنا أيضاً بعض الروائع لمجهولين كبار؛ وهنا الرسوم غير المكتملة التي رسمها أشخاص مشهورون في عصورهم تركت فطنة الأكاديميين حتى أسماءهم لي وللصمت».

ثم قال وهو يستدير بسرعة:

ـ «كيف ترى هذه المادونا ديلاّ بياتا؟».

ـ «هذه للرسام لوغيدو! ـ قلت بكل ما في طبيعتي من الحماس، لأنني كنت قد تأملت سحرها الذي يفوق الكل ـ هذه للرسام لوغيدو؛ كيف استطعت الحصول عليها؟ إنها، ولا ريب، في التصوير مثل فينوس في النحت».

وقال بتأمل:

ـ «آه، فينوس، فينوس الجميلة؟ فينوس ميديسيس؟ ذات الرأس الصغير والشعر الذهبي؟ التي رُمم جزء من ذراعها اليُسرى ـ (هنا انخفض صوته بحيث لم يعد يسمع إلا بصعوبة) ـ ورُممت ذراعها اليمنى كلها؛ وأظنّ أن في غنج الذراع اليُمنى، تكمن خلاصة كل عاطفة. من جهتي أحبّ النحّات كانوفا. لا شك أن تمثال أبولون هو أيضاً نسخة. يا لي من غبي أعمى لم ألاحظ ذلك. رفقاً بي، فأنا لا أستطيع إلا أن أفضّل تمثال أنتينوس».

يلاحظ، أو من الواجب الملاحظة، أننا نشعر دائماً، في حركات شخص رفيع التهذيب حقاً، بما يميزه عن سلوكية الشخص المتبذل، دون أن يقتضي ذلك سريعاً القدرة على تحديد الأشياء التي يقوم عليها هذا التمييز. ولئن كانت هذه الملاحظة تنطبق بكل ما فيها على مسلك صديقي الخارجي، فقد كنت أشعر، صبيحة ذلك اليوم المليئة بالحوادث، أنها أيضاً أكثر انطباقاً على مزاجه النفسي وطباعه. ولم أستطع أن أحدد هذه الخصوصية الفكرية التي كانت، كما يبدو، تجعل منه نسيج وحده بين البشر جميعاً ـ بأفضل من تسميتها عادة من التفكير الحاد المستمر تظهر في أبسط أفعاله، وتتداخل في لحظات مُزاحه، وتتدحرج في أفراحه كأفاع نراها تخرج من عيون الأقنعة الساخرة، في الأفاريز حول معابد بيرسيبوليس.

غير أنني لم أستطع الامتناع عن الملاحظة بشكل مكرر، خلال اللهجة الممزوجة بالرشاقة والأبهة، والتي كان يشرح بها سريعاً الأشياء القليلة الأهمية، نوعاً من الارتجاف، ودرجة من السرعة العصبية في الإشارة والكلام، وتهيجاً قلقاً في الحركات كان يبدو لي دائماً أنه لا يُفسر، وفي بعض المناسبات يملؤني خوفاً. كان أيضاً كثيراً ما يبدو، حين يتوقف وسط جملة نسي بدايتها ظاهرياً، أنه يصغي بأعمق انتباه، كما لو أنه ينتظر زائراً بين لحظةٍ وأخرى، أو يعير أذنه لأصواتٍ لا وجود لها إلاّ في خياله.

وفي إحدى لحظات شروده أو غيبوبته الظاهرية، اكتشفت وأنا أقلب صفحات المسرحية الجميلة (أورفيو) L'orfeo للشاعر الإيطالي بوليسيان (المسرحية الأصيلة الأولى في إيطاليا) التي كانت ملقاة إلى جانبي على أحد المقاعد، ـ اكتشفت مقطعاً أشير إليه بالقلم. كان مقطعاً في نهاية الفصل الثالث، يهزّ القلب ويثيره، لا يقرؤه أي رجل دون رعشة انفعال جديد، ولا أية امرأة دون أن تتنهد. كانت الصفحة بكاملها تحمل آثار دموع طرية، وكانت هذه الأبيات الشعرية الإنكليزية مكتوبة على الهامش المقابل بيد تختلف بصفاتها عن صفات كتابة صديقي، حتى أنني

تعبت في التعرف إلى أنها كتابته :

كنتِ لي يا حبيبتي هذا كله
كل هذا الذي تنتحِبُ روحي لأجله،
جزيرة خضراء في البحر، يا حبيبتي،
ينبوعاً ومذبحاً.
مُكللين بالثمار والورد الفاتن.
وكانت الورود كلُّها ورودي.

آه، أيها الحلم المضيء الباقي!
آه، يا أملاً كالنجم لم يشرق
إلاَّ لكي يصير ظلاماً!
صوتٌ آت من المستقبل يضحك
«إلى الأمام!» لكن فوق الماضي
(الهاوية العميقة) تحوّم روحي
خرساء ولهانة، جامدة.

ذلك أن ضياء حياتي انتهى
واأسفاه، واأسفاه

«هيهاتِ، هيهاتِ، هيهات»
(إن لغة كهذه تبقي البحر في احتفالِهِ
على رمال الشاطىء)
لن تزهر الشجرة التي يبَّستها الصاعقة
ولن يطير النسر المصعوق.

ساعاتي الآن كلها نشوة
وأحلامي جميعها
هناك حيث تنظر العين القاتمة
وتشعّ القدم
في هذه الرقصات الأثيرية
على ضفاف أنهار إيطاليا.

واأسفاه! في هذا الزمن الملعون
تحملك فوق الموج
بعيداً عن الحب صوب الشيخوخة ذات الألقاب والجريمة

ووسادة تدنس
بعيداً عني، وبعيداً عن مناخنا الضبابي
حيث يبكي الصفصاف الفضي.

إن كتابة هذه السطور بالإنكليزية، اللغة التي ما كنت أعتقد أن كاتبها يألفها، لم تفاجئني كثيراً. كنت أعرف جيداً اتساع معارفه وأعرف كم كان يُسر لإخفائها، كي يثير المفاجأة في اكتشاف مشابه. غير أن مكان التاريخ، وعليّ أن أعترف بهذا، سبَّب لي دهشة لم تكن بسيطة. كان قد كتب في الأصل اسم لندن؛ ثم شطب بعناية لكن ليس إلى حدّ إخفائه عن العين الفاحصة. قلت لم تكن هذه الدهشة بسيطة لأنني أذكر جيداً أنني سألت صديقي بشكل خاص في بعض أحاديثنا السابقة إذا كان، في وقت ما، قد التقى في لندن المركيزة دي منتوني، (التي أقامت في هذه المدينة بضع سنوات قبل زواجها)، وكان جوابه، إن لم أكن مخطئاً، إنه لم يزر قط هذه المدينة. أستطيع للمناسبة أن أذكر أيضاً أنني سمعت أكثر من مرة (دون أن أثق تماماً بكلام كان يتضمن كثيراً من عدم الاحتمال) أنَّ الشخص الذي اتكلم عنه لم يكن في نشأته فحسب، إنكليزياً، بل في ثقافته أيضاً.

قال، دون أن يهتم برؤيتي لمسرحية بوليسيان:

- «هناك أيضاً لوحة أخرى لم ترها».

ورفع غطاءً كشف عن لوحة تمثل المركيزة أفروديت.

لم يكن الفن الإنساني ليستطيع أن يفعل أكثر من ذلك للتعبير عن جمالها الذي يتجاوز الجمال الإنساني. كان الشكل الأثيري الذي نهض أمامي، عشية الليلة السابقة، على سلم قصر دوكال، ينهض أمامي، مرة ثانية. وكانت ما تزال ترتسم في تعبير الوجه الذي كان يشعّ بالبسمات، تلك الآثار الغامضة من الكآبة التي لا تنفصل أبداً عن الجمال. كانت ذراعها اليمنى مثنية على صدرها؛ وبذراعها اليسرى تشير إلى إناء على الأرض غريب الشكل؛ تبدو منها قدم واحدة صغيرة كقدم الجنّية، تلامس الأرض؛ وكان يرفرف جناحان صوَّرا برهافة لا يكادان يبدوان في جو اللوحة المضيء الذي يبدو كأنه يؤطر لطافتها ويرصعها. وسقطت عيناي من اللوحة فوق شبح صديقي، وارتعشت كلمات بوسي دامبواز دي شابمان غريزياً على شفَّتي:

إنه هنا واقفٌ
كتمثال روماني؛ سيظل واقفاً
إلى أن يجعله الموت رخاماً!

أخيراً، قال فجأة، وهو يتجه نحو طاولة نفيسة مزخرفة بالميناء والفضة السبيكة، عليها إناءان كبيران من طراز غريب مليئان، كما ظننت بخمر جوها نسبرغ، - قال:

- «هيا نشرب. الوقت مبكر، لكن لنشرب».

وتابع حالماً:

«الوقت مبكر في الواقع، لكن ما يهمّ ذلك؟ لنشرب، لنسكب قرباناً إلى الشمس السامية التي كثيراً ما تتشوق لقهرها هذه المصابيح وهذه المجامر المتلألئة. الحلم هو موضوع حياتي. هكذا بنيت لنفسي كما ترى، خلوة لأحلامي. هل كنت أقدر أن أبني أجمل منها، في البندقية؟ صحيح أنك ترى حولك مزيجاً من الزخارف الهندسية. الإبتكارات السابقة للطوفان أساءت إلى النقاء الأيوني وأبو الهول المصري ممدود على السجادات الذهبية. إن لها مع ذلك تأثيراً غير لائق، بالنسبة للخجولين وحدهم؛ وآداب المكان والزمان خصوصاً تهويلات ترهب الإنسانية وتبعدها عن تأمل الجميل الرائع. أحببت الزخرفة في الماضي، لكن هذا التصَعيد للجنون أرهق روحي. هذا كله ينسجم الآن بشكل أفضل مع ميولي. إن روحي كخطوط هذه المجامر الأرابسكية، تتوتر في نار هذا المشهد وهذيانه، وتصوغني للرؤى الأكثر هولاً من هذه الأرض - أرض الأحلام الحقيقية التي أنطلق إليها سريعاً».

هنا توقف بغتة، حتى رأسه فوق صدره وبدا أنه يصغي إلى صوتٍ لم أستطع سماعه. وبعد ذلك رفع عينيه وقرأ هذين البيتين اللذين كتبهما أسقف شيشستر:

انتظرني هناك، فلن يفوتني

لقاؤك في ذلك الوادي السحيق.

وفي اللحظة التالية استسلم لفعل الخمر واستلقى بطوله على أحد المقاعد.

وفي الوقت نفسه كان يسمع وقع خطواتٍ سريعة على السلم تبعه نَقرٌ قوي متلاحق على الباب. أسرعت كي أحول دون إقلاق راحتنا مرة ثانية، بينما دخل فجأةً إلى الغرفة غلام من قبل منتوني وتأتأ بصوت خنقه الانفعال كلمات لا ترابط بينها: - سيدتي! سيدتي! سممت! سُممت! ويلي على الجميلة! ويلي على أفروديت الرائعة!

ركضت مذعوراً نحو المقعد لكي أوقظ صديقي النائم، وأنقل إليه الخبر المفاجىء. لكن أعضاءه كانت جامدة، وكانت شفتاه كامدتين، وعيناه اللتان كانتا تشعان منذ هنيهة، ترقدان في الموت. تراجعتُ مترنحاً صوب الطاولة؛ وسقطت يدي فوق كأسٍ عتيقة وسوداء، وفجأة اتضح في نفسي الشعور بالحقيقة الكاملة الرهيبة.

الحياة الأدبية، للسيد ثنغوم بوب رئيس تحرير «الإوزة النقاقة»، بقلمه.

تقدمت بي السن، وليس من المستبعد أن أموت ما دام شكسبير والسيد ايمونز قد ماتا هما أيضاً. ولذا ربما كان من المستحسن أن أنسحب من الحياة الأدبية وأنام على حرير أمجادي. لكنني أرغب في أن أميز اعتزالي الوسط الأدبي ببعض الوصايا والتوجيهات التي تهم الناشئة. ولعلّ خير ما أقدمه لها بهذه المناسبة قصة المرحلة الأولى من نضالي الأدبي. لقد تردد اسمي سنوات طويلة أمام الجمهور إلى درجة أنني لا أكتفي بأن أتقبل بكل طيبة خاطر ما أثاره هذا الاسم من الدهشة والإعجاب فقط، بل أجدني على استعداد لإرواء فضول المعجبين ودهشتهم. والحق أن من واجب الذي يبلغ المجد أن يترك وراءه نقاط الانطلاق التي مرَّ بها في صعوده، لتنير سبل الآخرين في ارتقائهم سلم المجد. ولذا أرى من الضروري أن أخط على الورقة التي بين يدي (والتي أفكر بتسميتها: «مذكرات في خدمة تاريخ الأدب الأميركي») وأكشف تاريخ خطواتي الأولى المهمة، ومع ذلك الضعيفة المتعثرة، التي تمكنت بفضلها من بلوغ الطريق التي تؤدي إلى قمة المجد الإنساني.

لست أرى فائدة في التحدث عن أسلافي. كان أبي السيد توماس بوب في ذروة حرفته خلال سنوات طويلة، إذ كان حلّاقاً في مدينة سموغ. كان حانوته ملتقى وجوه المنطقة، وملتقى الصحافيين بصورة خاصة. وهم قوم يوحون الاحترام والتقدير العميقين. شخصياً كنت أنظر إليهم وكأنهم آلهة، أنهل الحكمة والنّهى اللذين يتدفقان من شفاههم العظيمة عندما كنت أغطي ذقونهم بالصابون. يرجع تاريخ لحظات الهامي الأولى، إلى تلك الفترة التي لا تنسى حين كان رئيس تحرير «ذبابة الخيل» يلقي أثناء عملية وضع الصابون التي ذكرتها، قصيدة عصماء على مسامع عمالنا المتمرنين يمتدح بها «زيت بوب النقي الوحيد» (وهو الإسم الذي أطلقه عليه مخترعه العبقري، والدي) وقد كافأت شركة توماس بوب وشركاه ـ حلاقون وتجار» رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على هذه القصيدة بكرم ملكي.

إن المقاطع الملهمة من قصيدة «زيت بـوب» قد أذكت فيَّ الشعلة المقـدسة، وقـررت في الحال أن أصير رجلاً عظيماً، وأبدأ هذه الطريق بأن أصير شاعراً كبيراً. ذلك المساء بالـذات، جثوت على ركبتي أمام أبي وتضرعت إليه قائلاً:

ـ «سامحني يا أبي! إن نفسي تتوق إلى ما هو أكثر من الحلاقة. أرغب في تـرك الحانـوت. أريد أن أصير رئيس تحرير ـ أن أصير شاعراً ـ أصبو إلى نظم أبيات في «زيت بوب». أغفر لي وساعدني كي أصير عظيماً».

ـ «يا عزيزي ثنغوم» (تعمدت باسم ثنغوم لأن لي قريباً ثرياً اشتهر بهذا الاسم) قال ذلـك وهو يشدني بأذنيّ ليرفعني ـ «ثنغوم يا ولدي. أنت محظوظ لأنـك ورثت همتك عن أبيـك. لك أيضاً مثل رأسه الكبير، ولا بد أنه يحوي أدمغة متعددة. لحظت هـذا منذ زمن طـويل، ولـذا فكرت بأن أجعلك محامياً. لكن مهنة المحاماة لم تعد مرغوبة، وهذا النوع من العمل السياسي لا يدرّ مالاً. كنت حكيماً واخترت الأفضل ـ تجارة رئاسة التحرير هي الأجدى. وإذا استطعت أن تكون شاعراً في الوقت نفسه ـ كما هي الحال بالنسبة لكثير من رؤساء التحرير ـ تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد ـ وتشجيعاً لك في بداية عملك سأعطيك عليَّـة وريشة وحبـراً وورقاً، ومعجماً للقوافي ومجموعة من «ذبابة الخيل» ولا أظنك تطلب بعد هذا شيئاً».

فأجبته بحماس وحرارة.

ـ «أكون وغداً ناكراً للجميل إن أنا فعلت، لأن كرمك بلا حدود. سأكافئك بأن أجعلك أباً لعبقري».

هكذا انتهى حديثي مع أفضل البشر. وما كاد ينتهي حتى أكببت على عملي الشعري، لأنني كنت أبني عليه آمالي في الارتقاء إلى كرسي رئاسة التحرير.

اكتشفت منذ محاولاتي الأولى أن مقـاطع «زيت بـوب» ستشوشني أكـثر مما تفيـدني. كان سحرها يبهرني أكثر مما يضيء سبيلي. كانت عزيمتي تكل حين أتأمل روعة تلك المقاطع، لأنني كنت أميل عفوياً إلى مقارنتها بأعمالي الفاشلة بالرغم من كل الجهود. أخيـراً خطرت لي فكـرة طريفة فـذة، من تلك الفكر التي تمـر بين حـين وآخر في دمـاغ العبقري. كـانت كما يـلي ـ أو بالأحرى نفذتها على الوجه التالي: قصدت حانوتاً في طرف قصي من المدينة تتكدس في زوايـاه الكتب، وابتعت مجموعة كبيرة من الكتب العتيقة، المجهولة كلياً، أو المنسية. حصلت عليهـا بثمن زهيد يكاد لا يذكر. عن أحد هذه الكتب، الذي قيل على غلافه إنه ترجمة لجحيم دانتي، نسخت بعناية فائقة مقطعاً طويلاً يدور حول رجلٍ يدعى إوغو لينو رزق العديد من الأولاد. كما نسخت من كتاب آخر يضم مجموعة من الأشعار القديمة كتبها شخص نسيت اسمه، بالعناية ذاتها عدداً كبيراً من الأشعار حول «الملائكة» و «وزراء الإحسان» وحول «العفاريت المحكومة» وأشياء أخرى من هذا النوع. ومن كتاب ثالث ألفه أحد العميان من الإغريق أو الهنود ـ لا يمكنني أن

أكلف نفسي عناء تذكر التفاصيل بدقة ـ نقلت من هذا الكتاب خمسين بيتاً مبتدئاً «بغضب أخيل» وشيئاً آخر من هذا النوع. ومن كتاب رابع كان هو أيضاً لمؤلف أعمى اخترت صفحة أو صفحتين تناولتا موضوعين هما «تحية» و «الضياء المقدس»؛ وبالرغم من أنه لا حاجة بالأعمى إلى الكتابة عن الضياء، فقد كانت تلك الأبيات جيدة إلى حد ما.

بعد أن نسخت كمية كافية من هذه الأشعار وقعت كلًا منها باسم «أوبّودِلْدوك» (اسم جميل رنّان) ووضعت كل واحدة في غلاف مستقل ثم وزعتها على الصحف الرئيسية الأربع مع رسالة أطلب فيها النشر السريع والدفع الفوري. طبعاً جاءت نتيجة هذه الخطة مخيبة للغاية، (والتي كان نجاحها يوفر عليّ الكثير من المتاعب في مراحل حياتي التي تلت) وأقنعتني بأن بعض رؤساء التحرير لا يخدعون بسهولة، وجاءت بمثابة coup de grâce[1]، (كما يقال في فرنسا) لآمالي الوليدة (كما يقال في مدينة المتفلسفين).

النتيجة أن كل مجلة كتبت لها أرهقت السيد أوبّوديلدوك بما كتبته في زاوية «بريد الشهر». وهذا ما كتبته عنه مجلة «القِدْر المدمدمة»:

«لقد أرسل إلينا أوبّودِلدوك (كائناً من كان) قطعة نثرية تتحدث عن مجنون يدعوه «أوغولينو» عنده عدد كبير من الأولاد الذين يجب أن يضربوا جميعاً ويذهبوا إلى أسرَّتهم بلا عشاء. المقطوعة بكاملها بائخة ـ إن لم نقل تافهة. إن أوبّودِلْدوك هذا (كائناً من كان) مجرَّد كلياً من الخيال ـ والخيال في رأينا المتواضع ليس روح الشعر وحسب، بل هو قلبه أيضاً. لقد تجرأ أوبّودِلْدوك (كائناً من كان) على أن يطلب لترهاته «النشر السريع والدفع الفوري». إننا لا ننشر ولا نشتري بضاعة من هذا النوع. مع ذلك لا شك أنه قادر أن يبيع أمثال هذه الترهات التي يخربشها لمجلات «المشاغب» و «سكر الشعير» أو «الإوزة النقّاقة».

صحيح أن ذلك كان قاسياً على «أوبّودِلدوك» ـ لكن ما بدا لي أشد قسوة من غيره هو وضع كلمة شعر بين قوسين. أية مرارة لم تحوها هذه الأحرف الثلاثة!

ولقد عومل أبّودلدوك بقسوة مماثلة في مجلة «المشاغب» التي كتبت ما يلي:

«تلقينا رسالة غريبة وفريدة في نوعها من سيد (كائناً من كان) يوقع باسم أوبّودِلدوك ـ مزدرياً بذلك عظمة أشهر أباطرة الرومان الذي يحمل هذا الاسم. طي رسالة أوبّودلدوك (كائناً من كان) وجدنا بضعة أسطر هي عبارة عن لثلثة كلام تشمئز منه النفس، مجرد من كل معنى يدور حول «الملائكة ووزراء الإحسان» وهي لثلثة لا يرتكبها أي مجنون اللهم إلا مجنون مثل نات لي أو أوبّودلدوك. وفوق كل هذا يطلب منا أن «ندفع فوراً» ثمن تفاهة كهذه. كلا أيها السيد ـ كلا! إننا لا ندفع ثمن أشياء من هذا النوع. أرسلها إلى مجلة «القِدر المدمدمة» أو

(١) بالفرنسية في النص الأصلي ومعناها رصاصة الرحمة..

«سكر الشعير» أو «الإوزة النقاقة». فإن هذه النشرات تنشر أية قذارات أدبية يمكن أن ترسلها ـ ولا شك أنها تعدك بالدفع».

كان هذا في الحقيقة قاسياً على أوبّودِلْدوك المسكين؛ لكن السخرية كانت تتناول «القِدْر المدمدمة» و «سكر الشعير» و «الإوزة النقاقة» إذ أطلق على هذه المجلات لقب نشرات ـ وهي تسمية أصابتها في الصميم (حسب التعبير الإيطالي).

أما مجلة «سكر الشعير» فكانت لهجتها أقلَّ عنفاً وقد أجابت رسالتي بما يلي:

«كتب لنا شخص يتسلى بتمسية نفسه أوبّودلدوك (لأية أغراض منحطة تستخدم أحياناً أسماء المشاهير). في الرسالة خمسون أو ستون بيتاً تبدأ بهذه الطريقة:

غضب آخيل كان لليونان نبعاً هائلاً

لآلام لا تعد الخ.. الخ.. الخ..[1].

«وليعلم أبّودِلْدوك (كائناً من كان) أنه ما من عامل مطبعة متمرن في مؤسستنا إلا وقد اعتاد أن ينظم يومياً أبياتاً أفضل من هذه. ذلك أن أبيات أوبّودلدوك غير موزونة لذلك ننصح السيد أوبّودلدوك بدراسة التفعيلات. لكن لماذا أعتقد بأننا (نحن دون الجميع) يمكن أن نوسخ صفحاتنا بحماقاته التي لا تغتفر، إن هذا يتجاوز إدراكنا كلياً. هذه الترهات السخيفة تكاد لا تصلح «للقِدْر المدمدمة» و «المشاغب» أو «الإوزة النقَّاقة» ـ وهي وريقات اعتادت أن تنشر ما يحسبه الأولاد قصائد غنائية جديدة. وأوبّودلدوك (كائناً ما كان) يتجرأ فوق هذا كله ويطلب لثرثرته تعويضاً مادياً. هل يعلم أودبودِلْدوك، (كائناً ما كان) ـ هل بلغه أننا لا ننشر بضاعته حتى ولو دفع لنا تعويضاً؟».

عندما كنت أقرأ هذه الكلمات شعرت أنني أتضاءل شيئا فشيئا، وحين بلغت المقطع الذي يسخر فيه رئيس التحرير من القصيدة قائلاً إنها أبيات، شعرت أنه لم يتبقَّ مني أكثر من أوقية. أما فيما يتعلق بأوبّودِلْدوك. فقد بدأت أشعر بالشفقة على هذا الصبي المسكين. لكن «الإوزة النقَّاقة» لم تبد ما أبدته «سكر الشعير» من الرفق إذ قالت:

«لقد بلغت الحماقة بشويعر حقير يوقع باسم أوبّودلدوك حداً جعله يتصور أننا ننشر أو ندفع ثمن خليط من العبارات المفككة الطنانة والتي تخالف كل قواعد اللغة، كالتي أرسلها إلينا. وهي تبدأ بالسطر التالي الذي هو من أكثر الأسطر وضوحاً:

تحية، أيها الضياء المقدس، ابن السماء، وأول من ولد[1].

قلنا إنَّ هذا البيت «من أكثر الأسطر وضوحاً»؛ لكن أوبودلدوك (كائناً من كان) سيتكرم

---

(١) أبيات مقتطفة من إلياذة هوميروس. وقد أوردها بو في القصة كما ترجمها الكسندر بوب والترجمة العربية هنا تتقيد بنص الترجمة الأميركية المذكورة حفاظاً على روح القصة (م.).

(١) هذا البيت من قصيدة «الفردوس المفقود» لملتون (م).

ويشرح لنا كيف يمكن للتحية أن تكون ضياء مقدساً. كنا نعرف أن التحية هي «الانحناء لإظهار الاحترام». وهل يستطيع أيضاً أن يوضح لنا كيف يمكن للتحية أن تكون ضياء مقدساً (كائناً ما كان) و«ابناً»؟ - إذ إنَّ هذه الكلمة الأخيرة (إذا كنا نعرف من الإنكليزية شيئاً) تستعمل للدلالة على مذكر «بنت». لكن من العبث البحث في سخافة كهذه. مع ذلك بلغ أوبودلدوك (كائناً ما كان) من الوقاحة حداً جعله يفترض بأننا لا ننشر ثرثراته الغبية وحسب، بل أننا (حتماً) سندفع بدلاً عن نشرها.

«شيء جميل - شيء بديع - يحلو لنا أن نعاقب هذا الكاتب الركيك لأنانيته بأن ننشر فعلاً ثرثرته الطويلة كلمة كلمة كما كتبها. إذ لا يمكن أن ننزل به قصاصاً أشد قسوة، ولكنا عاقبناه به لولا أننا نخشى أن يسبب ذلك الملل لقرائنا.

«فليرسل أوبودلدوّك (كائناً ما كان) إنشاءاته المقبلة إلى «القدر المدمدمة» إلى «سكر الشعير» أو «المشاغب» فهذه تنشر له. هذه تنشر كل شهر حماقات كهذه. أرسلها إليها. أما نحن فلا يمكن أن نهين أنفسنا إلى هذا الدرك».

كان هذا بالنسبة لي بمثابة النهاية؛ أما «القِدرْ المدمدمة» و«المشاغب» و«سكر الشعير» فلم أفهم كيف استطاعت أن تستمر بعد هذه الإهانات. كانت كتابة أسمائها أو الإشارة إليها بأصغر الحروف (دلالة على انحطاطها - وسخافتها) بينما نحن نتصور الكلمات وننظر إليها من عل بحروف عملاقة! - أوه! كان ذلك جارحاً للغاية! - كان علقماً - كان قهراً. لو أنني كنت إحدى هذه النشرات، لما ترددت في مقاضاة «الإوزة النقاقة». كان يمكن ذلك أن يتم في ظل قانون الرفق بالحيوان أما فيما يتعلق بأوبودلدوك (كائناً من كان) فقد استنفد كل صبري، ولم أعد أرغب فيه. إنه أحمق دون أقل شك (كائناً من كان) ويستحق الرفسة التي حصل عليها.

كان من نتائج تجربتي مع الكتب العتيقة الاقتناع بأن «النزاهة أفضل سياسة» - كما اقتنعت بأنني إذا كنت لا أستطيع أن أكتب ما هو أفضل من أشعار السيد دانتي والعميان وبقية سلسلة القدامى فلن أكتب ما هو اسوأ منها. عندئذٍ استعدت شجاعتي وصممت على أن أنشيء قصيدة «بليغة» (كما يقال على غلافات المجلات). هكذا وضعت أمام عينيّ من جديد مقاطع قصيدة «زيت بوب» الأخّاذة التي كتبها رئيس تحرير «ذبابة الخيل»، وقررت أن أنظم قصيدة حول الموضوع الرفيع نفسه، لأعارض بها القصيدة المذكورة.

لم تعترضني صعوبات كبيرة في نظم البيت الأول الذي جاء كما يلي:

أن نكتب أغنية عن «زيت بوب»

ورحت أبحث عن قافية مناسبة لكلمة بوب، فوجدت أنه من المستحيل متابعة ذلك. ولم أجد بداً من الاستنجاد بالوالد في سبيل الخروج من هذا المأزق؛ وبعد بضع ساعات من التفكير والتأمل تمكنا أبي وأنا من تركيب القصيدة:

«كتابة قصيدة عن زيت بوب
لا تؤدي بنا إلى فقر جوب[1]

(التوقيع) سنوب».

صحيح أن هـذه القصيدة لم تبلغ طولاً مذكوراً، لكن «ما يزال عليّ أن أتعلم الكثير» كما قيل في مجلة ايدمبورغ، إن طول القصيدة لا علاقة له بقيمتها. أما أسلوب هذه المجلة المداجي وما قالته عن «الجهود المدروسة» فمن المستحيل فهم ما يقصد من ورائه. بالإجمال، كنت راضياً عن نتيجة باكورة جهودي، وبقي عليَّ أن أواجه مسألة النشر. اقترح والدي أن أرسلها إلى «ذبابة الخيل» لكن منعني من تنفيذ ذلك سببان. أولاً خفت من غيرة رئيس التحرير، ومن جهة ثانية كان قد تأكد لي بأن هذه المجلة لا تدفع للنتاج الذي ينشر لأول مرة. بعد المداولة والتفكير أرسلت المقال لينشر على صفحات «سكر الشعير» الغراء، ولبثت أنتظر الحدث بقلق لكن بشعور من الاستسلام.

في العدد التالي مباشرة، كان من دواعي سروري وافتخاري أن أجد قصيدتي تتصدر الصفحة الأولى كمقال رئيسي، تقدم لها الكلمات البليغة التالية التي كتبت بحروف صغيرة ووضعت بين قوسين:

[«نسترعي انتباه قرائنا إلى المقاطع الرائعة التي ننشرها فيما يلي بعنوان «زيت بوب». ولا حاجة بنا إلى التحدث عن رفيع أسلوبها وعن صدقها العاطفي؛ ـ من المستحيل أن تتم قراءتها دون أن تذرف الدموع. حسناً يفعل الذين تقززت نفوسهم لدى قراءة المقاطع الكريهة التي تناولت الموضوع العظيم نفسه، والتي كتبها بريشة الإوز رئيس تحرير «ذبابة الخيل»، حسناً يفعلون بمقارنة القطعتين.

[ملاحظة: إننا نغلي شوقاً لاكتشاف السر الذي يحيط بلقب «سنوب». فهل يمكن لنا أن نأمل بلقاء شخصي؟».

لم يكن هذا التقديم يجاوز الإنصاف، لكنني أعترف بأنه كان أكثر ممّا توقعت: ـ اسمحوا لي أن أعترف بأن في هذا عاراً على وطني وعلى الإنسانية جمعاء. لم أضع وقتاً طويلاً حتى قمت بزيارة رئيس تحرير «سكر الشعير». ولحسن الحظ وجدت السيد في بيته. حياني باحترام عميق يخالطه إعجاب ورعاية أبوية بعثتها في نفسه دون شك حداثة سني وانعدام خبرتي. دعاني إلى الجلوس، وابتدأ فوراً حديثه عن قصيدتي، ـ إن التواضع يمنعني أن أذكر أو أعيد الآلاف من عبارات الإطراء التي أغدقها عليّ. لم يكن السيد كراب (هكذا كان يدعى رئيس التحرير) يلقي مدائحه على عواهنها ودون تمييز، بل حلل قصيدتي بكثير من التفهم والذكاء وبتجرد تام ـ ولم

---

(١) Job (أيوب).

يتردد في أن يشير إلى بعض النواحي التي لم يكن لها وقع هام ـ مما جعل هذا السيد يكبر في عيني. وطبيعي أننا طرحنا «ذبابة الخيل» على بساط البحث. وآمل ألا أتعرَّض لمثل النقد الجارح والقدح المهين اللذين وجههما السيد (كراب) إلى هـذه الظاهـرة الغنائيـة التعيسة. كنت دائـماً أنظر إلى رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على أنه كائن خارق للطبيعة؛ لكن السيد كراب سرعان ما شفاني من هذه الفكرة. لقد سلَّط أضواء نقده على الخصال الأدبية والشخصية للذبابة (هكذا كان السيد كراب ينعت رئيس تحرير المجلة التي تنافسه). وهل هو أكثر من ذبابة؟ لقد كتب أبياتاً تافهة. إنه مهـرّج يقيس أبياتـه بالمسـطرة. إنه سـافل. ألَّف مـأسـاة أضحكت النـاس حتى انقلبـوا عـلى ظهورهم، وملهاة أغرقت العالم في الدموع. وفوق ذلك، بلغت به الوقاحة حـداً جعله يكتب ساخراً منه (أي من السيد كراب) وتجرَّأ أن يسميه «حماراً». وإنني إذا رغبت يوماً بأن أعبر عن رأيي بالذبابة فإن صفحات «سكر الشعير» رهن مشيئتي كما أكد لي السيد كراب نفسه. وبما أنه كان من المؤكد أن (الذبابة) سيهاجمني لأني تجرأت على نظم قصيدة تنافس قصيدته «زيت بوب» فإنه (أي السيد كراب) يأخذ على عاتقه أمر الاهتمام بالـموضوع بشكـل يضمن حقوقي ومصـالحي الشخصية. وإنني إذا لم أصبح رجلاً عظيماً في الحال، فلن يكون الخطأ خـطأه هو (أي السيـد كراب).

حين توقف السيد كراب عند هذا الحد من خطابه (أعـترف أنني لم أفهم ما قصده بالعبارة الأخيرة) عامرت، وذكرت كلمة «مكافأة» مدفوعاً بالآمال التي ولـدها في نفسي مـا أعلنته مجلة «سكر الشعير» عـلى غلافهـا قائلة بـأنها أي «سكر الشعـير» تصرّ «على استئـذان الأدباء لـدفع مكافآت ضخمة لكل المقالات التي لا تصلح للنشر؛ ـ حتى أنها غالباً ما تنفق من الأموال لقاء قصيـدة قصيرة مـا يفوق تكـاليف مجلات «القـدر المدمـدمة» و «المشـاغب» و «الأوزة النقَّاقـة» مجتمعة».

حين ذكرت كلمة «مكافأة» فتح السيد كراب عينيه، ثم فمه حتى اتسع اتساعاً غريبـاً، فصار أشبه ببطة عجوز ثائرة أخذت بالصياح. ظل على هذه الحال (يدلك جبينه من وقت إلى آخر وكأنه في حالة ضياع يائس) حتى أنهيت ما تهيأت لقوله.

عندما أتممت كلامي غاص في مقعده فاقد القوى، وقد أرخى ذراعيه إلى الجـانبين دون حياة، ونسي فمه مفتوحاً كفم البطة. بينما عقدت الدهشة لساني إزاء هذه الوضعية. وفجأة قفز من كرسيه واندفع نحو الجرس، حين بلغه؛ بدا وكأنه غيَّر رأيه، إذ غرق تحت الطاولة وسرعان ما أطل وبيده هراوة. همّ برفعها (الحق يصعب عليّ أن أدرك نيته)، وفجأة علت قسماته ابتسامة مرحَّبة وغاص في مقعده بهدوء.

«سيد بوب، قال لي (إذ كنت قد أرسلت بطاقتي قبل أن أصعد) سيد بوب، أنت شاب ـ شاب حديث السن كما يبدو لي». أجبته موافقاً وأضفت أنني لم أبلغ بعد الخامسة عشرة.

«آه! حسن! أرى الآن بوضوح، لا تقل بعد شيئاً! فيما يتعلق بالدفع، أنت على حق. لكن ـ آه! آه! ـ إنك تنشر للمرة الأولى ـ نحن لا ندفع عادة ـ في المرة الأولى كما ترى، أنت تفهم، أليس كذلك؟ ـ الحقيقة أننا في حالات كهذه «نأخذ تعويضاً». وابتسم السيد كراب ثم تلمَّظ وهو يشدد على عبارة «نأخذ تعويضاً». في أغلب الأحيان يدفع لنا لنشر المحاولات الأولى ـ والمحاولات الشعرية الخاصة. ثم إن سياسة المجلة المالية يا سيد بوب تتجنب الدفع نقداً؛ ـ لا شك في أنك تفهم ما أعني. هكذا بعد ثلاثة أشهر أو ستة ـ أو سنة، أو سنتين ـ لن نمانع في منحك اشتراكاً لمدة تسعة أشهر عندما نكون قد رتبنا أوضاعنا لنؤمن لك ذلك. آمل مخلصاً يا سيد بوب، أن تعتبر هذا الإيضاح كافياً». سكت السيد كراب وراحت الدموع تجول في عينيه.

اكتأبت حتى أعماق روحي، لأنني سببت الألم لهذا الرجل النابغ البالغ الحساسية ولو عن غير قصد، وأسرعت اعتذر له وأؤكد أنني مقتنع تماماً بوجهة نظره، متفهم لدقة موقفه. حين انتهيت من خطابي هذا الذي وجد له وقعاً حسناً استأذنت للانصراف.

وذات صباح «استيقظت لأجد نفسي شهيراً» وذاعت شهرتي حين راحت الصحف تتحدث عني في مقالاتها الرئيسية. وقد كتبت الصحف ذلك في معرض التعليق على مجلة «سكر الشعير» التي نشرت قصيدتي؛ وقد جاء ما قالته واضحاً مرضياً شاملاً، كاملاً.

وقد كتبت «الصدى» وهي صحيفة ذات ثقافة عميقة، معروفة برصانة أحكامها الأدبية المدروسة، ـ هذه الصحيفة كتبت ما يلي:

[سكر الشعير]: «العدد الأخير من هذه المجلة يتخطى الأعداد السابقة كلها ويتحدى كل منافسة. فهي بجمال إخراجها وورقها ـ بعدد صورها الممتازة ـ وبمقالاتها الأدبية الرفيعة الأسلوب ـ بكل هذا تبدو «سكر الشعير» بالنسبة إلى الصحف المتأخرة التي تنافسها كأنها هيبيرون وأمامه السَّاتير. صحيح أن «القدر المدمدمة» و «المشاغب» و «الإوزة النقَّاقة» تتفوَّق عليها بالجعجعة، إلا أن «سكر الشعير» تفضلها من كل الوجوه الأخرى. إننا لا نفهم كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تتحمل مثل هذه النفقات الباهظة حتماً. صحيح أنها تصدر ١٠٠,٠٠٠ عدد. وأن عدد المشتركين قد ازداد بمقدار الربع الشهر الماضي؛ لكن من جهة ثانية فإن المبالغ التي تدفعها للمقالات، تفوق التصوّر. يقال أن السيد (آنروزيه) قد أخذ ما لا يقل عن سبعة وثلاثين سنتاً ونصف السنت لمقاله الذي لا يُضاهى عن «الخنازير». إنها صحيفة لا تجارى برئيس تحريرها السيد كراب، وبعدد من الأسماء التي اشتركت في التحرير أمثال سنوب وآنروزين. ١٥ تشرين ـ أ. م.»[1].

---

(١) كان من عادة الصحف والمجلات عندما تنشر إعلاناً مقابل مبلغ معين أن تضع في نهاية الإعلان تاريخ نشره والمرة التي نشر فيها (أ. م.) تعني أول مرة. وبهذا يشير بو إلى أن ما كتب كان إعلانات نشرت مقابل مبالغ معينة (م).

أعترف لكم بأنني فرحت كثيراً لظهور هذا التعليق ذي الأسلوب الراقي في جريدة محترمة كالصدى. أما إيراد اسمي ـ أقصد اسمي المستعار ـ قبل اسم آنروزيه العظيم فقد جعلني أطير من الفرح.

ثم وقع نظري على هذه المقاطع في «السرطان» ـ وهي مجلة معروفة باستقامتها واستقلالها ـ وبامتناعها عن تملق أصحاب المآدب:

«لقد سبق عدد «سكر الشعير» لشهر تشرين جميع المجلات التي تصدر في التاريخ نفسه. وفوق ذلك، تخطاها بروعة إخراجه وبغنى محتوياته الأدبية. صحيح أن «القدر المدمدمة» و «المشاغب» و «الأوزة النقاقة» تبز «سكر الشعير» بالجعجعة إلا أن هذه تتفوق في سائر الوجوه الأخرى. كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تتحمل النفقات الضخمة، هذا ما لا يمكن فهمه. صحيح أنها تطبع مئتي ألف نسخة. وأن لائحة المشتركين قد ازدادت بمقدار الثلث في الأيام الخمسة عشر الأخيرة، لكن المبالغ التي تدفعها للمقالات تفوق التقدير. فقد بلغنا أن السيد مَمْبلثَمْب تلقى ما لا يقل عن خمسين سنتاً مقابل قصيدته الجديدة «أغنية المستنقع الموحل». نميز بين المشتركين الرئيسيين في العدد (عدا السيد كراب رئيس التحرير) أشخاصاً أمثال سنوب، آنروزيه، ومَمْبلثَمْب. إذا وضعنا المقال الافتتاحي جانباً، فإن درة العدد الشعرية، هي قصيدة سنوب عن زيت بوب ـ لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهان القراء أن هذه الجوهرة تشبه من قريب أو بعيد ترهة تحمل العنوان نفسه كتبها شخص تافه تنبو الآذان الحساسة عن سماع اسمه. وقد أثارت قصيدة «زيت بوب» الجديدة فضولاً شعبياً ورغبة في التعرف إلى صاحب الاسم المستعار سنوب ـ وقد سرنا أن نروي فضول القراء، إذ أننا اكتشفنا شخصية سنوب الحقيقية. إنه السيد ثنغوم بوب، من سكان هذه المدينة ـ واحد أقرباء السيد ثنغوم العظيم، والذي يتحدر من أكبر عائلات البلاد. والده السيد توماس بوب، تاجر غني هو أيضاً «١٥ تشرين ـ أ. م.».

أثر فيَّ هذا التقدير الكريم كثيراً. ـ لا سيما وأنه يصدر عن مجلة مثل «السرطان»؛ أما كلمة «ترهة» التي وصفت بها قصيدة «زيت بوب» لرئيس تحرير «ذبابة الخيل» فقد رأيتها قارصة ومناسبة. وأما كلمتا «درة» و «جوهرة» فقد بدتا لي ضعيفتين ينقصهما التشديد. إنهما لا تملآن الفم.

ما كدت أنتهي من قراءة «السرطان» حتى جاء صديق يضع بين يدي جريدة «الخلد» التي تتمتع بسمعة طيبة بفضل صدق أحكامها، ولأسلوب محرريها الرفيع النزيه. قالت جريدة «الخلد» عن عدد «سكر الشعير» الأخير ما يلي:

«وصلنا عدد «سكر الشعير» لشهر تشرين، ويجب أن نعترف بأننا لم نطالع من قبل مجلة تبعث في النفس البهجة مثل هذه المجلة. نحن نعرف ما نقول فلتتدارك رأسها «القدر المدمدمة» و «المشاغب» و «الأوزة النقاقة». هذه النشرات سبّاقة في الإدعاء والجعجعة، لكن «سكر

الشعير» تستأثر بكل ما تبقى. غير أنّ ما لم نستطع فهمه، هو كيف يمكن لهذه المجلة أن تتحمل نفقاتها الهائلة. صحيح أنها تطبع ثلاثمئة ألف عدد، وأن لائحة المشتركين قد ازدادت بمقدار النصف في الأسبوع الأخير، مع ذلك تبقى المبالغ التي تدفعها إلى المشتركين في التحرير ضخمة وهائلة. وقد بلغنا من مصادر موثوق بها أن السيد فاتكاك تلقى ما لا يقل عن اثنين وستين سنتاً ونصف السنت مقابل قصته الجديدة «الصحن المرمم».

«اشترك في هذا العدد كل من السيد كراب (رئيس التحرير الحالي) سنوب، مَمبلْثَمْب، فاتكاك وغيرهم. بعد مقال رئيس ألتحرير الذي لا يضاهى، نفضل الدفق الغنائي الذي يتلألأ كجوهرة خطتها ريشة شاعر جديد يكتب بتوقيع «سنوب»، وهو اسم مستعار نتوقع له أن يبلغ ما بلغه اسم «بوز»[1] من اللمعان. وسنوب هو السيد ثنغوم بوب الوارث الوحيد للحلاق الغني السيد توماس بوب، واحد أقرباء السيد ثنغوم. عنوان قصيدة السيد بوب هو «زيت بوب». وكان أحد السفلة الدنيئين المتطفلين على الصحافة، قد أثار قرف المدينة بثرثرته حول الموضوع. لكن، لا خطر هناك من وقوع أي التباس أو مقارنة بين القصيدتين. ١٥ تشرين - أم.».

لقد غمرني بالنشوة إعجاب هذه الجريدة البصيرة بخفايا الأمور. الاعتراض الوحيد الذي مر ببالي، يتعلّق بعبارة «السافل الدنيء» التي كان من الأفضل استبدالها بعبارة «بغيض، حقير، ودنيء بائس مسكين». هذه العبارة بدت لي أبلغ وقعاً في النفس. أما «الجوهرة» فقد كانت ذات فخامة كافية للتعبير عن رأي «الخلد» بقصيدة «زيت بوب» العصماء.

عصر اليوم الذي ظهرت فيه هذه الصحف والمجلات وقعت عيناي صدفة على مجلة «عنكبوت الحقل» وهي مجلة رصينة معتبرة لإحاطتها بكل ما يجري من الأحداث. وهذا ما قالته مجلة «عنكبوت الحقل»:

«سكر الشعير! هذه المجلة الرائعة تقدم للقراء عدد شهر تشرين. الحقيقة التي يجب أن تواجهها «القدر المدمدمة» أو «المشاغب» أو «الأوزة النقاقة» هي أن كل ما تبذله من جهود لمنافسة «سكر الشعير» سيكون باطلاً ذلك أن هذه النشرات تستطيع أن تتفوق على «سكر الشعير» بالجعجعة والإدعاء، وفيما عدا ذلك، فاللواء معقود لسكر الشعير. كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تواجه نفقاتها الهائلة، ذلك ما يتخطى مداركنا. صحيح أنها تصدر شهرياً نصف مليون عدد، وأن عدد المشتركين قد ازداد بنسبة خمسة وسبعين في المئة في اليومين الأخيرين؛ لكن المبالغ التي تدفعها شهرياً للمشتركين في تحريرها تفوق التقدير. فقد تبيّن لنا أن الآنسة «كريبالتل» قد تلقت ما لا يقل عن سبعة وستين سنتاً ونصف السنت مقابل قصتها الأخيرة «يورك تاون وبَنْكرهِلْ».

(١) بهذا التوقيع كتب ديكنز يوماً (م.)

«أروع مقالات العدد هو بالطبع مقال رئيس التحرير (السيد كراب الحالي) لكن هناك مقالات أخرى ممتازة كتبها أمثال سنوب، والآنسة كريبالتل، آنروزيه، السيدة فيبالتل، ممبلثمب والآنسة سكيبالتل، أخيراً وليس آخراً فاتكاك. إننا نتحدى العالم أن ينتج مثل هذه المجلة العامرة بالعبقريات.

«القصيدة الموقعة باسم سنوب تحظى بمديح وإعجاب شعبيين، والحق أنها تستحق أكثر مما لقيت من التصفيق. عنوان هذه الرائعة البليغة هو «زيت بوب». لعل قارئاً أو اثنين بين قرائنا قد سمع بقصيدة (؟) تحمل عنواناً مماثلاً كتبها صعلوك كان يعمل خادماً في إحدى مكتبات الضواحي الحقيرة. إننا نرجو هذين القارئين بألا يخلطا بين الأثرين، لأن مؤلف قصيدة «زيت بوب» الوحيدة هو السيد ثنغوم بوب وهو رجل متميّز بعبقرية فذة، وبثقافة واسعة. وسنوب ليس سوى اسمه المستعار ١٥ تشرين ـ أ. م.».

عندما قرأت المقطع الأخير من هذه الشتائم لم أتمالك نفسي من الغضب والاحتقار. كان واضحاً أن هذا الأسلوب المرائي ـ كي لا أقول العذب، الذي تحدثت فيه «عنكبوت الحقل» عن ذلك الخنزير رئيس تحرير «ذبابة الخيل» ـ كان واضحاً أن هذا الأسلوب يضمر ميلاً خفياً نحو الذبابة ـ وأن «عنكبوت الحقل» تقوم بالدعاوة للذبابة على حساب اسمي وقصيدتي. فلو أن «عنكبوت الحقل» كانت ترمي بالفعل إلى تحقير رئيس تحرير «ذبابة الخيل» لما لجأت إلى هذه العبارات اللطيفة الخالية من كل عنف وهجاء مثل «صعلوك» و«خادم في مكتبة» و«ركيك» ذلك أنها تبدو باهتة وعادية حتى لا تقال لمؤلف أبشع مقاطع كتبتها ريشة بشري. ولا يخفى أن هذه المجلة قد عمدت إلى تفخيم «الذبابة» بواسطة النقد اللطيف.

ما ترغب «العنكبوت» في قوله عن صاحب الذبابة ليس من شأني. ما يهمني هو ما قالته عني. بعد المدائح التي أغدقتها على موهبتي كل من «الصدى» و«السرطان» و«الخلد» جاءت مقالة «عنكبوت الحقل» تقول ببرودة وبكل بساطة إنني «رجل متميز بعبقرية فذة، وبثقافة واسعة» رجل متميز حقاً! اتخذت قراري على الفور: سوف أحصل على اعتذار خطي من «عنكبوت الحقل» وإلا فسوف اتحداها.

بهذه النية رحت أبحث حولي عن صديق يمكن أن أحمله رسالة إلى صاحبة الجلالة «عنكبوت الحقل». وبما أن رئيس تحرير «سكر الشعير» كان قد أبدى لي وده وإعجابه، فقد صح عزمي على طلب معونته في هذه المناسبة.

لم أكن أتوقع أبداً ما أبداه لي السيد كراب من حسن التفهم، ولا تعابير الإصغاء والاهتمام التي تجلت في وضعيته حين كنت أشرح له نيتي. وقد كرر من جديد مسرحية الحبل والجرس والعصا، لكنه لم يغص في المقعد كالمعتاد. ثم انفرجت أساريره بعد لحظات وعاد يفكر ويتكلم بطريقة معقولة. رفض أن ينقل الرسالة وفي النهاية صرفني عن فكرة إرسالها؛ لكنه اعترف بصراحة بأن «عنكبوت الحقل» قد ارتكبت خطأ معيباً ـ خاصة فيما يتعلق بهذه النعوت:

«رجل متميّز بموهبة فذة وثقافة واسعة».

في ختام هذه المقابلة مع السيد كراب الذي أبدى اهتماماً أبـوياً بنجـاحي، نصحني بأن أعمل على ازدياد شهرتي وذلك بأن العب من وقت إلى آخر لعبة «توماس هوك» لحساب «سكر الشعير».

وسألت السيد كراب عن توماس هوك هذا وكيف العب لعبته. ففتح السيد كراب عينيه دهشة، وبقي كذلك للحظة، ثم استعاد هيئته الرصينة ليؤكد لي بأنه استعمل كلمتي «تـوماس هوك» ليتفادى التلفظ بكلمة «تومْهوك»[1] ـ وأن يلعب التومهوك يعني أن يسلخ، أن يحقّر، أن يتهم الكتاب الذين هم خصوم المجلة.

أكدت للرجل الذي يرعاني، بأنني مستعـد أن ألعب التومهـوك إذا كان هـذا كل مـا في الأمر. وهنا طلب مني السيد كراب بأن أحقر رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على الفور، وبالطريقة الأشد عنفاً ووحشية، كاختبار لموهبتي. وهذا ما فعلته، دون أن أنسى التعرض لقصيدة «زيت بوب» الأولى، حتى استغرقت مقالتي ستاً وثلاثين صفحة من صفحات «سكـر الشعير». ولقـد وجدت أن لعبة «التومْهوك» أهون بكثير من نظم الأشعار؛ إذ إنني في لعبة «التومهوك» كنت أتبع أسلوباً معروفاً واضحاً سهل عليّ العمل. وإليكم الطريقـة التي اتبعتها: اشتـريت كتاباً يجمع خطب اللورد بروغام[2] كما اشتريت الآثار الكاملة لكوبت[3] و «قاموس آرغو الجديد» و «الفن الكامل لتركيب الفضائح» و «بائعة السمك»[4] (طبـاعة عـلى وجه واحـد) و «لغة لـويس ج. كلارك»[5]. قطعت هذه المؤلفات بعناية، استبعدت منها ما كان لائقاً (لم أستبعد كمية تذكـر) واحتفظت بالعبارات الجارحة ثم مزجتها جميعاً مع بعض الفلفل وصار المزيج جاهزاً بين يدي. وحين جاء دور التومهوك أحضرت ورقة بيضاء ورحت أنقل إليها العبارات المقطوعة، عبارة من هنا وعبارة من هناك، حتى اكتمل العمل. والحق أنني أنا نفسي لم أكن أتوقع مثل هذه النتيجة المدهشة التي أصبحت حين ظهورها محط أنظار العالم وتعليقهم وموضع دهشتهم. أما مـا حلَّ برئيس تحرير «ذبابة الخيل» بعد هذا الهجوم، وبعد نقدي لقصيدته فمن الصعب التأكـد منه. لكن الاستنتاج المنطقي يقودني إلى الاعتقاد بأنه مات من البكاء. على كل حال، اختفى عن وجه الأرض ولم ير أحد شبحه منذ ذلك الحين.

أما وقد أديت مهمتي على أكمل وجه فقد قفزت مباشرة إلى منصب معاون السيد كراب لشؤون «التـومهوك». وبمـا أن السيد كـراب لم يكن قـادراً عـلى منحي أي راتب فقـد رأى أن

---

(١) تومهوك هي فأس الحرب عند الهنود الحمر وتستعمل في العامية الأميركية للتعبير عن حرب الشتائم. (م.)

(٢) هو هنري بيتر بروغام وزير مالية انكلترا (١٧٧٨ ـ ١٨٦٨) (م.)

(٣) وليم كوبيت Cobbett كاتب وسياسي (م.)

(٤) كتاب بائعة السمك مجموعة من الشتائم المقذعة (م.)

(٥) كلارك هو رئيس تحرير كنكربوكر ماغازين نشأت بينه وبين بو خصومه أدبية (م.)

يعوضني عن ذلك بنصائحه. فقال لي ذات يوم بعد العشاء.

ـ يا عزيزي ثنغوم؛ أنا أحترم موهبتك وأحبك كابن لي. ستكـون وريثي فترئس تحـرير «سكر الشعير» بعد موتي ـ وإلى ذلك الحين سأصنع منك رجلاً ـ هـذا ما سـأفعله ـ إذا ابتعت نصائحي. الخطوة الأولى هي أن تتخلّص من الخنزير العجوز.

ـ خنزير؟ قذر أليس كذلك؟ حيوان؟ من هو؟ أين؟

ـ أبوك.

ـ لا شك في أنه خنزير.

ـ عليك أن تبني مركزك يا ثنغوم ـ أبوك حجر في عنقك. يجب أن تقطع علاقاتك به فوراً (فتناولت عند ذلك سكيناً) ـ يجب أن تقطع كل علاقة معه. ناوله رفسة واسترح منه.

ـ ما قولك ـ ماذا تقترح؟ سأناوله رفسة وأحطم أنفه. فتطلّع إليَّ وقـد بدا عليـه التفكير العميق ثم قال:

ـ أظن أن ما تقترحه يا سيد بوب كاف ويحقق الغرض، لتبعده بذلك عن طريقك، فلا يراك عندما تصبح شخصية مشهورة.

ولكم أثرت في نفسي رقة عـواطف السيد كـراب التي أغدقهـا عليّ. ولم أتـردد في تنفيذ وصاياه القيمة، فانفصلت عن الخنزير العجوز وشعرت بذلك أنني صرت رجلاً متميزاً.

بقيت أمامي قضية المال، فقد أقلقني لبضعة أسابيع، لكنني في النهاية تدبرت الأمر بفضـل دقة ملاحظتي..

إشتريت نشرة «السلحفاة» مقابل لا شيء تقريباً ـ ثم إشتريت ريشة وورقاً وحبراً وكتبت مقالة بعنوان «ترالالا» لمؤلف «زيت بوب وأرسلته إلى «الأوزة النقاقة». ثم كتبت مقالة ثانية بعنوان «دينغ دان دونغ بقلم السيد ثنغوم بوب مؤلف أغنية زيت بوب ورئيس تحرير السلحفاة» وهكذا أوقعت «الأوزة النقاقة» في الالتباس ورحت في الوقت نفسه أطبع في «السلحفاة» بحثاً فلسفياً في الدور التاريخي لمجلة «الأوزة النقاقة» والصفات الشخصية لرئيس تحريـرها. وحـين صدر عدد «الأوزة النقاقة» ذكرت في باب مفكرة الشهر أنها خلطت بين مقالـة جاهـل سخيف وبين لؤلؤة فريدة كتبها السيد ثنغوم بوب مؤلف قصيدة زيت بوب الشهيرة، وإن «الأوزة النقاقة» تأسف بالغ الأسف لهذا الالتباس وستعيد نشر المقالة في العدد المقبل».

لا داعي لأن أخبركم بمزيـد من التفاصيـل. المهم أنني كنت أفكر ـ أفكـر فعلاً ـ أفكـر بإستمرار ووجدتني ذات يوم احتل كرسي رئيس تحرير «الأوزة النقاقة» ثم تـابعت الهجوم عـلى «المشاغب» و«القدر المدمدمة» فإشتريتهما بأثمان بخسة. ولم يطل الـوقت حتى ورثت أيضاً مجلة «سكر الشعير» وغدوت على رأس مؤسسة ضخمة عرفت باسم:

المشاغب   سكر الشعير   القدر المدمدمة

و

الإوزة النقاقة.

الآن يمكنني أن أردد بلسان شاتوبريان: «لقد شاركت في صنع التاريخ». شاركت في صنع التاريخ حقاً. فمنذ العهد الذهبي الذي أتحدث عنه غدت مؤلفاتي وأفكاري ملكاً للإنسانية. وأتمتع الآن بظفر عالمي. تمتد شهرتي إلى آخر المعمورة. ما من صحيفة يومية أو مجلة عادية إلا وتردد اسم سنغوم بوب مرات في اليوم. السيد ثنغوم بوب قال هكذا. السيد ثنغوم بوب كتب كذا أو فعل كذا. إنني متواضع جداً ولست طماعاً. لقد بلغت ما يكفي. وبعد ذلك كله - ما هو هذا الشيء الذي لا يدرك والذي يقال له العبقرية؟ إنني أوافق بوفون وهو غارت على أن العبقرية ليست سوى الجهد.

أنظروا إليّ لكم اجتهدت - لكم تعتبت! لكم كتبت! يا إلهي، ألم أكتب كثيراً؟ لم أعرف أبداً ما يدعى بالراحة. كنت في النهار ألازم مكتبي وفي المساء أحرق زيت المصباح حتى منتصف الليل. لو أنكم رأيتموني - كان يجب أن تروني. أميل يميناً، أميل شمالاً، أنحني إلى الأمام، أستلقي إلى الخلف. أجلس مستقيم الظهر. أخفض رأسي فوق الصفحات وبالرغم من ذلك كله كنت أكتب. في الفرح أو الحزن كنت أكتب. في الجوع أو العطش - كنت أكتب. في السمعة الحسنة أو السيئة، كنت أكتب. في ضوء الشمس وفي ضوء القمر - كنت أكتب. ما كنت أكتبه لا يهم. المهم هو الأسلوب! هذا هو المهم. لقد تعلمته عن طريق تقليد فاتكاك - زيم! بوم!

هوس الانحراف

في دراسة القوى والميول ـ المحركات الأولية للنفس الإنسانية ـ نسي الإختصاصيون دراسة ميلٍ آخر، تجاهله أيضاً الأخلاقيون الذين سبقوهم، مع أنه موجود كشعورٍ أوّلي، أصلي، كامل. أغفلناه جميعاً في ذروة غرورنا العقلي. سمحنا لوجوده أن يُفلت من نظرنا لنقص إعتقادنا فقط ـ إيماننا ـ سواء بالوحي أو باستحضار الأرواح، والحديث معها. هذه الفكرة لم تخطر لنا أبداً لسببٍ واحد هو أنها من نوافل الأمور. وما شعرنا بالحاجة للتحقق من هذا الاندفاع ـ هذا الميل. لم نكن نقدر أن نتصور ضرورته. وكنا عاجزين عن إدراك مفهوم هذا المحرّك الأول، وحتى حينما يدخل فينا بالقوة، لن نستطيع أن نفهم أي دور يلعب في نظام الأشياء الإنسانية، الزمنية أو الأبدية. من المستحيل أن ننكر أن علم فراسة الدماغ وجزءاً كبيراً من العلوم الميتافيزيقية قد مُزج بينهما بشكلٍ مسبق. إن رجل الميتافيزياء أو المنطق، يزعم أنه يعرف نوايا الله أكثر مما يعرفها رجل البصيرة والملاحظة. هكذا حينما اكتشف بعمقٍ وعلى هواه نوايا يهوه، إستناداً إلى ما يُسمى نواياه، أقام أنظمته الكثيرة العنيدة. فمثلاً، فيما يتعلق بموضوع الفراسة، قرّرنا أولاً، وعلى وجه طبيعي من بعض النواحي، أن من نوايا الألوهة أن يأكل الانسان. ثم خصّصنا للإنسان عضواً للأكل، وهذا العضو هو السوط الذي به يقسر الله الإنسان على الأكل، طوعاً أو كرهاً. ثم حينما قررنا أن إرادة الله هي أن يحفظ الإنسان نوعه، إكتشفنا حالاً عضواً للتذوق. ومن ثمّ أعضاء الميل للكفاح، والمثل الأعلى، والسببية، والبناء، ـ وباختصار، كلّ عضوٍ يمثل ميلاً؛ شعوراً أخلاقياً أو موهبة ذكاء خالص. وفي تقسيم هذه الأسس في العمل الإنساني وتنظيمها، لم نفعل خطأً أو صواباً، جزئياً أو كلياً، إلا أننا أقتفينا، مبدئياً، آثار أسلافنا؛ إذ استنتجنا كل شيء وقررناه إستناداً إلى مصير الإنسان المدرك سلفاً، واتخذنا أساساً لذلك نوايا خالقه.

كان أكثر حكمة، وأكثر يقيناً لو جعلنا أساس تصنيفنا (ما دام التصنيف أمراً لا بدّ منه) أعمال الانسان التي تحدث عادياً وأعماله التي يقوم بها عرضاً، فذلك خير من الفرضية القائلة

بأن الألوهة ذاتها هي التي تجعله يقوم بهذه الأعمال. إذا كنا لا نستطيع أن نفهم الله في أعماله المرئية، فكيف إذن سنفهمه في أفكاره التي لا يُحاط بها والتي تدفع بهذه الأعمال إلى الوجود؟ إذا كنا لا نستطيع فهمه في خلائقه الموضوعية، فكيف سنفهمه في أشكالها اللامشروطة وفي مراحل خلقها؟

كان يمكن الاستقراء القائم على النتائج أن يقود علم الفراسة الدماغية إلى أن يقبل كمبدأ أولي وفطري للعمل الإنساني، ما سندعوه هوس الانحراف، لأننا لا نجد كلمة أكثر دلالةً من هذه الكلمة. إنه، بالمعنى الذي أقصده، محرك لا سبب له، علةٌ لا تعليل لها. إننا، بتأثيره، نتحرك دون هدف معقول؛ أو نستطيع إذا بدا هذا الكلام متناقضاً، أن نقول أننا تحت تأثيره، نتحرّك بسببٍ لم يكن واجباً علينا. نظرياً ليس هناك سببٌ اكثر منه بعداً عن الصواب؛ لكن، في الواقع، ما من سببٍ أقوى منه. إنه يصير، بالنسبة لبعض العقول، في بعض الظروف، شيئاً لا مفر منه. إن حياتي ليست بالنسبة لي شيئاً أكثر يقيناً من هذه القضية: إن يقين الخطيئة أو الخطأ الداخل في عملٍ ما هو غالباً القوة الوحيدة التي لا تردّ والتي تدفعنا، ووحدها تدفعنا إلى إكماله. وهذا الميل المرهق لعمل الشر حباً بالشر، يستعصي على التحليل، ويأبى أن يرد إلى عناصر تأتي فيها بعد. إنه حركة جذرية، أولية، ـ بدئية. أنتظر أن يردّ بأننا إذا كنا نتمادى في بعض الأفعال لأننا نشعر ألا شيء هناك يوجب علينا التمادي، فإن سلوكنا هنا لا يكون إلا تعديلاً لسلوكنا الذي يصدر عادة عن ميل الكفاح في الدماغ. لكن تكفي نظرة بسيطة لنكتشف خطأ هذه الفكرة. فالسبب في وجود هذا الميل هو ضرورة الدفاع الشخصي. إنه يحمينا ضد الظلم. إن أساسه يرتبط بسعادتنا؛ وهكذا نشعر، وهو ينمو، بنشوة السعادة. يتبع ذلك ان الرغبة بالسعادة لا بد من أن تثار في وقتٍ واحد مع كل سببٍ لا يكون إلا تعديلاً لهذا الميل؛ لكن، في حالة ما لا أعرف إلا أن أسميه هوس الإنحراف، لا تستيقظ هذه الرغبة وحسب، بل تظهر أيضاً كشعور متناقض بشكل غريب.

كل إنسان، حينما ينادي قلبه، يتلقى قبل كل شيء أفضل جواب على السفسطة المعنيّة. وما من أحدٍ يستشير نفسه بصدق ويستوضحها بدقة، يجرؤ أن ينكر تأصل الميل الذي نحن بصدده، تأصلاً مطلقاً. وهو غامض الصفات بقدر ما هو عصي على الفهم. وما من إنسان، مثلاً، لم تتأكله في لحظةٍ ما الرغبة في تعذيب سامعه بتعريضات كلامية. من يتكلم يعرف جيداً أنه يُضجر؛ وهو يقصد أن يسر؛ إنه عادة موجز، واضح ومحدد؛ اللغة الأكثر نقصاً والأكثر إضاءة تتحرك فوق لسانه وتنتفض؛ ولا يضبط نفسه، إلا بجهدٍ، كي يضبط هذه اللغة، فهو يخشى ويتلافى مللَ من يحدثه. هذه الفكرة، مع ذلك، تفاجئه بأنه يقدر على توليد هذا الغضب، ببعض الجمل المعترضة والتّامة. تكفي هذه الفكرة البسيطة. تصبح الحركة إرادة ضعيفة، وهذه تصير رغبة، والرغبة تتحول إلى حاجة لا تُقاوم، والحاجة ترتوي، ـ في الندم العميق للمحدث وحزنه، وإزدراء النتائج كلها.

أمامنا مهمة ينبغي علينا أن نكملها بسرعة. نعرف أن خرابنا في تأخرنا. أعمق أزمة في حياتنا تلحّ بصوت صارخ آمر على الفعل والتفجّر المباشرين. نتحرق، نحترق شوقاً للبدء بالعمل؛ التلذذ بنتيجة عظيمة قبل حدوثها يُلهب روحنا كلها. ينبغي، ينبغي البدء بالعمل اليوم، مع هذا كله، نرجئه إلى الغد؛ ـ ولماذا؟ لا شيء يوضح ذلك، إن لم يكن شعورنا بأنّ في هذا نوعاً من هوس الإنحراف، ـ ولنستخدم كلمة لا نعرفُ أصلها. ويجيء الغد، ويجيء معه مزيدٌ من القلق للقيام بواجبنا؛ لكن مع هذا المزيد من القلق يجيء أيضاً شوقٌ محمومٌ، ـ رهيب، لأنه مغلق عسير الفهم. وبقدر ما يهرب الزمن، يزداد هذا الشوق قوة. لم تعد هناك إلاّ ساعة لبدء العمل، وهذه الساعة لنا. يهزنا عنف العراك المحتدم في داخلنا، ـ العراك بين المحدد وغير المحدد، بين الجوهر والظلّ. لكن، إذا وصلت المعركة إلى هذه الدرجة، فإن الظل هو الذي يكسبها، ـ فنحنُ ننتفضُ عبثاً. الساعة تدق، وهذه هي دقة سعادتنا. وللظل، في الوقت نفسه، ـ الظل الذي طالما أرهبنا، رنين المنبه الصباحي. إنه يتناءى، ـ إنه يغيب، ـ وها نحن أحرار. الحيوية القديمة تعود. سنعمل الآن. واأسفاه! لقد فات الوقت.

نحن على ضفّة الهاوية. ننظر في الهاوية، ـ نشعرُ بالضيق والدُّوار. حركتنا الأولى هي التراجع أمام الخطر. ونبقى بشكلٍ لا يُفَسّر. وشيئاً فشيئاً يذوب ضيقُنا، ودوارنُا، ورعبنا في شعور ضبابيٍّ غير محدود. هذا الضباب يأخذ، تدريجياً ودون أن نحسّ. شكلاً كبخار القنينة التي يخرج منها عفريت ألف ليلةٍ وليلة. لكن، يخرج من غيمتنا على حافة الهاوية، شكلٌ أكثر إرهاباً بألف مرّةٍ من أي عفريت، من أي شيطانٍ خرافيّ؛ وليس، مع ذلك، إلاّ فكرة، لكنها فكرة مرعبة، فكرة تجمد اللّب نفسه في عظامنا، وتخترقها بلذائذ رعبها الوحشية. إنها فحسبُ، هذه الفكرة: كيف ستكون مشاعرنا طوال المسافة التي نجتازها ونحن نسقط من علوٍّ كهذا؟ وهذا السقوط، ـ هذا الفناء الصاعق، ـ يزداد تعلقنا بهما آنذاك، لمجرد أنهما يتضمنان أشنع وأرهب صورٍ خطرت للخيال البشري عن الموت والعذاب. ولأن حكمنا يُبعدنا بعنفٍ عن الحافة، بسبب هذا نفسه، فإننا نقترب منها بإندفاع أكثر. فليس في جموح الشعور ما هو أكثر عجَلةً شيطانية، من شعور الإنسان الذي يحلم، وهو يرتجف عند فوهة الهاوية، أن يقذف بنفسه فيها. محاولة التفكير لحظة واحدة تعني الضياع المحتوم؛ إذ إنَّ التفكير يأمرنا أن نتفاداها، وبسبب ذلك نفسه، لا نستطيع تفاديها. وإذا لم يكن هناك ذراع صديقة كي توقفنا، أو إذا كنا عاجزين عن القيام بجهدٍ مفاجىء كي نبتعد عن الهاوية، فإننا نتهاوى فيها، ونهلك.

حين ندرس هذه الأفعال وما يشبهها، نجد أنها تنتج عن هوس الانحراف وحده. إننا نقوم بهذه الأعمال لسبب واحدٍ هو أنها ليست واجبة علينا. وليس هناك من باعث معقول لها؛ وكنا، في الواقع، نستطيع أن نعتبر هذا الهوس وحياً شيطانياً مباشراً، إن لم يكن معتبراً أنه غالباً يُستخدم في فعل الخير.

إذا كنت حدثتكم طويلاً عن هذا الموضوع فلكي أجيبكم، بشكل ما، على سؤالكم، ـ

لكي أوضح لكم سبب وجودي هنا، ـ لكي أريكم سبباً واهياً ما، يعلل هذه القيود التي أحملُها وهذه الزنزانة التي أقيم فيها. لو أنني لم أكن كثير الإسهاب هكذا، لما فهمتم شيئاً مما قلته، أو كنتم تظنونني، شأن الغوغاء مجنوناً. ستدركون الآن بسهولـة انني ضحية من الضحـايا التي لا تُحصى لشيطان الانحراف.

من المستحيل أن يكون هناك أي عمل حقق بمثل هذا التأمل الكامل. فقد فكرت، طيلة أسابيع، طيلة شهورٍ، في طرق الاغتيـال. رفضتُ مئات المخـططات لأن تنفيذ كـلٍّ منها كـان يتضمّن إمكانية اكتشافه. أخيراً عثرتُ، وأنا أقرأ ذات يوم بعض المذكرات الفرنسية، على قصة مرضٍ قاتلٍ تقريباً أصاب السيدة بيلو، بسبب شمعة مسمومة صدفة. وسـرعان مـا استهوت خيالي هذه الفكرة. كنت أعرف أن من عادة ضحيتي أن يقرأ في سرّيره. كنت أعرف أيضاً أن غرفته صغيرة وسيئة التهوية. لكن لا أحبُّ أن أتعبكم بتفاصيل دون جدوى؛ لذلك لن أخبركم بالطرق البسيطة التي بدلت بها الشمعة الموجودة في غرفة نومه بشمعة صنعتها أنا. وفي الصباح عُثر على الرجل ميتاً في سريره، وجاء في وصف الحادثة أنه مات فجأة.

ورثتُ نصيباً من ثروته، وسار كل شيءٍ على ما يرام خلال سنواتٍ عديدة. لم تخطر لي قط فكرة اكتشاف الحادثة. وكنت قد أتلفت بنفسي بقايا الشمعة المشؤومة. ولم أترك أدنى أثـر لأي شيء يمكن أن يقنعني أو يجعلني أشك في الجريمة. يكاد لا يوصف الشعور الرائع بالطمأنينة الذي تولد في أعماقي، حينما كنت أفكر في سلامتي التامة، وألفتُ، طوال فترة زمنيـة كبيرة، التلذذ بهذا الشعور. كان يمنحني لذة أكثر واقعية من جميع المنافع المادية التي نتجت عن جريمتي. لكن أخيراً جاء وقتٌ تحول، بدءاً منه، وبشكل تدريجي لا يكاد يتميز شعورُ اللذة إلى فكر ترهقني ولا تفارقني. كانت ترهقني لأنها كانت لا تفارقني. وقلما كنت أتخلص منها للحظة واحدة. وإنه لأمرٌ عادي جداً أن يتسلّط على ذاكرة الانسان نوعٌ من الدويّ، أو لازمة أغنية مبتذلة، أو بعض قطع الأوبرا الخالية من المعنى. ولا يخف العذاب، إذا كانت الأغنية جميلة بحد ذاتها، أو كانت قطعُ الأوبرا جيدة. هكذا في النهاية كنت أُفاجأ بإستمرار وأنا أحلم بسلامتي، مكرراً بصوت هامس هذه الجملة: لقد نجوت!

وذات يوم وجدتني بشكل مفاجىء ألفظ هذه الجملة، بصوت عال تقريباً، وأنا أتجول في الشوارع. كنت، في نوبات الحنق، ألفظها بهذا الشكل الجديد: لقد نجوت، ـ لقد نجوت؛ ـ نعم، ـ إن لم أكن أنا نفسي من الحماقة بحيث اعترف بحالتي!

ما كدت أتفوه بهذه الكلمـات حتى شعرت ببـرد جليدي يتسـرب حتى قلبي. كنت قد أكتسبت بعض الخبرة من نوبات الهوس هذه (التي لم يكن سهلاً عليّ إيضاح طبيعتها الغريبة)، وكنت أتذكر جيداً أنني لم أعرف في أية حالة عليّ أن أقاوم هجماتهـا الغالبـة. وكان الآن هـذا الإيحاء العرضي، والذي صدر عني، ـ من أنني قد اكونُ من الحماقة بحيث أعترف بالقتل الذي ارتكبته، ـ يواجهني كظل الشخص الذي قتلته، ـ ويدعوني إلى الموت.

قمت أولاً بجهـد كي أطرد هـذا الكابـوس عن نفسي. سرتُ بثبـات، ـ وأسرعت ، ـ وتابعت سرعتي؛ ـ أخيراً ركضت. كنت أشعر برغبة مسكرة في أن أصرخ بأعلى صوتي. كانت كل موجة متلاحقة من فكري ترهقني برعب جديد؛ إذ إنني، وياللأسف، كنت أدرك جيـداً، جداً جداً، أن التفكير في مثل حالتي معناه الموت. أسرعت أيضاً في ركضي. كنت أقفز كالمجنون في الشوارع المزدحمة بالناس. أخيراً خاف الناس وجروا ورائي. شعرت آنذاك بانتهاء أجلي. لو كنت أستطيع إقتلاع لساني، لفعلت؛ ـ لكن صوتاً خشنـاً دوّى في أذنيّ، ـ ويداً أكـثر خشونـة كذلك أمسكت بكتفي. استـدرت، فتحت فمي لاتنفّس. وخلال لحـظة واحدة عـانيت آلام الاختناق كلها؛ اصبحتُ أعمى، أصمّ، سكراناً: وحينذاك خطر لي أن شيطاناً مستتراً ضربني على ظهري بيده العريضة. انطلق السرّ الذي حبسته طويلاً في نفسي.

يقال إنني تكلمت، أنني عبرتُ بوضوح كامل، لكن بحيوية متميزة وسرعة محمومة، كما لو أنني كنت أخشى أن أقاطع قبل أن أكمـل الجمل القصيـرة، لكن البالغـة التي أسلمتني إلى الجلاد وإلى الجحيم.

بعد أن سردت كل ما كان ضرورياً لقناعة العدالة قناعة كلية، سقـطتُ على الأرض في حالة إغماء.

لكن لماذا أطيل القول؟ أنني اليوم أحمل هذه السلاسل، وأنا هنا! غـداً سأكـون حرّاً! ـ لكن أين؟

الظل

أنتم الذين تقرأونني ما تزالون بين الأحياء، لكن أنا الذي يكتب يكون منذ وقتٍ طويل، قد مضى إلا بلاد الظلال. إذ ستحدث، في الواقع، أشياء غريبة، وتتكشف أسرار كثيرة، وتمرّ عصور دون أن يرى الناس هذه الخواطر. وحينما يرونها، لن يؤمن بها بعضهم، وسيشك البعض الآخر، وقليلون بينهم هم الذين سيجدون فيها مادة للتأمل في الحروف التي أنقشها على هذه الألواح بمرقمٍ حديديّ.

كانت السنة سنة رعب، مليئة بالمشاعر الأكثر حِدة من الرعب، والتي لا اسم لها على الأرض. إذ إن كثيراً من المعجزات والعلامات قد حدثت، وانتشرت أجنحة الطاعون السوداء إنتشاراً كبيراً في كل جهة من البحر والأرض. إلا أن هؤلاء العارفين في علم النجوم لم يكونوا يجهلون أن للسماوات آنذاك مظهراً من الشقاء؛ وكان واضحاً بالنسبة لي أنا، وانوس الإغريقي، أننا نقترب من عودة السنة الرابعة والتسعين بعد السبعمئة، حيث يقترن المشتري بالحلقة الحمراء لِزُحل الرهيب. كانت روح السماوات الخاصة تظهر سيطرتها إن لم أكن مخطئاً، ليس على سطح الأرض الماديّ وحسب، بل أيضاً على نفوس البشر وأفكارهم وتأملاتهم.

كنا ذات ليلة، سبعةً في داخل قصرٍ فخم في مدينة قاتمة اسمها بتوليمائيس، نجلس حول بعض زجاجات الخمر الأرجوانية من جزيرة كيو. ولم يكن لغرفتنا مدخل آخر غير باب عال من النحاس؛ وكان الباب من صنع كورينوس، نادر الصنّع ويُغلق من الداخل. وكانت الستائر السوداء التي تحمي هذه الغرفة الكئيبة تُبقي لنا منظر القمر والنجوم الحزينة والشوارع المقفرة؛ ـ لكنّ ذكرى الطاعون والشعور به لم يمكن التخلص منها بهذه السهولة. كانت حولنا، وقربنا، أشياء لم أستطع أن أفيها حقها من الاهتمام، ـ أشياء ماديّة وروحية، ـ ثقل في الجوّ، ـ إحساس بالاختناق، بِحُصار، ـ وفوق كلّ شيء هذا النوع الرهيب من الحياة، الذي يعانيه الأشخاص العصبيون، حينما تستيقظ الحواس وطاقات الروح الراقدة الكالحة، وتنتعش بقسوة. كان

يسحقنا ثقلٌ مميت، ينتشر على أعضائنا، ـ على أثاث الغرفة، ـ وفي الكؤوس التي نشرب بها؛ ويبدو كل شيء في هذا الإعياء، مضغوطاً وواهن القوى، ـ كل شيء، ما عدا لهب المصابيح الحديدية السبعة التي كانت تضيء إنهماكنا المفرط في الشراب والأكل. كان اللهب يتصاعد في خيوط رفيعة، ويبقى هكذا، شاحباً جامداً. وكان كلٌّ منا نحن المدعوين الجالسين حول المائدة الآبنوسية التي أحالها بريقُ اللهب إلى مرآة، يتأمل فيها إصفرار وجهه والبريق الكالح في عيون رفقائه. مع ذلك، كنا نُطلق ضحكاتنا مرحين على طريقتنا، ـ وهي طريقة هستيرية، ـ ونغني أغاني مجنونة، ونشرب كثيراً وإن ذكّرنا توردُ الخمر بلون الدم. إذ كان في الغرفة شخص ثامن، وهو زوئيلوس الشاب. كان، وهو ميت متمدد بكامل طوله ومكفن، جنيّ هذا المشهد وشيطانه. لم يكن، ويا للأسف، يشاركنا في لهونا، سوى أن وجهه الذي شنجه الشرّ وعينيه اللتين لم يطفىء الموت فيهما إلا نصف نار الطاعون ـ كانت تبدو أنها تهتم بفرحنا بقدر ما يستطيع الموتى أن يهتموا بفرح الذين يشرفون على الموت. لكن، رغم أنني أنا، وانوس، شعرت بعيني الميت تحملقان فيّ، إجتهدت ألاّ أفهم المرارة في تعبيرهما، وكنت وأنا أنظر بعناد إلى أعماق المرآة الآبنوسية، أغني بصوت عال ورنان أغنيات شاعر مرفأتيوس. لكن غنائي توقف تدريجياً وأصبحت أصداؤه التي تتدحرج بعيداً بين الستائر السوداء المسدلة، ضعيفة وغير واضحة وتلاشت أخيراً. لكن ها هو يطلعُ من هذه الستائر التي ماتت فيها أصداء الغناء، ظِلٌّ، داكن، لا شكل له، ـ ظلٌّ أشبه بالظل الذي يمكن القمر، حينما يكون منخفضاً في السماء، أن يرسمه للجسم الإنساني؛ لكن لم يكن ظلّ إنسان، ولا إله، ولا أيّ كائن آخر معروف. أخيراً، بعد أن ارتجف قليلاً بين الستائر، بقيَ ظاهراً ومستقيماً، على سطح الباب النحاسي. كان الظل مبهماً، لا شكل له، ولا دلالة؛ ولم يكن ظلّ إنسان أو إله، ـ إلهٍ يوناني، أو كلداني أو أيّ إلهٍ مصري. وكان الظلّ هادئاً على الباب الكبير وتحت الإفريز المقوّس، ولم يتحرك، ولم يتفوه بأية كلمة، لكنه كان يجمد أكثر فأكثر ويظلّ جامداً. وكان الباب، إذا لم تخنّي الذاكرة، تماماً قبالة قدمي الشاب زوئيلوس الميت. ولم نجرؤ نحن الرفقاء السبعة، حينما رأينا الظلّ يخرج من الستائر، أن نحدّق فيه؛ غير أننا كنا نخفض عيوننا، ونتابع تحديقنا في أعماق المرآة الآبنوسية. وخاطرتُ أخيراً، أنا وانوس، بالهمس ببضع كلمات وسألت الظلّ عن اسمه ومكان إقامته. وأجاب الظلّ:

ـ إنني ظلٌّ، وأقيم في جوار مقابر بتوليمائيس، وقربَ هذه السهول الرمادية الجحيمية التي تحيط بقناة شارون المدنسة.

وحينذاك نهضنا نحن السبعة من الرعب، ووقفنا نرتجف، مذعورين؛ ذلك أن نبرة صوت الظلّ لم تكن نبرة صوت شخص واحد، بل جمهور من الناس؛ وكان هذا الصوت، وهو يتغيّر بين مقطعٍ وآخر، يسقط بغموضٍ في آذاننا مقلّداً اللهجات الأليفة المعروفة لآلاف الأصدقاء الذين ماتوا!

جنة أرنهايم

كان صديقي إليسون، منذ ولادته حتى موته، يعيش في يُسر. ولا أستعمل هنا كلمة يُسر بمعنى العيش الخالص؛ إنما أستعملها كمرادفٍ لكلمة السعادة. لكأن الشخص الذي أتحدث عنه لم يخلق إلا ليكون رمزاً لأفكار تورغو وبرايس، وبريستلي وكوندورسيه ـ ويقدّم مثلاً فردياً عما سمي وهْم التكامليين. ويخيّل إليّ أنني أرى في حياة إليسون القصيرة دحضاً للفكرة التي تزعم أن في طبيعة الإنسان ذاتها ما يناقض السعادة. فقد أتضح لي، من خلال دراسةٍ دقيقة لعمله، أن شقاء النوع الإنساني يعود، بوجه عام، إلى خرق بعض القوانين الإنسانية البسيطة؛ ـ وأننا نملك، كنوع، عناصر للقناعة والرضى لم تمارس وظيفتها بعد، ـ وأنه، حتى في هذا الوقت، من الظلمات المحيطة بالفكر الإنساني وهذيانه فيما يتعلق بالمشكلة الكبرى للشروط الإجتماعية، ليس مستحيلاً أن يكون الإنسان، الفرد، سعيداً في بعض الظروف العرضية وغير العادية.

هذه الآراء ذاتها كانت توجه صديقي الفتى أيضاً؛ ولا بأس أن نلاحظ أن السعادة الدائمة التي ميّزت حياته كلها كانت، في مجملها، نتيجة نهج مسبق. ومن الواضح الأكيد أن إليسون لن يصل، من جراء نجاحه الخارق في حياته، إلى الإنزلاق في دوّامة الشقاء المشترك، التي تنفتح أمام جميع الأشخاص الذين أنعم القدر عليهم بشكل عجيب، وذلك بفضل القليل من تلك الفلسفة الغريزية التي تغني، في حالات كثيرة، عن التجربة. غير أنني لا أهدف إطلاقاً إلى كتابة بحثٍ في السعادة. إنَّ أفكار صديقي يمكن أن تلخص في بضع كلمات. لم يكن يوافق إلا على أربعة مبادىء، أو تحديداً، أربعة شروط أولية للسعادة. الشرط الذي كان يراه الأكثر أهمية هو (وهذا شيء غريب) شرط الرياضة الحرة في الهواء الطلق. كان يقول: «الصحة التي نحصل عليها بوسائل أخرى لا تكاد تجدر بهذا الاسم». كان يذكر لذة صياديّ الثعالب، ويرى أن الفلاحين هم الوحيدون الذين يمكن اعتبارهم، كنوع، أكثر سعادة من الآخرين. وكان الشرط الثاني حب المرأة. وكان الثالث، وهو أصعبها تحقيقاً، إحتقار الطموح جملة. أما الرابع فكان خلق الجمال، وهو مسألة سعي متواصل؛ وكان يؤكد أن إمتداد السعادة التي يمكن بلوغها متناسب مع روحانية هذه المسألة في الشرط الرابع.

كان إليسون متميزاً، على نحوٍ عجيب، بإنهمار النعم عليه، يفوق الجميع بلطفه وجماله. وكان ذكاؤه من النوع الذي لا يشكّل إكتساب المعرفة، بالنسبة له، عملاً بقدر ما هو حدسٌ وضرورة. كانت عائلته من أشهر العائلات، وزوجته أكثر النساء جمالاً وإخلاصاً.

يظهر أنه كان قد مات في مقاطعة بعيدة منذ حوالي مئة سنة وقبل بلوغ إليسون، شخص يدعى سيبرايت إليسون. جمع هذا الرجل ثروة طائلة، وبما أنه لم يكن لديه أقرباء مباشرون، ترك لثروته أن تتراكم طوال قرن كامل بعد موته. غير أنه كان قد عيّن هو نفسه طرق إستثمار أمواله، بدقةٍ وحكمةٍ بالغتين، وأوصى بها كلها إلى أكثر الأشخاص قرابة دموية إليه بشرط أن يحمل اسم إليسون ويكون حيّاً في نهاية السنة المئة تماماً. وقد بذلت محاولات كثيرة لإلغاء هذا الإرث الغريب؛ لكنها فشلت جميعاً لأنها تعتمد على إعتبار القانون ذا مفعول رجعي - غير أن الحكومة تنبهت للأمر وسنّت قانوناً يمنع تجميع مثل هذه الثروة في المستقبل. لكن هذا القانون لم يمنع الفتى إليسون من أن يمتلك، وهو في الحادية والعشرين من عمره، كوريثٍ لسلفه سيبرايت، ثروة تبلغ أربعمئة وخمسين مليوناً من الدولارات.

حين عرف هذا الرقم المعجز، جرت تأملات كثيرة لمعرفة كيفية التصرّف فيه. كانت ضخامة الإرث وإمكانية إستخدامه تذهل هؤلاء الذين يحلمون بالموضوع. وكان سهلاً أن يفترض أن هذا الوارث الذي يملك ثروة تفوق جميع ثروات المواطنين الآخرين، سيغرق في جنون البهرج الإجتماعي الحديث، - أو يستسلم للدسائس السياسية، - أو يطمح إلى السلطة الوزارية، - أو يشتري رتبة أعلى في درجات النبالة، - أو يجمع مجموعات فنية كبيرة، - أو يلعب الدور العظيم الذي يلعبه راعي الآداب والفنون والعلوم، - أو ينشيء مؤسسات خيرية عظيمة باسمه. لكن هذه الأمور وجميع الأمور العادية في الإنفاق كانت تبدو، بالنسبة لثروته التي لا تُحصى، أنها لا تشكل إلّا جزءاً بسيطاً. فقد تأكد أن عائداته السنوية، حتى بنسبة ثلاثة بالمائة، لا تقلّ عن ثلاثة عشر مليوناً وخمسة آلاف من الدولارات؛ أي مليون ومئة وخمسة وعشرون ألف دولار كل شهر؛ أو ستة وثلاثون ألفاً وتسعمئة وتسعون دولاراً كل يوم؛ أو ألف وخمسمئة وواحد وأربعون دولاراً كل ساعة؛ أو ستة وعشرون دولاراً كل دقيقة. هكذا تجاوزت الفرضيات الحدود؛ واكتفى الناس بالتخيل. قال بعضهم إن السيد إليسون سيتخلّى، على الأقل، عن نصف ثروته إلى أقربائه. وبالفعل ترك لهم ثروته الكبيرة التي كانت له قبل حصوله على هذا الإرث.

مع ذلك لم يفاجئني ان يكون قد اتّخذ قراراً، منذ وقت طويل، فيما يتعلق بالقضية التي كانت تثير بين أصدقائه جدلاً كبيراً، ولم يدهشني كذلك نوع هذا القرار. فلقد أراح ضميره، بالنسبة إلى أعمال الخير الفردية. أما بالنسبة إلى إمكانية كمالٍ ما، بالمعنى الخالص، يقوم به هو نفسه في وضع الإنسانية العام، فإنني أعترف بأسف أنه لم يكن يؤمن بذلك إلا قليلاً. فقد كان، على الجملة، وبشكل عام ينطوي على نفسه، من أجل سعادته أو من أجل شقائه.

كان شاعراً بأوسع معنىً وأشرفه. يفهم الصفة الحقيقية والهدف الرفيع والجلال الأسمى والعظمة في العاطفة الشعرية. كانت غريزته تقول له إن الفرح التام، إن لم يكن الوحيد، الخاص بهذه العاطفة يكمن في خلق أشكال جديدة من الجمال. وقد وَسَمتْ بعض الخصوصيات، سواء في تربيته الأولى، أو في طبيعة ذكائه، تأملاته الأخلاقية بسمات ما يدعى نزعة مادية، وربما كان ذلك هو السبب الذي دعاه للاعتقاد أن المجال الممتاز لتمرس الموهبة الشعرية، إن لم يكن المجال الحقيقي الوحيد، يكمن في خلق صيغ جديدة من الجمال الطبيعي المحض. هذا ما حال دون أن يصير موسيقياً أو شاعراً، - إذا إستعملنا الكلمة الأخيرة بمعناها الأليف. لعلّه أيضاً لم يهتم في أن يصبح هذا أو ذاك، بتأثير فكرته وحسب، وهي رأيه أن أحد المبادىء الأساسية للسعادة على الأرض، يقوم على ازدراء الطموح. إذا كان لا بدّ لعبقريٍّ من طراز كبير، من أن يكون طموحاً، فهل يستحيل حقاً أن نتصور أنّ هناك نوعاً من العبقرية أكبر أيضاً، هو فوق ما نسميه طموحاً؟ ألا نستطيعُ هكذا أن نفترض أنه وجد كثير من العباقرة أعظم من ملتون، وارتضوا أن يبقوا « خرساً وبلا مجد»؟ أعتقد أن العالم لم يَرَ ولن يرى، بإستثناء حالة تشحذ فيها مجموعة من الصدف العبقري الأكبر وتقسره على ممارسة ما لا يلذّ له، كمال التنفيذ، الذي تقدر عليه حقاً الطبيعة الإنسانية في أغنى مجالات الفن.

لم يصبح، إذن، إليسون موسيقياً ولا شاعراً، وإن لم يكن هناك إطلاقاً أيّ شخصٍ أكثر منه ولعاً عميقاً بالموسيقى والشعر. لم يكن مستحيلاً أن يصير رسّاماً لو كانت له ظروفٌ غير ظروفه الحاضرة. النّحتُ، وإن كان بطبيعته شعرياً، فنّ محدود المجال والأثر، فلم يكن يثير اهتمامه. عددت المجالات التي يمكن أن تعنى بها الروح الشعرية، إستناداً إلى خبرة العارفين. لكن إليسون كان يؤكد أن المجال الفنيّ الأغنى والأكثر طبيعيّةً وصِحّة، إن لم يكن الأرحب إطلاقاً، أهمل بشكلٍ لا يُفسر. فليس هناك أي تحديد للبستانيّ - الريفيّ، كما حُدّد الشاعر، وكان، مع ذلك، يبدو لصديقي أنّ خلق البستان - الريف يقدّم لإلآهةٍ شعرية خاصة أروع المناسبات. هنا، في الواقع، أجمل مجال لامتداد خيال يهتمُّ بالتآلف اللانهائي في أشكال الجمال الجديدة. إنه يتعرف، في كثرة أشكال الزّهر والشجر وألوانها، على أكثر جهود الطبيعة ذاتية وحيوية لخلق الجمال الطبيعيّ. وفي إتجاه هذا الجهد أو تمركزه، أو بالأحرى في تكيفه مع العيون المقدّر لها أن تتأمل نتائجه على هذه الأرض، يشعر أنه مدعوٌّ لاستخدام أفضل الوسائل. والعمل بأفضل ما يمكن، - كي يكمل ليس مصيره الخاص كشاعر وحسب، بل أيضاً أهدافاً عظيمة لأجلها أصّلتِ الألوهة في الإنسان العاطفة الشعرية.

«تكيّفه مع العيون المقدّر لها أن تتأمل نتائجه على هذه الأرض»؛ كان إليسون يحلّ تقريباً بالتفسير الذي يُعطيه لهذه الجملة، ما كان دائماً، بالنسبة لي، لغزاً؛ أقصد الإشارة إلى هذه الواقعة التي لا يناقش فيها إنسان، بإستثناء الجاهل، وهي أنه لا وجود في الطبيعة لأيّ تآلفٍ تزييني بالشكل الذي يستطيع أن يحققه الرسام العبقريّ. لا نعثر في الطبيعة على جنّاتٍ تشبه

الجنّات التي تتلألأ في لوحات كلودلورّان. في أكثر المناظر الطبيعية فتنةً وسحراً، نكتشف دائماً خللاً أو إفراطاً. فليس هناك مكانٌ على سطح هذه الأرض الطبيعية، إلا وتشعر فيه عين المتأمل النّابه بخللٍ ما في ما يُدعى تأليف المنظر. لكن كم يستعصي هذا على الفهم! لقد تعلمنا، من ناحيةٍ أخرى، أن نعتبر الطبيعة شيئاً كاملاً. وكنّا نرتعد، فيما يتعلق بالتفاصيل، من التجرؤ على منافستها. من يزعم تقليد ألوان الخزامى، أو يكمّل نُسب الزّنبق. النقد القائل، في معرض النحت أو التصوير، بأنّ الطبيعة ينبغي أن تُشرّف أو تنسب لها صفات الكمال، نقدٌ مخطىء. إنّ أيّ تآلفٍ من عناصر الجمال الإنساني، في التصوير أو النّحت، لا يقدر أن يفعل أكثر من الاقتراب إلى الجمال المتحرك الحيّ. يُصبح مبدأ النقد صحيحاً في الطبيعة وحدَها؛ لقد شعر بها جيداً من هذه الناحية، ولم تدفعه غير الروح المأخوذة بالتعميم، للاستنتاج أن هذا المبدأ صحيح في جميع حقول الفنّ. قلتُ، شعر بها جيّداً من هذه الناحية؛ ذلك أن الشعور ليس تصنعاً ولا وهماً. لا يقدم الرياضيون أدلة أكثر إطلاقاً من الأدلة التي يستخرجها الفنان من الشعور بفنه. إنه لا يعتقد وحسب، بل يعرف حقاً أن تنسيقات المادّة بشكل أو آخر، والكيفية في الظاهر، تشكل وحدها الجمال الحقيقيّ. إلّا أن حججه لم تكن بعد قد نضجت نُضجَ التعبير. كان ينقصها جهد التحليل، ـ تحليلُ أعماقٍ يجهلها العالم حتى اليوم، لكي تصاغ ويعبّر عنها بشكل كامل. غير أن الفنّان مؤيدٌ في آرائه الغريزية بصوت إخوته كلهم. لنفترض تأليفاً مشوّشاً؛ ولنفترض أنّ تصحيحاً تمّ في تآلف، وأن هذا التصحيح خضع لحكم جميع الفنانين في العالم. حينذاك تُصبح ضرورة التصحيح مقبولةً من الكلّ. وأفضل أيضاً! يقترح الجميع هذا التصحيح ذاته لهذا التأليف.

أكرّر أن الطبيعة المادية، في تأليف المناظر وحسب، قابلةٌ للتصعيد، وأنّ قابلية الكمال هذه في هذا الجزء الوحيد كانت سرّاً عجزتُ عن حلّه. كانت تأملاتي كلها حول هذا الموضوع تعتمد على الفكرة القائلة بأنّ القصدَ البدائيّ للطبيعة لا بدّ أن يكون قد نظم سطح الأرض بشكلٍ يرضي من جميع النواحي الشعور الإنسانيّ بالكمال في الجميل والسّامي أو الفاتن؛ وأنّ هذا القصد البدائي كانت قد أحبطته التقلبات الجيولوجية المعروفة بالألوان والأشكال التي تكمن روح الفنّ في مزجها وتصحيحها. لكنّ قوة هذه الفكرة أضعفتها الضرورة الناتجة عن اعتبار هذه التقلّبات شاذّةً وليس لها هدَفٌ من أيّ نوع. إن إليسون هو الذي أوحى إليّ أنّها كانت حدوس موت. وكان يوضح الأمر كما يلي: «لنقل إن خلود الإنسان الأرضي كان القصد الأوّل. هكذا نتصوّر ترتيباً أولياً لسطح الأرض صالحاً لحالة الإنسان السعيدة هذه، حالةٍ لم تتحقّق، بل تُخيلت. ولم تكن التقلبات إلّا إعداداتٍ لشرطها المميت، المدرك فيما بَعدُ».

ثم يضيف صديقي: «إذن، ما نراه تمجيداً للطبيعة قد يكون تمجيداً بالفعل، لكن من وجهة النظر الأخلاقية أو الإنسانية فحسب. كلّ تغيير في المنْمق الطبيعي قد يحدث خللاً في اللوحة، إذا استطعنا أن نفترض اللّوحة منظورة ككلّ، ككتلة، من نقطةٍ ما بعيدةٍ عن سطح

الأرض، وإن لم تكن وراء حدود جوّها. ندرك بسهولةٍ أن كمالَ تفصيل ما، مدروسٍ عن كثب، يمكن في الوقت ذاته أن يفسد تأثيراً عاماً، تأثيراً يدرك من مسافةٍ بعيدة. وقد تكون هناك طبقةٌ من الكائنات الخاصة بالإنسانية قديماً، ولا تراها اليوم، تبدو فوضانا لها، في منطقتها البعيدة، نظاماً، وقبحنا فاتناً؛ وبكلمةٍ واحدة، ربما أراد الله أن ينشر أمام عيون الملائكة الأرضيين الذين يملكون حساً بالجمال أرهفه الموت، البساتين ـ الأرياف اللانهائية في أنصاف الكرة الأرضية».

كان صديقي في سياق الحديث يستشهد ببعض ما قاله كاتب عالج موضوع البستان ـ الريف، ويفترض انه عالجه بعمق.

«ليس هناك على وجه الدقة غير أسلوبين للبستان ـ الريف؛ الطبيعي والصُّنْعي. أحدهما يحاول أن يُحيي الجمال الأصيل في الريف، فيطابق وسائله مع المنمق المحيط؛ ويزرع أشجاراً تتناسق مع التلال أو السهول في الأرض المجاورة كلها؛ ويكتشف هذه العلائق الدقيقة في الحجم والنسبة واللون ويطبقها، وهي علائق تخفى على الملاحظ العادي وتتجلى في كل مكان لتلميذ الطبيعة الخبير. إن نتيجة الأسلوب الطبيعي فيما يتعلق بالحدائق تظهر في غياب كل تشوشٍ وكل خلل، في سيطرة النظام والتناسب، أكثر مما تظهر في خلق فرائد وبدائع خاصة. ويتضمن الأسلوب الصنّعي تنوعاً بقدر تنوع الأذواق. إن له نوعاً من العلاقة العامة مع مختلف الأساليب الهندسية. هناك الشوارع الضخمة وزوايا فرساي؛ هناك الأرصفة الايطالية؛ ثم هناك أسلوب إنكليزي قديم، مختلط ومتنوع، ومتأثر بعض التأثر بالهندسة القوطية المنزلية والهندسة في العصر الإليزابيثي. إن إدخال الفن الخالص في مشهد بستان يضيف إليه جمالاً كبيراً، على الرغم مما يمكن قوله ضد الأسلوب الصنّعي في البستان ـ الريف. هذا الجمال أخلاقيٌ، في جزء منه، وهو مصنوع في بعض منه لكي يسرّ العين بنشر النظام والقصد الذي صار واضحاً. إن رصيفاً، بدرابزونٍ قديم تغطيه الأشعة، يعكس للعين مباشرةً الخلائق الجميلة التي عبرته في أزمنة أخرى. إن أبسط الأمارات الفنية شهادة اهتمام ورغبة إنسانيين».

وتابع إليسون قائلاً: «إنك تدرك إستناداً إلى ملاحظاتي الآنفة، أنني أرفض الفكرة التي عبر عنها المؤلف ـ فكرة بعث الجمال الريفي الأصيل. فهذا الجمال الأصيل لا يصل قط إلى مستوى الجمال الذي يقدر الإنسان أن يدخله على الطبيعة. وطبيعي أن كل شيء يتوقف على إختيار مكان يوفر مجالاً كافياً. ما يتصل بفن إكتشاف العلائق الدقيقة في الحجم والنسبة واللون وتطبيقها، ليس إلا أحد الأشكال الكلامية الغامضة التي تدل على خطأ الفكرة. هذه الجملة قد تعني شيئاً ما، وقد لا تعني شيئاً، ولا يمكن أن تفيد في شيء. أن تظهر نتيجة الأسلوب الطبيعي، فيما يتعلق بالحدائق، في غياب كل تشوش وخلل أكثر مما تظهر في خلق فرائد وبدائع خاصة، قضية يقتنع بها الذكاء البسيط العادي ولا تليق بالعبقري وأحلامه اللاعجة. الحق أن المزيّة القائمة على تجنّب الخلل تستدعي الذكاء مباشرة، ولعلها، بناء على ذلك، محدودة بالقاعدة؛

لكن المزية الأعلى التي تتأجّج في الخلق لا يمكن أن تُقدر إلا في نتائجها. القاعدة لا تسري إلا على المزايا السلبية ـ المزايا التي تنصح بالامتناع. لا يقدر فنّ النقد إلا أن يوحي، فيما وراء هذه المزايا. يمكن تعليمنا تأليف دراما، لكن لن يمكن تعليمُنا تأليف بارتينون أو جحيم. مع ذلك حين يتمّ الشيء وتكتمل المعجزة تصبح القدرة على فهمهما كونيةً. السفسطائيون، من المدرسة السلبية، الذين يستهزئون بالخلق، لعجزهم عن الخلق، هم اليوم أكثر الناس تصفيقاً له. فما كان، في تكوّنه الجنينيّ، يصدم عقلهم المتحفّظ، ينجح دائماً، عند اكتمال تنفيذه، بإنتزاع الإعجاب من غريزة الجمال فيهم».

وتابع إليسون قائلاً: «ملاحظات الكاتب على الأسلوب الصنعي، هي أقل عرضة لِلنقد. إدخال الفنّ الخالص في منظر بستان يضيف إليه جمالاً عظيماً. هذا صحيح، صحيحة أيضاً الملاحظة المتعلقة بشعور الاهتمام الإنساني. المبدأ كما عُبّر عنه لا جدال فيه؛ لكن ربما كان وراءه شيءٌ ما، متطابقٌ معه، شيء لا تطوله الوسائل التي يمتلكها الأفراد عادة والذي يُدخل، إذا طالته، في البستان ـ الريف سحراً يتجاوز بكثيرٍ السحر الذي يقدر أن يُضفيه عليه شعور الاهتمام الإنساني بالمعنى الخالص. إن شاعراً تهيأت له موارد مالية خارقة، ليقدر، مع إحتفاظه بفكرة الفن الضرورية، وفكرة الثقافة أو، حسب تعبير الكاتب، فكرة الاهتمام، أن يُشرب جيداً مخططاته بالجمال الجديد الهائل بحيث توحي للناظر بشعور تدخلٍ روحي. ندرك أنه ينبغي على الشاعر أن يحتفظ، في سبيل توليد نتيجة كهذه، بكل منافع الاهتمام الإنساني أو المخطط، أو يُخلّص نتاجه في الوقت نفسه من فجاجة الفن المبتذل وتقنيته. في أقسى الصحارى، في أكثر مناطق الطبيعة الصافية وحشية، يتجلّى فنّ خالقٍ ما؛ لكن هذا الفن لا يظهر إلّا لفكرٍ عميق؛ وليست له في أية حال القوّة الواضحة في عاطفة ما. لنفترض، إذن، أن هذا المعنى لقصد الإله، انخفض درجة واحدة، سواء تناسب مع عاطفة الفن الإنساني أو تطابق معها، بحيث يشكل نوعاً من الوساطة بين الاثنين؛ ـ لنتصور، مثلاً، منظراً يوحي فيه إجتماع الجمال والروعة والغرابة بفكرة العناية والثقافة والرقابة من قبل كائنات متفوقة غير أنها متصلة بالإنسانية؛ حينذاك يُنزه شعور الاهتمام ويضفي عليه الفن الجديد ملامح طبيعة وسيطة أو ثانوية، ـ طبيعة ليست الله أو فيضاً من الله، لكنها الطبيعة التي تخرج، لو خرجت، من أيدي الملائكة الذين يحومون بين الإنسان والله».

في وقف ثروته الضخمة على تحقيق رؤيا كهذه؛ ـ في التدرب الطبيعي الحرّ في الهواء الطلق مما تفرضه ضرورة المراقبة الشخصية لمخططاته؛ ـ في الشيء الدائم الذي كانت تتجه إليه دائماً هذه المخططات، ـ في الروحانية العالية لهذا الشيء، ـ في هذا الازدراء لكل طموح يتيح له الشعور حقاً، ـ في الينابيع الدائمة التي كان هذا الهدف يفجرها لعطشه إلى الجمال، هذا الهاجس النفسي المسيطر الذي لا يقل ظمأ؛ ـ وفوق هذا كله، في التعاطف الأنثوي الحق، تعاطف امرأة يغمر جمالها وحبها وجودَه بجوٍّ فردوسي؛ ـ في هذا كله ظن إليسون أنه يتحرر من

الهموم العادية للإنسانية.

إنني يائس من إعطاء القارىء فكرة واضحة عن الفرائد التي توصل صديقي إلى تحقيقها. أريد أن أصفها، لكن صعوبة الوصف تخمد نشاطي، وأتردد بين الجزئي والعام، ولعل الطريقة الفُضلى هي الجمع بينهما.

كانت النقطة الأولى، بالنسبة لإليسون، تتعلق بداهةً بانتقاء المكان؛ ومذ شرَع يتأمّل في هذا الأمر، سرعانَ ما لفتت انتباهه طبيعة الجزر الغنّاء في المحيط الهادىء. وبالفعل قرّر أولاً القيام برحلةٍ صوب البحار الجنوبية، لكن كفاه ليلٌ من التأمل لكي يتخلّى عن هذا القرار. كان يقول: «لو كنت أكره الناس لكان هذا المكان يلائمني. العزلة والإنزواء الكاملان وصعوبة الدخول والخروج تصبح في هذه الحالة سحر السحر؛ لكنني لم أصر بعد مثل تيمون الأثيني. إنني أحلم بالهدوء، لا بوطأةِ الوحدة. أريد أن أحتفظ بنوعٍ من السلطة نظراً إلى امتداد راحتي وبقائها. ستأتي غالباً ساعاتٌ أحتاج فيها إلى تعاطف أرواح شعرية في سبيل الأثر الذي سأحققه. دعني إذن أبحث عن مكانٍ لا يبعد كثيراً عن مدينةٍ آهلة، سيسهل جوارها، من ناحية ثانية، تنفيذ مخططاتي».

سافر إليسون، في سبيل البحث عن المكان وموقعه كما يشتهيهما، طيلة سنواتٍ عديدة، وسمح لي أن أرافقه. رفض دون تردد آلافـ الأمكنة التي أعجبتني، لأسبابٍ أقنعتني أخيراً أنّه على حق. أخيراً عثرنا على سهلٍ عالٍ، جميلٍ وخصبٍ بشكل مدهش، ويطل على منظر فسيح كبير، بحيث لا يُضاهى في روعته وسحره.

بعد حوالي ساعة من تأمل هذا المنظر، قال لي، وهو يتنهّد بغبطة وينتشي: «أعرف أن معظم الناس المرهفين يُسرّون هنا، في مثل ظروفي الشخصية. هذا المنظر رائعٌ حقاً، وأنا أتمتع به، لا لسببٍ إلّا لفرط الروعة. إن ذوق جميع المهندسين، الذوق الذي أتيح لي التعرّف إليه يدفعهم، حباً بوجهة النظر، لبناء داراتهم على قمة الجبل. وفي هذا خطأٌ واضح. العظمة، في جميع أشكالها، خصوصاً في شكلها الرّحب، تُوقظ وتثير، لكنها سرعان ما تُتعب وترهق. ليس أفضل من ذلك بالنسبة لمنظر المناسبة، وليس أسوأ منه بالنسبة لمنظر دائم. وأكثر ما يُعابُ، في منظر ثابتٍ، هو الاتساع؛ وأسوأ شكلٍ للاتساع هو الفضاء. هذا يتناقض مع إحساس الوحدة والحاجة إليها، ـ وهما إحساس وحاجةٌ نعمل على إشباعهما باعتزالنا في الريف. إذا نظرنا من أعلى جبلٍ، لا نقدر أن نمنع أنفسنا من أن نشعر أننا خارج العالم، غرباء في العالم. ومن يحضن الموت في قلبه يتجنب المناظر البعيدة كما يتجنب الطاعون».

حوالي نهاية السنة الرابعة من بحثنا عثرنا على مكانٍ أعلن إليسون أنه أرضاه. لا شك ألا فائدة في القول أين يقع هذا المكان. لقد أضفى موت صديقي، منذ عهد قريب، إذ فتح المجال لتقوم بزيارة هذا المكان فئاتٌ معينة من الزائرين، ـ أضفى على أرنهايم نوعاً من الشهرة الخفية الخاصة، إن لم أقل الطقوسية، التي تشبه من ناحية ما، على الرّغم من أنها أعظم بما لا يقاس،

الشهرة التي ارتبطت طويلاً بفونثيل.

كانت زيارة أرنهايم تتم عادة بطريق النهر. كان الزائر يغادر المدينة في الصباح الباكر. يعبر أوّلاً بين شواطىء ذات جمال هادىء وأليف، ترعى فيها خرافٌ عديدة يرقش صوفُها بالبياض العشب المتلألىء في السهول المتموجة. كان انطباعُ المدنية يذوب تدريجياً في إنطباع حياة ريفية خالصة. وهذا الانطباع يغرق رويداً رويداً في إحساس بالعزلة، يتحول، بدوره، إلى شعور كامل بالوحدة. وبقدر ما كان المساء يقترب، كان الممرّ النهريّ يضيق؛ والأجرافُ تنحدر وعرة وتكتسي بأوراق أوفر وأخصب وأكثر عتمة، وشفافية الماء تزداد؛ وتزداد تعرجات النهر بحيث لا يكاد يُرى سطحُه اللامع. وفي كل لحظة يبدو المركب سجيناً في دائرة مسحورة، مرسومة بجدران من الورق، لا يمكن عبورُها أو اختراقُها، وسقفٍ من حرير ما وراء البحار - وكأنما يتأرجح صدرُه على صدر مركب وهمي آخر يبحر معه لكي يقيه ويدعمه. هكذا كان الممرَّ يتحوّل إلى مضيق؛ واستخدم هذه الكلمة مع أنها لا تصح هنا تماماً، لأن اللغة لا تسعفني بكلمة غيرها تعبر، بشكل أفضل، عما يتميز به المنظر من المدهش البديع. ولم تكن تتجلّى خاصية المضيق هذه إلا بعلو الشواطىء وتوازيها؛ إذ إنها كانت تغيب في ملامح هذه الشواطىء الرئيسية الأخرى. كانت جوانب المجرى العالي، التي يجري بينها الماء صافيا هادئا بإستمرار، تعلو مئة قدم وأحياناً تصل إلى علو مئة وخمسين قدماً، وينحني كل جانب نحو الآخر بحيث أنها كانت تسد تقريباً المنافذ على ضوء النّهار؛ والطحالب الكثيفة الطويلة التي تتدلى كريش معكوس، تضفي على الهاوية كلها جوّاً من كآبة الموت. وكانت التعرجاتُ تزداد وتتعقد وتبدو أحياناً أنها تعود على أعقابها، بحيث يتيه المسافر ويضيع الاتجاه. ويبقى الممر فوق ذلك مغموراً بشعور ناعم من الغرابة. كانت فكرة الطبيعة ما تزال قائمة لكنها آخذة بالتحول؛ ويهيء ذلك تناظراً خفياً، ووحدة شكل مؤثرة، وتصحيحاً سحرياً في هذه الآثار الجديدة. ما من غصن ميت، أو ورقة يابسة أو حصاة تائهة، أو تلة من التراب سمراء، إلا كانت ظاهرة للعين. كان الماء البلوريّ يتدفق على الصوَّان الأملس أو على الطحلب النقي بخطوط حادة تَشْدَهُ العين وتنعشها في آن واحد.

كان الزائرون يجرون خلال ساعات عبر منعطفات هذا الممرّ، وفجأةً ينزلق المركب، كما لو أنه يسقط من السماء، في حوض دائريّ فسيح جداً بالقياس إلى عرض الممرّ. ويبلغ قطر هذا الحوض حوالى مئتي ياردة، وتحيط به من جميع جهاته، بإستثناء الجهة التي تواجه المركب لحظة دخوله، تلال يتساوى علوّها عامة بجدران الهاوية، لكنها تختلف عنها تماماً. كانت أكنافها تعلو منحدرة من ضفة الماء، بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، مكسوة من قاعدتها إلى قِمتّها، دون فراغ واضح، بنسيج من طاقات الزهر البديع؛ وقلما تبدو ورقة خضراء، هنا وهناك، في هذا البحر من الألوان، المتموج العطِر. وكان هذا الحوض ذا عمقٍ كبير؛ غير أن ماءه كان من الشفافية بحيث أن القاع الجامد في كتلة كثيفة من الحصى الصغير المدوّر الرخامي، يبدو واضحاً للعين كالبرق، - أي كلما عجزت العين أن ترى، في أعماق السماء المعكوسة، أزهارَ التلال

المنعكس. ولم يكن شجر في هذه التلال ولا حتى شجيرات صغيرة. كانت الإنطباعات التي يتلقاها الملاحظ هي إنطباعات الغنى، والدفء، واللون، والهدوء، والتناسق، والعذوبة، والإناقة، والرشاقة، واللذة والثقافة الغريبة العجائبية التي تبعث على الحلم بجنس جديد من التوابع النشيطة الرائعة التي تملك ذوقاً كاملاً، والتي يصعب إرضاؤها؛ لكن، حينما كان النظر يجول مدى المنحدر المغمور بالألوان، بدءاً من التقائه الناعم بالماء حتى نهايته الغامضة بين ثنايا الغيوم العالية، كان يصعب حقاً ألا يتصوّر المرء أن شلالاً دائرياً من الياقوت الأحمر والأزرق، والحجر الكريم الكثير الألوان، والزبرجد يتساقط بهدوء من السماء.

حين يصل الزائر فجأةً إلى هذا الحوض، مع خروج الظلمات من الممرّ، تُنعشه وتذهله في آنٍ واحد، الدائرة الفسيحة للشمس الغاربة التي كان يظنّ أنها هوت تحت الأفق، وهي الآن حاضرة قبالته وتشكل السياج الوحيد لمنظرٍ كبير ينفتح عبر شق معجزٍ آخر يفصل التلال.

آنذاك يترك المسافر المركب الذي أوصله إلى هنا، ويهبط في زورق خفيف من العاج، مزين برسوم آرابسكية ذات لون قرمزي حادّ، في داخله وخارجه ايضاً. مؤخر هذا الزورق ومقدمه عاليان جداً عن سطح الماء وينتهيان بطرف حادّ، ممّا يعطيه الشكل العام لهلال غير منتظم. وهو يرتاح على سطح الحوض بلطافة البجع وبهائه. الضيف هنا مدعوٌّ ألا يفقد شجاعته؛ - فسوف تعنى به إلآهات الجحيم الثلاث. ويختفي المركب الكبير ويترك وحده في الزورق الذي يرتاح دون حركة ظاهرة وسط البحيرة. لكنه، حين يحلم بالطريق التي ينبغي عليه أن يسلكها، ينتبه لحركة بالغة النعومة في المركب السحري. هذا المركب يدور على نفسه ببطء حتى يتجه صدره نحو الشمس. ثم يتقدّم بسرعة لينة، تزداد شيئاً فشيئاً، في حين تبدو التموجات الخفيفة التي يولّدها أنها تطلق حول الجوانب العاجية لحناً إلهياً، - وكأنها تقدّم التفسير الوحيد الممكن لهذه الموسيقى الكئيبة المؤنسة التي يبحث المسافر المندهش عبثاً حوله عن مصدرها الخفيّ.

يجري الزورق جريئاً ويقترب من الباب الصخري للمنفذ السائل، بحيث تقدر العين أن تقيس أعماقه بشكل أفضل. إلى اليمين ترتفع سلسلة من التلال العالية تغطيها غابات ذات وحشية فاتنة. مع ذلك، يلاحظ الزائر أن ميّزة النقاوة العجيبة، حيثما يغرق الجرف في الماء، تسيطر بإستمرار. ولا يبدو أي أثر لأنقاض الأنهار العادية. شكل الطبيعة إلى اليسار، أكثر عذوبة وأكثر صنعة كما يظهر. هنا، تنبثق الضفة من المجرى المنحدر، وتعلو في منحدر ناعم عالٍ، يشكل مرجاً عريضاً من العشب، يشبه شبهاً كاملاً نسيجاً مخملياً بخضرة متلألئة يمكنه أن يصمد لمقارنته بلون الزمرّد الخالص. عرض هذا المرج يتراوح بين عشر ياردات وثلاثمئة ياردة، وهو ينتهي بجدارٍ يبلغ علوه خمسين قدماً، ويتطاول في لا نهاية من التعرجات، لكنه يتبع دائماً المجرى العام للنهر، إلى أن يضيع في الفضاء باتجاه الغرب. هذا الجدار صخرة متتابعة، وقد تشكل بنتيجة قطع حاجز الهاوية عمودياً، وهو حاجز وعرٌ كان يشكل الشاطىء الجنوبي للنهر؛

لكن لم يُترك أيّ أثر لهذا العمل. للحجر المقطوع لونُ العصور مغطى ومظللاً باللبلاب وزهر العسل والنسرين والياسمين البري. كان تشابه خطيّ الجدار، في القمة والقاعدة، ملطفاً بأشجار عالية جداً، تعلو فُرادى أو مجموعات صغيرة، قريبة من الجدار حتى لتلامس أغصانها الماء. لا يتسطيع النظر أن يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يحول دونه حاجز من الأوراق لا يمكن اختراقه.

هذه الأشياء كلها يلاحظها الزائر خلال دنوّ الزورق تدريجياً مما أسميتُه باب المنفذ السائل. مع ذلك، حين يقترب منه، تختفي عنه ضفة الهاوية؛ ويظهر للحوض مجرىً آخر إلى اليسار ويستمر الجدار راكضاً في هذا الاتجاه، مواكباً دائماً مجرى النهر. لا تستطيع العين أن تنفذ بعيداً، عبر هذه الفتحة الجديدة؛ ذلك أن النهر الذي يواكبه الجدار دائماً، يزداد إنعطافاً شيئاً بعد شيء إلى اليسار، وسرعان ما يغيب كلاهما بين الأوراق.

إلا أن الزورق ينزلق سحرياً في الممر المتعرج؛ وهنا تشبه الضفة الموازية للجدار الضفة التي تواجهه. ودائماً تغلق المنظر تلالٌ عالية تأخذ غالباً نسب الجبال وتتغطى بالنباتات الوحشية العجيبة.

يجد المسافر المبحر بهدوءٍ، لكن بسرعة تزداد رويداً رويداً، يجد بعد كثير من التعرجات المفاجئة، أن طريقه مسيجة ظاهرياً بسياج ضخم أو بالأحرى بباب ذهبي ساطع مُتقن الصنع والنحت، يعكس أشعة الشمس الآخذة بالهبوط السريع، ويتوج بلهيبها الأخير الغابة المحيطة كلها. هذا الباب مندمج في الجدار الكبير الذي يبدو هنا كأنه يعبر النهر بزاوية مستقيمة. لكن الزائر ينتبه، بعد عدة لحظات، إلى أن المجرى الرئيسي للماء يهرب بإستمرار في إتجاه اليسار، في منحنىً طويل هادىء، يواكبه الجدار أيضاً، بينما يشق جدولٌ آخر متوسط الاتّساع، منفصل عن الأول، ـ يشقّ طريقاً تحت الباب بصوت خفيف ويغيب هكذا عن العين. ويسقط الزورق في الممر الصغير ويتقدم نحو الباب الذي تتفتح مصاريعه الثقيلة ببطء وموسيقى. وينزلق المركب بينهما، ويبدأ بالانحدار السريع في مسرح واسع تشكله بكامله الجبال الأرجوانية، ويغمر قاعدته نهر متلألىء على إمتداد محيطها كله. وفي الوقت نفسه تتفجر أمام النظر جنّة أرنهايم بكاملها. يسمع الزائر إنبجاس الموسيقى المحيية؛ ويحس أن عطوراً ناعمة وغريبة تضغط عليه؛ ويلمح، كالحلم الكبير، عالماً نباتياً تتمازج فيه الأشجار الكبيرة الآتية من الشرق، والشجيرات الكثيفة، وأسراب العصافير الذهبية والعقيقية، والبحيرات المهدبة بالزنابق، ومروج البنفسج والخزامى والسوسن والخشخاش والياسمين وشباك الماء الطويلة التي تعقد شرائطها الفضية، ـ وتنبعث بغموضٍ وسط هذا كله، كتلة من الهندسة، نصفها قوطي ونصفها الآخر إسلامي، وتبدو أنها واقفة في الفضاء وكأنها واقفة بمعجزة، ـ تاركة لنوافذها الناتئة ومنائرها وأبراجها أن تتوهج في ضوء الشمس الأحمر، حيث تظهر كأنها نتاج سحري اشترك فيه العقاريت وشياطين الفضاء والخلائق غير الطبيعية والجنّ.

الفهرست

إن إدغار آلن بّو، شأنه في ذلك شأن دولاكروا الـذي ارتفع بفنّـه إلى مستوى الشعـر العظيم، يحبّ أن يحرك أشكالَهُ على أرض بنفسجية وخضراء حيث يتجلّى وميض العفن ورائحة العاصفة. الطبيعة المسماة ميتة، تشارك طبيعة الكائنات الحية؛ ومثلها ترتعش رعشة كهربائيـة خارقة. الأفيون يعمّق الفضاء، يُعطي معنى سحرياً للأصباغ ويجعل الأصوات تهتزّ برنين أكـثر دلالة. وكثيراً ما تفاجئنا فلتاتٌ رائعةٌ من الكلام والضوء واللون في ما يقدمه لنا. ونلمح بغتة مدناً شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البُعد، حيث الشمس تمطر الذّهب، وحيث الغرابةُ جزءٌ من الجميل لا يتجزّأ.

(من مقدمة بودلير)

